

مجموعة رسائل الشيخ

عبد الله بن زيد آل محمود

رحمه الله تعالى

الطبعة الثالثة

الدوحة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

طبعة جديدة بصف وإخراج جديد

المجلد السادس

الحكم الجامعة (١)

مجموعة رسائل الشيخ

عبد الله بن زيد آل محمود

رحمه الله تعالى

المجلد السادس

الحكم الجامعة (١)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محتويات المجلد

- ١ مقدمة المؤلف
- ٨ (١) مولد الرسول ﷺ وعموم بركة بعثته
- ١٦ (٢) الإسراء والمعراج وبيان مُعجزات الأنبياء
- ٢٤ (٣) المحافظة على الصلوات الخمس وكونها العنوان على صحة الإيمان
- ٣١ (٤) الجمعة وفرضها وبيان فضلها والتحذير من دخول البدع فيها
- ٣٨ (٥) التذكير بالخطبة الأخيرة من يوم الجمعة
- ٤٠ (٦) فضل الإسلام وما يشتمل عليه من المحاسن والمصالح العظام
- ٤٨ (٧) نظام شرع الإسلام وكونه صالحاً لكل زمان ومكان
- ٥٤ (٨) دعوة النصارى وسائر الأمم إلى دين الإسلام^١
- ٦٥ (٩) القوانين وسوء عواقبها على الدين
- ٧٣ (١٠) غربة الإسلام وفساد الناس في آخر الزمان
- ٧٩ (١١) فضل العلم وتعلّمه وتعليمه
- ٨٥ (١٢) فضل القرآن وتفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ٢٩]. ٨٥
- ٩٣ (١٣) هجرة النبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة
- ١٠٢ (١٤) وجوب الإيمان بما أخبر به القرآن من مُعجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام..... ١٠٢

- (١٥) التذكير بحديث «المؤمن القويّ أحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف» وفيه بيان القضاء والقدر على الوجه الصحيح..... ١١٢
- (١٦) حديث «الطهور شرط الإيمان...» إلخ..... ١٢٢
- (١٧) تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧] ١٢٩
- (١٨) فضل الدعاء وكونه يدفع شر القدر والقضاء..... ١٣٧
- (١٩) آية الحقوق العشرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]..... ١٤٤
- (٢٠) الحياة الطيبة وكونها لا تُدرَك إلا بالأعمال الصالحة..... ١٥٢
- (٢١) تهذيب الأولاد على المحافظة على الفرائض والفضائل والتّزّه عن مُنكرات الأخلاق والردائل..... ١٥٩
- (٢٢) قوله سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]..... ١٦٣
- (٢٣) وصيّة لقمان لابنه..... ١٦٩
- (٢٤) في حقوق الزوجة..... ١٧٧
- (٢٥) الصلاة في الجماعة وصفة الصلاة المشروعة..... ١٨١
- (٢٦) فرض الزكاة وفضلها وبركة المال المُركى وحُسن عاقبته..... ١٨٦
- (٢٧) عقاب المانعين للزكاة وكونه يجب على الإمام أن ينتزعها منهم طوعاً أو كرهاً..... ١٩٢
- (٢٨) قوله سبحانه: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]..... ١٩٩
- (٢٩) الخلق الحسن وكونه ينحصر في فعل ما يحمله ويزينه واجتناب ما يدنسّه ويشينه..... ٢٠٦
- (٣٠) فضل النظافة وكونها من الإيمان..... ٢١٤
- (٣١) جواز الأدوية المباحة والتطعيم..... ٢١٩
- (٣٢) تفسير سورة الجمعة..... ٢٢٦
- (٣٣) فضل رَجَب وشعبان..... ٢٣٤

- (٣٤) الذكرى لآخر شعبان والاستعداد بالعمل لدخول شهر رمضان..... ٢٣٩
- (٣٥) الذكرى الجامعة لفوائد الصيام..... ٢٤٤
- (٣٦) الذكرى الثانية من رمضان..... ٢٥٢
- (٣٧) الذكرى الثالثة من رمضان..... ٢٥٩
- (٣٨) الذكرى الرابعة في العشر الأخيرة من رمضان وبيان زكاة الفطر..... ٢٦٦
- (٣٩) التذكير بعيد الفطر..... ٢٧٢
- (٤٠) نوع ثانٍ في التذكير بعيد الفطر..... ٢٧٧
- (٤١) نوع ثالث في التذكير بعيد الفطر..... ٢٨٣
- (٤٢) الخطبة الأخيرة من عيد الفطر..... ٢٩٠
- (٤٣) الذكرى في أول شَوال وفضل نوافل الصَّلاة والصَّيام..... ٢٩٢
- (٤٤) فضل عشر ذي الحجة وفضل الصَّيام فيها والصَّدقة..... ٢٩٨

مقدمة المؤلف

إنني أحمد الله على نعمه، وأستزيده من فضله وكرمه، وأصلي وأسلم على رسوله محمد وآله وصحبه، وبعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. إن لكل إنسان حاجة، ولكل حاجة غاية. وما حاجتي في مؤلفاتي إلا الدعوة إلى دين ربي، ونصيحة أمتي، بالحكمة والموعظة الحسنة، ابتغاء الثواب من ربي، والدعاء من إخواني، إذ هذه أمنيته، وغاية بغيتي ورغبتني، «والله سبحانه عند لسان كل قائل وقلبه»^(١).

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

لقد أعجبتني كلمة قالها الإمام ابن الجوزي حيث قال: إن مؤلف العالم هو ولده المخلد الصالح، إذ إن الإنسان إذا مات «نُفِطَع عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

وإن من الخسران كون الإنسان يعلم علماً مما علمه الله، ثم يموت علمه في صدره، بحيث لا يعلمه ولا يدعو الناس إليه، حتى يموت بموته ويدفن معه في قبره، فيكون علمه بمثابة الخسران على العباد والبلاد.

(١) رواه الحكيم الترمذي من حديث ابن عباس وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

والله سبحانه خلق الإنسان وعلمه البيان، وجعله بالنطق، وشرفه بالإيمان، وفضله بالعلم والعقل على سائر الحيوان، وجعله بحسن مقاصده وشرف مميزاته أفضل من ملائكة الرحمن.

ولقد عملت عملي وبذلت جهدي وجهادي في هذا المجموع، الذي هو حصاد ما زرعت فوق الثلاثين من السنين، حتى صار من توفيق الله بمثابة اللجنة العلمية فيه ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين من العلوم النافعة، والبحوث المتنوعة، مما قل أن يوجد مثلها في غيره، ولا أقول بعصمته، فقد يخفى على قائله ما عسى أن يظهر لقارئه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ولم أصنعه بصفته لأن يكون ديوان خطب منبرية فحسب، بل هو في نفسي، وفي موضوعه أعلى وأجل وأكمل وأجمل، فاتصافه بالرسائل العلمية أشبه من تسميته بالخطب المنبرية، فأنا أتحاشى عن تسميته بالخطب وإن كان فيه بغية الخطيب، لكنني عملته لأن يكون موردًا عذبًا يردّه أهل الإرادة، ويختلفون فيما يردون ويريدون ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رَزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]. فيأخذ منه المحاضر رغبته، والمناظر بغيته، ويستعين به المؤلف على تنظيم رسالته، والواعظ في موعظته، ويأخذ منه الناقد لدحض حجة خصمه قدر حاجته، إذ إنه كنز من كنوز العلوم النافعة، مملوء بالحكم والأحكام، ومحاسن الإسلام، وأمور الحلال والحرام، ومحاربة الشرك والبدع، وفنون الضلال والأوهام، يدعو إلى إصلاح الدنيا والدين، وإلى مصلحة الروح والجسد، والهمال والولد، يهذب الأخلاق، ويحارب الكفر والشقاق والنفاق، ولن يستغني عنه عالم نحير، ولا كاتب أديب، ولا عاقل أريب. فإن أردت تحقيق ذلك، فانظر إلى بديع أي رسالة منه؛ كرسالة مولد الرسول وبركة بعثته على أمته، ثم انظر إلى الإسراء والمعراج وحكمته، ثم إلى فضل الإسلام وبداية قوته في نشأته، ثم انظر إلى حقيقة الكلام في تفسير غربته، وهكذا سائر مذكراته. وقد سميت: الحكم الجامعة لشتى العلوم النافعة.

وما يوجد فيه من أساليب البلاغة والبيان، وانسجام الألفاظ، مما يعد من علم الجناس، فهو من نتيجة القريحة، والسجية السمحة غير المتكلفة. ولقد سمعت من بعض علمائنا من يصف كلامنا بأنه من السهل الممتنع، ونسأله سبحانه الهدى والسداد.

وقدوتي في ذلك كتاب الله؛ إذ إن فيه من البلاغة والبيان ما يعجز عن وصفه كل إنسان؛ يقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]. أي يبلغ من أفهامهم، ويعلق بأذهانهم.

ويوجد فيه من العظات ما يظن بأنها من المكررات، وهذا لا يوجد فيه إلا من قبيل الندور، فإن كل ما يوجد فيه مما يظن أنه متفق في الرسم والعنوان؛ لكنه يفترق في العلم والبيان، ولنا الأسوة بكتاب ربنا حيث يذكر القصة مبسوبة في مكان، ومتوسطة ومختصرة في مكان، فمن ذلك: ذكريات الصيام، وذكريات الحج، وذكريات أعياد الإسلام، فإنها متنوعة في العلم والبيان، وقد جعلت لكل عيد ثلاث عظات متنوعة، لكون النفوس تمل وتسأم دائماً من ترجيع ذكرى واحدة للعيد في كل زمان وتشتاق إلى التنقل في تنويع التذكير بالأحكام، وأمور الحلال والحرام لكونه أدعى إلى القبول والإقبال، ولأن لكل حادث حديثاً، ولكل مقام مقالاً.

وإنني عندما أطرق موضوعاً من مواضيع البحوث العلمية التي يحسن التذكير بها، وبمحاسنها ومساوئها، وحكمها وأحكامها، فإنني آخذ للبحث بغيتي، وغاية رغبتني، مما وصل إليه فهمي وعلمي، حتى ولو طال ذيل البحث، ولن أقصر فيه على بلغة العجلان، ورغبة العاجز الكسلان، إذ إن الناس يتفاوتون في قوة الإيراد والتعبير، وفي حسن المنطق وجمال التعبير، والعلم شجون يستدعي بعضه بعضاً، ويأخذ بعضه برقاب بعض، وعَدُّوا من عيوب الكلام وقوع النقص من القادر على التمام، ووقوع الانقصام والانفصال في مواقع الاتصال.

هذا: وإن جميع الناس من شتى الأقطار، وأكثر الأمصار، حينما يسمعون صوت التذكير الذي نلقيه في المسجد الجامع بقطر، والذي تنشره الإذاعة بين الناس مرتين، مرة عند صلاة الجمعة، والأخرى في المساء من ليلة السبت؛ فيودون ويتمنون لو جمعت لهم هذه المذكرات

المتنوعة في شتى العلوم النافعة؛ من المصالح والنصائح العمومية، التي تعالج سائر المشاكل الاجتماعية. وعلى أثره صار أكثر العلماء، وبعض الأمراء والزعماء، يطالبوننا بضم ما يسمعون، ثم إخراجهم للناس في مجموع ينتفعون به، فصاروا يطالبوننا في ذلك دائماً، صباحاً ومساءً، ونحن نعدهم ونمنّهم بلعل وعسى، وهم يكررون علينا الطلب من شتى البقاع، ويحذرونني من عواقب سوء التأخير، وفي مفاجأة الأجل قبل تنجيز هذا العمل؛ لأن في الدنيا معوقات، وللتأخير آفات، وأنا أعرف حقيقة ما يقولون، وفضل ما يبتغون، لهذا أوجبت لهم الحق عليّ في إنجاز ما يطلبون.

غير أنني أعرف أهل زماني، وخاصة إخواني وأقراني، وأنهم على اتباع زلاتي، وإحصاء سيئاتي، وستر حسناتي أحرص منهم على الانتفاع بعظاتي، لكنني أسلي نفسي بالتأسي بالعلماء الفضلاء قبلي الذين دب إليهم داء الحسد من أقرانهم، لكون الرجل الفاضل مهما هذب نفسه، وحاول كف ألسنة الناس عن عذله ولومه فإنه لن يسعه ذلك، لأن كل ذي نعمة محسود كما قيل:

ليس يخلو المرء من ضد ولو حاول العزلة بأعلى الجبل

لهذا نرى أحد هؤلاء عندما يعرض عليه شيء من رسائلنا، ثم يرى فيها قولاً مما يخالف رأيه واعتقاده - وإن كان حقاً في نفس الأمر والواقع - فتراه يبادر بالركض إلى مدير الجريدة، لينشر نقده الباطل، ليعلم به جميع الناس، العام منهم والخاص، كأنها زراية وهي صحيحة في الرواية والدراية.

وقد قال لي أحد هؤلاء الأقران الكرام عندما زرته للسلام، وكنت أحمل معي شيئاً من الرسائل العلمية فبادرني بقوله: إنني لم أقرأ شيئاً من رسائلك أبداً. وسبق أن قال لي مثل هذه الكلمة من مدة تزيد على ثلاث سنين، وقد أعادها الآن. فقلت له: عسى ألا يكون فيها إلحاد وزندقة؟ فقال: لا، إلا أنني مشغول عنها. ثم قال: إن فلاناً يشتغل بكتابة رد عليك. فقلت له: أهلاً بمن يرد الباطل في وجه قائله، وإنني مستعد لقبول الحق منه، ورد الباطل عليه. ثم تفرقنا من غير رضى مني.

هذا وإنني كنت جالسًا عند أحد الأمراء الكرام بالطائف، وبين أيدينا رسائل علمية، يسألني عن شيء من مشاكلها، إذ دخل علينا رجل من كبار العلماء، أعرفه ويعرفني. فسلم على الأمير، وسلمت عليه، ورحب بي. وبعد جلوسه واطمئنانه في مكانه قال له الأمير: يا شيخ، ما بالكم إذا جاءكم شيء من الرسائل العلمية من أحد العلماء - أو قال: من أحد إخوانكم - فما بالكم تقابلونها بالنفرة والكرهية؟ وكيف لا تقابلونها بالرحب، وسعة الصدر، ودراستها بالتدبر والتفكر، ثم عمل المناقشة مع مؤلفها؟ فما كان جوابه إلا السكوت.

إن مما يزيد في ألمي، ويقوي رجائي على صواب علمي، وحسن عملي - ولا أزكي نفسي عند ربي - الثناء الحسن من العلماء الغرباء والبعداء عن بلداننا؛ حينما أسمعهم يلهجون بالدعاء والثناء على حسن ما يسمعون ويرونه من كتب العلم والحكمة، والتي هي مبتكرات من مشكلات العلوم النافعة، فكان أبعد الناس منا هم أقربهم مودة إلينا، ووقع بنا ما قيل من أن أزهد الناس في عالم هم: أهلهم وجيرانهم، ومن يعيش بين ظهرانيتهم. كما حكى الله سبحانه في كتابه المبين عن فرعون، لما جاءه نبي الله موسى برسالة من ربه. فكان جوابه له أن قال: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]. فكانت تربيته فيهم، وبداية نشأته عندهم، هو من أسباب عدم قبولهم لدعوته، والاحتقار منهم للحق الذي جاء به. ولن ننسى عداوة قريش لرسول الله ﷺ، وتكبرهم عن قبول دعوته، من أجل نشأته بينهم، حتى سعد بالسبق إليه الأنصار، وهم أبعد من قريش في النسب والبلد.

ولا ينبغي أن ننسى فتنة شيخ الإسلام ابن تيمية مع العلماء المعاصرين له في زمانه ومكانه، وكيف تألبوا عليه بالعداوة بداعية الحقد والحسد على ما آتاه الله من فضله، من سعة العلوم؛ في شتى الفنون التي بهرت العقول والتي يعجزون عن الإتيان بمثلها. فهم يحاولون إطفاء نور هذا العلم عنه؛ بكثرة الطعن فيه وبأي الله إلا أن يتم نوره. فكانوا يترددون على الحاكم في زمانهم ويطلبون منه قتله، أو اعتقاله بدعوى أنه غير الإسلام، وأنه يبيح للناس الفرج الحرام، وأنه ييغض الرسول ويمنع من زيارته، وأنه مشبه يصف الرب بما يوصف به الخلق، وحتى كفره

بعضهم ورموه بخفة الرأي، والاستخفاف بالأحكام الشرعية، فابتلي هذا الحاكم بسماع حجتهم وتنفيذ رغبتهم حيث إنهم علماء البلد، فكان يدخله السجن ثم يخرجهم، ثم يدخله ثم يخرجهم، وفي الثالثة توفي في السجن رحمه الله.

ثم إنه حرص الحق حقيقته، وعقيدته، وحسن طريقته بعد موته، فسَمِّي شيخ الإسلام وتقي الدين تسمية أنطق الله بها ألسنة الناس، ولم يكن اخترعها أو اختارها لنفسه، واتفق جميع العلماء بعد موته على أن باعث الطعن فيه من أضداده هو محض الحسد منهم له على ما آتاه الله من فضله.

كما قال عمر بن الوردی:

عُثَا فِي عَرْضِهِ قَوْم سَلَاط	لَهُمْ مِنْ نَثَرِ جَوْهَرِهِ التَّقَاط
تَقِي الدِّينِ أَحْمَدُ خَيْرِ حَبْر	خُرُوقُ الْمَعْضَلَاتِ بِهِ تَخَاط
هُمْ حَسَدُوهُ لَمَّا لَمْ يَنَالُوا	مَنَاقِبَهُ فَقَدَ مَكْرُوا وَشَاطُوا
وَكَانُوا عَنْ طَرَائِقِهِ كَسَالَى	وَلَكِنْ فِي أَذَاهُ لَهُمْ نَشَاط

هذا وإنني لم أخرج رسالة علمية ذات أهمية إلا وأنا متحقق من حاجة المجتمع إليها، وإلى التنبيه على مدلولها، وكونها من المبتكرات التي لم تُسبق إليها، وكم ترك أول لآخر، وإن أردت تحقيق ذلك؛ فانظر إلى رسالة يسر الإسلام في حج بيت الله الحرام، ثم انظر إلى الدلائل العقلية والنقلية في تفضيل الصدقة عن الميت على الأضحية، وكيف أسقطت عن الناس الآصار والأغلال فيما يتعلق بالأصاحي عن الأموات. ثم انظر إلى أحكام عقد التأمين ومكانها من شريعة الدين، وما فيه من التفصيل.

وهكذا سائر رسائلنا على كثرتها. ونحن نسير في تذكير الناس يوم الجمعة إلى شيء منها.

وإن مما ندرك على بعض الإخوان، وبعض العلماء الكرام كون أحدهم متى ظفر برسالة منا تبحث عن حقيقة عقيدة أو طريقة أو مقالة مشكلة، مما عسى أن يقع فيها الجدل، وكثرة القيل

والقال، فهذه الرسالة تكشف لهم الإشكالات، وتزيل الشكوك والشبهات، فيكون حظ أحدهم منها هو: محض النظر في عنوانها مع شدة كراهيته لها، وعسى أن ينشط للنظر في الوجه الأول منها، ثم يصفق بأجنتها ويودعها في سلة المهملات وهو آخر عهده بها، ثم يستمع ما يقوله الناس فيها. فيقول بقولهم بدون تفكر، ولا حسن تدبر؛ لأنه بزعمه يعيش في زمان السرعة فكل شيء يراه ثقیلاً في نفسه.

نسأل الله سبحانه علماً نافعاً مبروراً، وعملاً صالحاً مشكوراً، ونعوذ بالله أن نقول زوراً، أو نغشى فجوراً.

الشيخ

عبد الله بن زيد آل محمود

رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينية

الدوحة في ٢١ ذي القعدة ١٣٩٨ هـ

(١)

مَوْلِدُ الرَّسُولِ ﷺ وَعَمُومُ بَرَكَةِ بَعَثَتِهِ

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ومنَّ علينا ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من قال: ربي الله. ثم استقام، وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله سيد الأنام، اللهم صل على رسولك محمد وعلى آله وأصحابه البررة الكرام، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فأخبر سبحانه بامتنانه على عباده المؤمنين، ببعثة هذا النبي الكريم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وكما قال في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فبعثة الرسول ﷺ هي ابتداء نزول الوحي عليه بنبوته حين أنزل الله عليه وهو بغار حراء ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. فهذا هو ابتداء البعثة، وبينها وبين المولد أربعون سنة.

بعث الله نبيه محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل، بدين كامل، وشرع شامل، صالح لكل زمان ومكان، قد نظم حياة الناس أحسن نظام، في زمان قد فشت فيه بين الناس الجهالة، وخيمت عليهم الضلالة، وصار لكل قوم آلهة يعبدونها من دون الله. فبصر الناس من العمى،

وأنقذهم من الجهالة، وهداهم من الضلالة، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صمًا، وقلوبًا غلفًا، فدخل الناس ببركة بعثته في دين الله أفواجًا أفواجًا، طائعين مختارين.

والأميون هم العرب، سموا بالأميين، لكون الأمية - أي عدم المعرفة للقراءة والكتابة - سائدة بينهم، ليس عندهم مدارس، ولا كتب، أشبه بالأعراب المتنقلة، وإنما تعلموا العلم بعد نزول القرآن وبعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام.

وكان أول ما أنزل الله عليه: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ [العلق: ١-٥]. ففي هذه السورة: الإشعار بتعلم القلم أي: الكتابة المستلزم لمحو الأمية وتخفيفها عن الناس. فالفضل كل الفضل هو في بعثته؛ أي ابتداء نزول الوحي بنبوته، وذلك من بعد ولادته بأربعين سنة.

وسمى الله نبيه محمدًا أميًا في قوله سبحانه: ﴿وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِ أَصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]. فسمى الله نبيه أميًا من أجل أنه لا يكتب ولا يقرأ، صيانة للوحي النازل عليه؛ حتى لا تتطرق إليه الظنون الكاذبة، والأوهام الخاطئة، فيقولون: تعلمه من كذا، ومن كتاب كذا.

يقول الله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وأمّية الرسول ﷺ هي معجزة من معجزات نبوته، وليست من سنته.

ثم قال: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ القرآنية، ويفسر لها لهم، ويسألونه عما أشكل عليهم منها. قال ابن مسعود: كنا إذا تعلمنا عشر آيات، لم نتجاوزهن حتى نتعلم معانيهن، والعمل بهن^(١). فهم يتعلمون القراءة والعلم والعمل معاً.

ثم قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي بالمحافظة على الفرائض والفضائل، والتنزه عن منكرات الأخلاق والردائل، لأن هذه هي التي تزكي النفوس وتشرّفها، وتشر في العالمين فخرها. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿[الشمس: ٩-١٠].

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فكن طالباً للنفس أعلى المراتب

ثم قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة فكان الصحابة يتعلمون السنة من النبي ﷺ كما يتعلمون القرآن.

والنبي ﷺ قال: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانُ عَلَى أَرِيكَتَيْهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ»^(٢).

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي إن العرب قبل الإسلام وقبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، كانوا في شر وشقاء، وضلالة عمياء: يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم نساء بعض، يعبدون الأشجار والأحجار، والقبور والطواغيت.

وكانوا مضطهدين بين كسرى وقيصر، قد سادهم الغرباء في أرضهم وأذلهم الأجانب في عقر دارهم، لم يستقلوا استقلالاً تاماً إلا بالإسلام، ولم تعرفهم الأمم وتخضع لهم، وتخشى صولتهم إلا بعد الإسلام وبعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث المقدم بن معد يكرب.

وقد عاد كثير من الناس إلى حالة الجاهلية الأولى، حتى عبدوا المقبورين من الأولياء والصالحين، وتوسلوا بهم في قضاء حاجاتهم، وتفريج كرباتهم؛ نفس ما فعله المشركون الأولون، وذلك حين ضعف عملهم بالإسلام، وساء اعتقادهم فيه، وصار منهم منافقون يدعون إلى نبذه، وإلى عدم التقيد بفرائضه، وحدوده وحكمه، ويدعون إلى تحكيم القوانين بدله، من أجل أن القوانين تبيح لهم الربا والزنا، وشرب الخمر.

فلأجله صاروا من أسوأ الناس حالاً، وأبينهم ضللاً، وأشدّهم اضطراباً وزلزالاً، وصاروا جديرين بزوال النعم، والإلزام بالنقم، ففشى بينهم الفوضى والشقاء، وقامت الفتن على قدم وساق، يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم أموال بعض بحجة الاشتراكية الشيوعية المبتدعة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

ولن يرتفع عنهم هذا التطاحن والتلاحم الواقع بينهم، إلا بالرجوع إلى دينهم، الكفيل بعلاج عللهم، وإصلاح مجتمعاتهم، والذي اعتر به سلفهم، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

فالإسلام، أو العمل بالقرآن أنشأ العرب نشأة مستأنفة، فخرجوا من جزيرتهم والقرآن بأيديهم يتلون، ويدعون الناس إليه، ويفتحون ويسودون. فهو السبب الأعظم الذي به نهضوا وفتحوا وسادوا وبلغوا المبالغ كلها من المجد والرقى، وتحولوا بهدايته من الفرقة والاختلاف إلى الوحدة والاتلاف، ومن الجفاء والقساوة إلى اللين والرحمة، ومن الهمجية والامية إلى الحضارة والعلم والمدنية، واستبدلوا بأرواحهم الجافية الجاهلية أرواحاً جديدة دينية، صيرتهم إلى ما صاروا إليه، من عز ومنعة، ومجد وعرفان.

وقد أنجز لهم الله ما وعدهم به في القرآن في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]. وصدق الله وعده، فكانوا هم ملوك

الأمصار بعد أن كانوا عالة في القرى والقفار، يشق على أحدهم ستر عورته، وشبع جوعته، كما في صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه قال: لقد رأيتني وأنا سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام نأكله إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا، وإني التقت بردة، فشقققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً، وعند الله حقيراً.

ومثله قال قتادة: إن العرب قبل الإسلام، وقبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانوا أذل الناس ذلاً، وأشقاهم عيشاً، وأجوعهم بطوناً، وأعراهم ظهوراً، وأبينهم ضللاً، يؤكلون ولا يأكلون. والله ما نعلم من حاضر أهل الأرض شر منزلة منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، فبالإسلام أعطى الله ما رأيتهم، فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر.^(١)

ولد النبي ﷺ في ربيع الأول على القول الصحيح، فقيل: لثمان، وقيل: لاثنتي عشرة ليلة خلت، وهو الشهر الذي توفي فيه على القول الصحيح، ولم يشرع الرسول ﷺ لأتمته تعظيم مولده، ولا مثل هذا الاحتفال، والتجمع فيه، بل ثبت ما يدل على النهي عنه. فقال في الحديث الصحيح: «لَا تُظَرُّوْنِي كَمَا أَظَرَّتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٢). وقال: «إِيَّاكُمْ وَالْعُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْعُلُوِّ فِي الدِّينِ»^(٣). ولم يثبت عن الخلفاء الراشدين، ولا عن الصحابة والتابعين، ولا عن أئمة سائر المذاهب ولا عن سائر سلف العلماء الصالحين، أنهم يعظمون مولد الرسول ﷺ، أو يتجمعون فيه، أو يلقون الخطب والشعر في الإشادة بمولده، كما تفعل بعض البلدان في هذا الزمان، ولو كان خيراً لسبقونا إليه.

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره، وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة.

(٢) رواه البخاري من حديث عمر.

(٣) رواه أحمد في مسنده، والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن عباس، وإسناده صحيح.

وكان النبي ﷺ يقول في خطبته: «إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا»^(١) فتعظيم المولد هو من محدثات الأمور، وتعظيم الإسراء والمعراج في رجب هو من محدثات الأمور، وتعظيم النصف من شعبان هو من محدثات الأمور، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، فاتبعوا ولا تبتدعوا.

وذكر صاحب كتاب الإبداع في مضار الابتداع: إن أول من أحدث بدعة المولد هم الفاطميون أهل مصر، لما رأوا النصارى يعظمون مولد المسيح ويجعلونه عيداً لهم، بحيث يعطلون فيه الأعمال والمتاجر، أرادوا أن يضاهوهم على بدعتهم بتعظيم مولد الرسول ﷺ وتعطيل الأعمال والمتاجر فيه. قابلوا بدعة ببدعة، ومنكراً بمنكر، فعلى من سنّها وزرّ من عمل بها إلى يوم الحشر والنشور. فتعظيم المولد هو من تقليد النصارى والتشبه بهم، وليس من الإسلام ولا من عمل السلف الصالح الكرام في شيء. وقد قيل:

ثلاث تشقى بهن الدار المولد والمأتم والزار

ولما أراد الصحابة الكرام أن يضيفوا تاريخاً للإسلام يعرفون به حوادث الزمان عدلوا عن التاريخ بمولد الرسول ﷺ؛ لكونه من صنيع النصارى والتشبه بهم، وأجمعوا على بداية التاريخ بهجرة الرسول ﷺ؛ لأنه الزمان الذي أعز الله به الإسلام ونصر، وأذل به الباطل وكسر.

وقد يحسنه للناس بعض المنتسبين إلى العلم، بحيث يقولون: إنه بدعة حسنة تبرهن عن محبة الرسول ﷺ وتعظيمه في قلوب العوام. وهذا القول باطل قطعاً، فإن كل بدعة ضلالة، وبلا استمرار على فعله في كل عام يصير عند العوام بمثابة السنة، ومتى غُيِّرَ قيل: غُيِّرَت السنة. وقد عملوا فيه ما يستدعي إقبال الناس إليه، فكانوا يقولون: إن من يحضر المولد فإنه يحصل له من الريح كذا، أو يعافى في جسمه وأهله وعياله، أو من تعيَّب عنه فإنه يخسر كذا، أو يصاب بالمرض وموت أولاده. ونحو ذلك من الإرهافات الناشئة عن هذه البدعة، وهكذا البدعة

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله.

تجر إلى ما هو أكبر منها، ونحمد الله أن كنا في عافية من هذه البدعة، فلا نسمع بها عندنا، ولا تعمل في بلداننا، لأنها من محدثات الأمور التي نهى عنها رسول الله ﷺ.

وسميت البدعة بدعة لكونها زيادة في الدين لم يشرعها الله ولا رسوله. ومثله ما يفعله الناس في رجب باسم الإسراء والمعراج. وكذا ليلة النصف من شعبان. وكل هذه من البدع التي تقود إلى الأعمال السيئة لكون البدع بريد الشرك، والعبادات الشرعية مبنية على التوقيف والاتباع لا على الاستحسان والابتداع، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. فليس كل ما يستحسنه الناس يكون صحيحاً في نفس الأمر والواقع، ولهذا يقول بعض السلف: كل عبادة لم يتعبد بها رسول الله ﷺ ولا أصحابه فلا تتعبدوها، فإن الأول لم يترك للأخر مقالاً. وقالوا: إنه ما ظهر في الناس بدعة إلا رفع مقابلها من السنة، فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة.

ولقد علمنا أن هؤلاء الذين يحتفلون بالمولد ويتجمعون فيه، وينفقون النفقات في سبيله، أن قصدهم محبة الرسول ﷺ وتعظيم أمره، بإحياء ذكرى مولده كل عام، لكن حسن المقاصد لا يبيح فعل البدع، والمحبة الطبيعية لا تغني عن المحبة الدينية شيئاً.

فهذا أبو طالب عم الرسول ﷺ كان يحب رسول الله أشد الحب، وقد تربى رسول الله ﷺ في حجره وبالغ في حمايته ونصرته، وشهد بصدق نبوته، لكنه لما لم يطع رسول الله ﷺ في أمره، ولم يجتنب نهيه، ولم يدخل في دينه، حشر يوم القيامة في ضحضاح من نار يغلي منها دماغه جزاء على كفره. وقد نهى رسول الله ﷺ أن يستغفر له.

ولما ادعى الناس محبة الله ورسوله أنزل الله عليهم آية المحبة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. ومن المشاهد بالاعتبار والتجربة، أن البدع ينبوع كل شر، يقود بعضها إلى بعض، حتى تكون الآخرة شرّاً من الأولى.

فهذه الموالد في الأمصار، يُفعل فيها أشياء: من اجتماع الرجال بالنساء، والضرب بالمعازف والدفوف وشرب الخمر وغير ذلك من المفاسد والفجور، ويسندون هذه الأفعال إلى محبة الرسول ﷺ!!! وهي تنافي محبته وطاعته، وقد قيل:

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

إن الذي يحب الرسول ﷺ محبة حقيقية يجب عليه أن يطيعه في أمره، فيحافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها جماعة، ويؤدي الزكاة الواجبة، ويصوم رمضان، ويحتنب الربا والزنا وشرب الخمر، وسائر الرذائل المحرمة.

إذ إن حق الرسول ﷺ على أمته طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وأن يكثروا من الصلاة والتسليم عليه في كل حالاتهم وسائر أوقاتهم؛ فإن كثرة الصلاة عليه من أفضل الطاعات، وأجل القربات، ومن صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً، وأخبر أن صلاة أمته تعرض عليه، وقد أمر أمته أن يسألوا الله له الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده.

فالرسول ﷺ حمى حمى التوحيد، وسد طرق الشرك. فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللكم، وحافظوا على فرائض ربكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

(٢)

الإسراء والمعراج وبيان مُعْجَزَات الأنبياء

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون،
وأشهد أن لا إله إلا الله، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله
الصادق المأمون. اللهم صل على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد قال الله سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ
وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ﴾ [يوسف: ٣].

إن هذا القرآن الكريم يقص علينا خبر من كان قبلنا، ونبأ ما سيكون بعدنا، وهو الحكم
العدل فيما بيننا.

يذكر سبحانه بأنه أرسل رسله بالبينات، وبالبراهين والمعجزات، يدعون الناس إلى عبادة
الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وليحكموا بين الناس بالقسط. فمن الناس من استجاب
لدعوتهم، وانقاد لطاعتهم، وصدق نبوتهم ومعجزات آياتهم. ومن الناس من بغى وطغى، فلم
يستجب لداعي الهدى، وأصر على عصيانهم ولم يتعظ بما يراه من معجزات نبوتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ
حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾
[يونس: ٩٦-٩٧]. فهو لاء لما عصوا رسله، وكذبوا بآياته، واستكبروا عن عبادته ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ
جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]. عوقبوا بما تسمعون من قوله سبحانه: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

إن الناس في المعجزات والأمور المغيبات على قسمين:

أحدهما: المؤمنون الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، فهم يؤمنون ويصدقون بكل ما أخبر الله به في كتابه، من معجزات أنبيائه، تصديقًا جازمًا، سواء أدركوا سر معرفته بعقولهم أو لم يدركوه؛ لأن عدم علمهم بالشيء ليس دليلًا على عدمه، فقد أتت الرسل بمحارات العقول، فهم الذين يؤمنون بالغيب على صفة ما أثبتته القرآن ويقولون: آمنا بالله وما جاء من الله على مراد الله.

لأن المسلم الحق متى آمن بالله القادر على كل شيء، والذي إذا أراد أمرًا قال له: كن. فيكون، فإنه لن يعسر عليه التسليم لكل ما أخبر الله به في كتابه من معجزات أنبيائه، فقد أجرى الله سبحانه خوارق العادات في خلقه؛ من معجزات أنبيائه التي تجري على خلاف السنن المطردة والمعروفة المألوفة عند الناس، مما يدل على قدرة الرب الذي أوجدها، وصدق النبي الذي جاء بها. وإنما سميت معجزة لكون الناس يعجزون عن الإتيان بمثلها، لكونها من صنع الله لا من صنع الرسول ولا البشر. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَآئِفَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ﴾ [الرعد: ٣٨]. وتسمى الآية والبينة والبرهان. ولكل نبي معجزة تناسب حالة قومه ومجتمعهم.

والحكمة في المعجزات أنها تعزز دين الأنبياء، وتستدعي قبول دعوتهم والإيمان بهم. فمن المعجزات: خلق آدم من تراب ثم قال له: كن. فكان فصار بشرًا سويًا. وخلق حواء من ضلع آدم، وخلق عيسى من أم بلا أب. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ ۖ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومثله عصا موسى؛ وهي عود من الشجر يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، وإنما صارت آية ومعجزة حين أمره ربه أن يلقيها، فقال سبحانه: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ﴿١٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١١﴾ [طه: ٢٠-٢١]. فإنه حين ألقاها صارت ثعبانًا عظيمًا بإذن الله، ولما أمره ربه أن يأخذها صارت عصا كعصا أحدنا في يده.

وكمعجزة الريح لنبي الله سليمان عليه السلام حين قال الله: ﴿فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ۝ ۞ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾ [ص: ٣٦-٣٩]. فكان ييسط البسط، ويجلس عليها هو وجميع جنوده على كثرتهم، فتقلعهم غدوها مسيرة شهر، ورواحها مسيرة شهر.

وكمعجزة نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام حين أنطقه الله في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝﴾ [مريم: ٣٠-٣٢]. وكان يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله.

وأنه لولا هذا القرآن المنزل على محمد عليه أفضل الصلاة والسلام - يقص علينا خبر معجزات الأنبياء التي تعزز دينهم، وتستدعي قبول دعوتهم - لكذب الناس بهم، وبالكتب النازلة عليهم.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْقُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [النمل: ٧٦-٧٧].

فالتصديق بهذه المعجزات هي عقيدة المؤمنين، ومن كذب بها فقد كفر.

الصنف الثاني: الهاديون الطبيعيون الذين ينسبون كل شيء إلى الطبيعة؛ بمعنى أنها الموجدة لها من دون الله - حاشا لله - فهم ينكرون ويكذبون بكل ما لم يدركوه بحواسهم، فينكرون وجود الرب، ويكذبون بالملائكة، ويكذبون بالموت، ويكذبون بالجنة والنار.

وفيهم أنزل الله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۝﴾ [يونس: ٣٩-٤٠].

فهم يبادرون إلى إنكار كل ما سمعوه من الخوارق والمعجزات، والأمور المغيبات، فهذا دأبهم في نظرياتهم العلمية. ومن لا يؤمن إلا بما يدركه بحواسه، فإنه يعتبر كافرًا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله.

أما معجزات نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فإنها كثيرة جدًا. ولسنا بصدد إحصائها في هذا المقام الضيق، فمنها: نبع الماء من بين أصابعه، ومنها تكثير الطعام القليل حتى يشبع منه الخلق الكثير، ومنها قصة الأعرابية صاحبة السطحيحتين - أي الراويتين - وحاصلها ما رواه البخاري في صحيحه عن عمران بن الحصين قال: «كنا في سفر مع النبي ﷺ فاشتكى إليه الناس من العطش، فدعا عليًّا وفلانًا، فقال: «أذهب، فابتغيا الماء» فانطلقا فلقيا امرأة بين سطحيحتين من ماء على بعير لها. فقالا لها: أين الماء؟ فقالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة. فقالا لها: انطلقي. قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله. قالت: الذي يقال له: الصابي؟ قالا: هو الذي تعنين. فجاءا بها إلى رسول الله، ودعا النبي ﷺ وأطلق العزالي^(١) ونودي في الناس: اسقوا، واستقوا. فملؤوا قربهم وقدرهم وأوانيهم، وأعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء فقال: «أذهب فأفرغه عليك». وإيم الله لقد ألقع عنها، وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملاءة منها حين ابتدأها. وقال لها رسول الله: «تعلمين ما رزئنا»^(٢) من مائك شيئًا، ولكن الله هو الذي أسقانا». فأتت أهلها، وقالوا: ما حبسك عنا؟ قالت: العجب؛ لقيني رجلان، فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له: الصابي. ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر ما بين هذه وهذه، تعني السماء والأرض، أو إنه لرسول الله حقًا. وبسبب هذه المعجزة أسلم قومها».

وكان العرب يسمون الرسول الصابي؛ من أجل أن الناس يصبون إليه؛ أي يميلون إليه ويدخلون في دينه. ومثله ما جرى له مع شاة أم معبد وكانت عجفاء هزيلة لا تطيق المشي مع الصحاح، فمسح ضرعها، وسمى الله عليها؛ فتفاجت، واجترت، ودرت، ثم انفجرت باللبن^(٣).

(١) العزالي جمع عزلاء، وهو مصب الماء من القرية ونحوها.

(٢) ما رزئنا: أي ما أنقصنا.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث حبيش بن خويلد.

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

لكن المعجزة الخالدة الدائمة إلى يوم القيامة هي معجزة القرآن الحكيم، الذي تحدى الله به جميع الأولين والآخرين، على أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا مع بلاغتهم، وشدة فصاحتهم ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فهو معجزة الدهور، وآية العصور، وسفر السعادة، ودستور العدالة، وقانون الفريضة والفضيلة، والواقى من الرذيلة. وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إنه ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن به البشر، وإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قила

إن معجزات سائر الأنبياء قد وقعت بوقتها، ومضت بمضيّ زمنها، بحيث لا يشاهدها الناس الآن، غير أن المسلمين يؤمنون بها بدون أن يشاهدوها، تبعًا لإيمانهم بسائر المغيبات التي أخبر الله بها.

وإنما المعجزة الخالدة الدائمة، والمشاهدة بالأبصار إلى يوم القيامة، هي معجزة القرآن الذي فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم. يقول الله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [٩١] مَنَ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٩٢﴾ [طه: ٩٩-١٠٠]. إذ لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء السابقين إلا عن طريق القرآن الكريم النازل على محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم. فمن هذه المعجزات معجزة الإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ عَائِنَتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

فاستفتح سبحانه خبر هذه المعجزة العظمى بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وكان من هدي النبي ﷺ أنه إذا أعجبه شيء إما سبح، وإما كبر آخذًا من القرآن. وقد استبدل الناس بهما التصفيق بالأيدي! والتسبيح والتكبير خير لهم لو كانوا يعلمون. والصحيح من أقوال العلماء أنه أُسْرِيَ برسول الله ﷺ بروحه وجسده، لكون المقام، وفحوى المقال، ينبئ عن معجزته العظمى في خبر الإسراء.

فأثبت القرآن أن الله أسرى بعبدته ورسوله محمد ﷺ ليلاً من المسجد الحرام. ف قيل: أُسْرِيَ به من الحجر، وهو الصحيح. وقيل: من بيت أم هانئ. إلى المسجد الأقصى الذي هو بيت المقدس. وهذا الإسراء معجزة عظمى خارقة للعادة، والمعجزة كاسمها بحيث يعجز الناس عن معارضتها والإتيان بمثلهما وهي تدل على صدق نبوة من أتى بها.

وذكر أنه أُتِيَ بالبراق - وهو دون الفرس وفوق الخمار - وسمي براقاً لأنه مشتق من البرق في سرعته، ليريه من آياته، وعجائب مخلوقاته في المسجد الأقصى، وفي السماء. وأنه من بعد وصوله إلى بيت المقدس صلى بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وصلاته بهم إنما هي بأرواحهم وإلا فإنهم قد دُفِنُوا في الأرض، ويحتمل أنهم تشكلوا له بصورهم في الدنيا كما أخبر عن بعض أوصافهم، ومنه قوله في يوسف وأنه قد: «أعطي شطر الحسن»^(١). أي الجمال، كما كان جبريل يتشكل بصورة بعض الرجال.

ثم إنه عُرِجَ به إلى السماء في صحبة جبريل عليه السلام، فاستفتح السماء الدنيا، ف قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أأرسل إليه؟ قال: نعم. فقالوا: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ثم استفتح كل سماء مثل هذا، حتى انتهى إلى سدة المنتهى. وأخبر أنه رأى الأنبياء في صورهم ومنازلهم من السماء. وفرض الله عليه الصلوات الخمس، مع فرض الوضوء على القول الصحيح. فقال: «هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ»^(٢) أي في مضاعفة الأجر.

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث أنس.

(٢) حديث الإسراء والمعراج حديث متفق عليه من حديث أبي ذر.

والصحيح من أقوال العلماء، ومن نصوص القرآن والسنة، أن الرسول لم ير ربه تلك الليلة، لكون رؤية الرب مستحيلة في الدنيا كما حكى الله عن نبيه موسى. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١].

ولما سئل النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ؟»^(١) أي حال دون رؤيته نور. قالت عائشة: من حدثكم أن رسول الله رأى ربه فقد أعظم الفرية عليه. ثم استدلت بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]^(٢). وأما قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]. فإنه جبريل حين رآه في صورته التي خلقه الله عليها بمنظر عظيم هائل.

وهذا الإسراء والمعراج حصلا في ابتداء نبوته، وليس عندنا دليل يثبت تعيين يومه أو شهره بطريق صحيح.

فالقول بأنه في شهر رجب، هو قول لا صحة له، ولا يستند إلى دليل، ولم يكن من عادة الصحابة ولا التابعين التجمع للإسراء والمعراج، وليس له عندهم أي عمل أو اهتمام، وإنما يؤمنون بما قص الله في القرآن من خبره. وما يفعله بعض الناس في هذا الزمان، وفي بعض البلدان، من التجمعات للإسراء، والمولد، وليلة النصف من شعبان، كله من البدع المحدثه، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما سميت البدعة بدعة لكونها زيادة في الدين، ومن عادة البدعة التمدد والزيادة كل عام.

والحكمة من ذكر الإسراء في القرآن، هو الإيذان به، والعمل بما أوجب الله من المحافظة على الصلوات الخمس التي افترضها، فهي أول ما افترض من الشرائع، كما أنها آخر ما يفقد من دين كل

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر.

(٢) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه.

إنسان. فاقْتَصَادَ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ اجْتِهَادٍ فِي بَدْعَةٍ، وَمَحَبَّةُ الرَّسُولِ ﷺ تَظْهَرُ حَقِيقَتُهَا فِي طَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَلَّا يَعْبُدَ اللَّهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

فَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّهَا بَدْعَةٌ حَسَنَةٌ. خَطَأٌ، فَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ بَدْعَةٌ حَسَنَةٌ، بَلْ كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ سَيِّئَةٌ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ فِي أُمُورٍ رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْإِسْرَاءِ، مِنْهَا قَوْلُهُ: «رَأَيْتُ لَيْلَةً أُسْرِيَ فِي رَجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ فَقُلْتُ يَا جَبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ قَالَ هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ.

قَالَ: «وَرَأَيْتُ رَجَالًا عَلَى أَقْبَالِهِمْ رِقَاعٌ وَعَلَى أَدْبَارِهِمْ رِقَاعٌ، يَسْرَحُونَ كَمَا تَسْرَحُ الْأَنْعَامُ، وَيَأْكُلُونَ الضَّرِيعَ وَالزَّقُومَ وَرَضْفَ جَهَنَّمَ. فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ».

قَالَ: «وَرَأَيْتُ قَوْمًا يَزْرَعُونَ فِي يَوْمٍ، وَيَحْصِدُونَ فِي يَوْمٍ. فَإِذَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ. فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَمَا أَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلُفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ». رَوَاهُ الْبُزَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَفِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ.

فَهَذَا مُلَخَّصُ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُؤْمِنُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَكْذِبُ بِهِ الزَّانِقُونَ الْمَلْحَدُونَ ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يُونُس: ٤١].

وَسُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(٣)

المحافظة على الصلوات الخمس

وكونها العنوان على صحة الإيمان

الحمد لله العفو الغفور، الرؤوف الشكور الذي وفق من أراد هدايته لمحاسن الأمور، ومكاسب الأجور. فعملوا في حياتهم أعمالاً صالحة لوفاتهم، يرجون بها تجارة لن تبور. وأشهد أن لا إله إلا الله بيده مواقيت الأعمار، ومقادير الأمور. وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله الداعي إلى كل عمل مبرور. اللهم صل على نبيك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن الله سبحانه خلق الخلق لعبادته، وأمرهم بتوحيده وطاعته وأوجب ذلك عليهم في خاصة أنفسهم، وأن يجاهدوا عليه أهلهم وأولادهم ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. فالطاعة قيد النعم والمعاصي من أسباب حلول النقم. ورأس الطاعة بعد الشهادتين: الصلاة التي هي عمود الديانة، ورأس الأمانة، تهدي إلى الفضائل، وتكف عن الرذائل. تذكر بالله الكريم الأكبر، وتصد عن الفحشاء والمنكر، يقول الله سبحانه: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. تفتح باب الرزق، وتيسر الأمر، وتشرح الصدر، وتزيل الهم والغم، وهي من أكبر ما يستعان به على أمور الحياة وعلى جلب الرزق، وكثرة الخيرات، ونزول البركات، وقضاء الحاجات.

وكان الصحابة إذا حزبه أمر من أمور الحياة، أو وقعوا في شدة من الشدائد، فزعوا إلى الصلاة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. فهي قرّة العين للمؤمنين في الحياة، كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «حُب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرّة عيني في الصلاة». رواه الإمام أحمد، والنسائي من حديث أنس. وهي خمس صلوات مفرقة بين سائر الأوقات؛ لئلا تطول مدة الغفلة بين العبد وبين ربه. من حافظ عليها كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له عند الله عهد.

ف«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهنّ ما اجْتَنِبَتِ الْكَبَائِرُ» كما ثبت ذلك بالحديث^(١) وقد وصفها رسول الله ﷺ «بهنر غمر - أي كثير - يَغْتَسِلُ مِنْهُ الْمُسْلِمُ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا لَا. قَالَ: «فَكَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»^(٢).

وإنما سميت صلاة؛ من أجل أنها تشتمل على الدعاء أو من أجل أنها صلة بين العبد وبين ربه. فالمصلي متصل بربه، موصول من فضل الله وبره وكرمه. كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «أمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبّل وجه عبده ما لم يلتفت في صلاته»^(٣). فالمحافظة على فرائض الصلوات في الجماعات هي العنوان على صحة الإيمان، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]. وعمارتها تحصل بالصلاة فيها، ومن بنى مسجداً يحتسب ثوابه عند الله بنى الله له قصرًا في الجنة، أما من بنى مسجداً ثم هجره من الصلاة فيه، فإنه آثم في عمله وهجرانه لمسجد ربه، وفي الحديث أن الناس في آخر الزمان يعمرّون المساجد، ولا يذكرون الله فيها إلا قليلاً.

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه الإمام أحمد من حديث الحارث الأشعري.

وكان الصحابة يرون التارك للصلاة في الجماعة منافقاً، يقولون ذلك ولا يأثمون، كما في صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة في الجماعة إلا منافق معلوم النفاق.

لأن من صفة المنافق ما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البائدة: ٥٨]. فنفى الله عنهم العقل الصحيح؛ من أجل عدم إجابتهم لنداء الصلاة؛ الذي هو نداء بالفلاح والفوز والنجاح.

وإنما سُمي العقل عقلاً من أجل أنه يعقل عن الله مراده، أمره ونهيهِ. أو من أجل أنه يعقل صاحبه على المحافظة على الفرائض والفضائل، ويردعه عن منكرات الأخلاق والرذائل.

لن ترجع الأنفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر

إنه لو كان عند هؤلاء التاركين للصلاة في الجماعة عقل صحيح، لما أهملوا حظهم من هذا الفلاح. والمنادي ينادي فيهم: حي على الصلاة، حي على الفلاح. والنبى ﷺ يقول: «من دُعِيَ إلى الفلاح فلم يجب لم يرد خيراً ولم يُرد به خير»^(١) ويقول: «إن الجفاء كل الجفاء والكفر والنفاق فيمن سمع داعي الله بالصلاة ثم لا يجب»^(٢) وقد همَّ رسول الله ﷺ بإحراق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة، لولا ما اشتملت عليه البيوت من الذرية والنساء الذين لا تجب عليهم الجماعة. لاسيما إذا كان هذا التارك للصلاة في الجماعة من المنتسبين للعلم أو من الأساتذة المعلمين، فيسمع النداء، ثم يصبر مستكبراً عن الحضور إلى المسجد، فإنه يكون فتنة للعامة، لأن تخلفه بمثابة الدعاية السافرة، وبمثابة التعليم منه بهجران المساجد، بحيث يتوهم العامة بنظرهم إليه أن صلاة الجماعة ليست بواجبة.

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث جندب بن عبد الله.

(٢) أخرجه أحمد من حديث معاذ بن أنس.

والنبي ﷺ قد حذر من الاغترار بمثله فقال: «ما بال أقوام يتخلفون عن الصلاة في الجماعة فيتخلف بتخلفهم آخرون، أولئك شراركم أولئك شراركم»^(١) لأن الناس يقلد بعضهم بعضاً في الخير والشر. وقال: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ، وَلَا بَدْوٍ، لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ. فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ». رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح.

ومن المشاهد بالتجربة والاعتبار أن الذين لا يشهدون الصلاة في الجماعة أنهم غالباً لا يصلون وحدهم؛ لأن التهاون بالشيء مدعاة إلى تركه.

إن رأس العلم خشية الله. فلو كان عند هؤلاء المنتسبين للعلم نصيب من خشية الله لما أهملوا حظهم من حضور الصلاة في الجماعة التي من حافظ عليها كان في ذمة الله وعهده ورعايته؛ لما في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «من صلى العشاء في جماعة كان في ذمة الله حتى يصبح، ومن صلى الفجر في جماعة كان في ذمة الله حتى يمسي». وقال: «من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام الليل كله»^(٢).

والمتخلف عن الجماعة قد خسر هذا الخير كله.

إن أعظم الناس بركة، وأشرفهم منزلة ومنزلة الرجل يكون في المجلس وعنده جلساؤه، وأصحابه، وأولاده، وخدمه، فيسمع النداء بالصلاة، فيقوم إليها فرحاً، ويأمر من عنده بالقيام إلى الصلاة معه، فيؤمّون مسجداً من مساجد الله لأداء فريضة من فرائض الله، يعلوهم النور والوقار على وجوههم، كل من رآهم ذكر الله عند رؤيتهم، أولئك الميامين على أنفسهم، والميامين على جلسائهم وأولادهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

(١) روي هذا الأثر بمعناه في مصنف عبد الرزاق موقوفاً على عمر بن الخطاب.

(٢) رواه مالك ومسلم وأبو داود من حديث عثمان بن عفان ولفظه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ».

وبضد هؤلاء: قوم يجلسون في المجالس، وفي المقاهي وفي النوادي، وفي ملاعب الكرة، فيسمعون النداء بالصلاة ثم لا يجيبون. ألسنتهم لاغية، وقلوبهم لاهية، ﴿أَسْتَحْذَرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنْسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]. فهؤلاء هم المشائيم على أنفسهم، والمشائيم على جلسائهم وأولادهم.

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام

أما التارك للصلاة بالكلية؛ بحيث يمر عليه اليوم واليومان، والشهر والشهران وهو لا يصلي، وربما يتعذر بعدم طهارة ثوبه وسراويله فهذا كافر قطعاً، بشهادة رسول الله عليه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ [طه: ٦١]. ففي صحيح مسلم عن جابر أن النبي ﷺ قال: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة، من تركها فقد كفر». وقال: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(١). وروي: «لَا دِينَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ»^(٢).

إن موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد؛ لأن الصلاة عمود الإسلام، وهي آخر ما يفقد من دين كل إنسان. ولهذا كان العلماء يسمونها الميزان، فإذا أرادوا أن يبحثوا عن دين إنسان سألوا عن صلاته، فإن حُدِّثُوا بأنه يحافظ على الصلاة علموا بأنه ذو دين، وأنه مؤمن. وإن حُدِّثُوا بأنه لا حظ له في الصلاة علموا بأنه لا دين له، ومن لا دين له جدير بكل شر، بعيد عن كل خير، وعادم الخير لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

وقد حكى بعض العلماء إجماع الصحابة على كفر تارك الصلاة عمداً، كما أن أئمة المذاهب الأربعة قد أجمعوا على كفر من استباح ترك الصلاة؛ إذ لا يصر على ترك الصلاة مؤمن بوجوبها.

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث بريدة وقال: حسن صحيح. وابن ماجه وابن حبان في صحيحه. والحاكم.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر.

فحافظوا على فرائض ربكم، وخذوا بأيدي أولادكم إلى الصلاة في المساجد معكم، فإن من شب على شيء شاب على حبه، ولأنه يأخذ يد الولد إليها، ومجاهدته عليها يعود بها ملكة راسخة في قلبه، تحبه إلى ربه وتقربه من خلقه، وتصلح له أمر دنياه وآخرته، ولأنها بمثابة الدواء الفرد، تقيم اعوجاج الولد، وتصلح منه ما فسد، وتذكره بالله الكريم الأكبر، وتصدّه عن الفحشاء والمنكر.

وإنكم متى أهملت تربية أولادكم، فلم تهذبوهم على الصلاح وفعل الصلاة في المساجد معكم؛ فإنه لا بد أن يتولى تربيتهم الشيطان، فيحبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وصدق الله العظيم ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ أي يعرض ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

أما إذا ترك الوالد الصلاة فإن الولد يتأسى به في تركها؛ لأن الوالد مدرسة لأولاده في الخير والشر. وإذا صلح الراعي صلحت الرعية، وإذا فسد الراعي فسدت الرعية، فمتى ترك الوالد الصلاة تركها الولد، وتركتها الزوجة والبنات، أو شرب المسكرات شر بها الولد، أو شرب الدخان - التنباك - شربه الولد، أو أطلق لسانه باللعن والشتم عند أدنى مناسبة، أطلق أولاده ألسنتهم به؛ لأن هذا بمثابة التعليم الذي ينطبع في أخلاقهم، والجريمة جريمة المربي الذي لم يؤسس فعل الخير في أولاده.

كما يجب على المرأة المحافظة على واجبات دينها؛ من طهارتها وصلاتها، وأن تأمر أولادها وبناتها بذلك، فإنها مسؤولة عن حسن تربيتهم. وفي الحديث: «الْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا»^(١).

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

فيا معشر المسلمين. إن الله سبحانه قد شرفكم بالإسلام، وفضلكم به على سائر الأنام، متى قمتم بالعمل به على التمام، وإن دين الإسلام هو بمثابة الروح لكل إنسان، فضياعه من أكبر الخسران.

وإن الإسلام ليس بمحض التسمي به باللسان، والانتساب إليه بالعنوان، ولكنه ما وفر في القلب وصدقته الأعمال.

إن للإسلام صُوى ومنازًا كمنار الطريق يُعرف به صاحبه. فاعملوا بإسلامكم تُعرفوا به، وادعوا الناس إليه تكونوا من خير أهله. فإنه لا إسلام بدون العمل. وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]. فمتى سافر أحدكم إلى الأقطار الأجنبية لحاجة التعلم، أو لحاجة العلاج، أو لحاجة التجارة؛ فمن واجبه أن يظهر إسلامه في أي بلد يحل به، فيدعو إلى دينه، وإلى طاعة ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا حضرت فريضة من فرائض الصلوات وجب عليه أن يبادر بأدائها في وقتها، فيأمر من عنده من جلسائه وزملائه بأن يصلوا جماعة، حتى يكون مباركا على نفسه، ومباركا على جلسائه وزملائه.

أما إذا أهملتكم تربية أنفسكم وأولادكم، وضيعتم فرائض ربكم، ونسيتم أمر آخرتكم، وصرفتم جل عقولكم وجل أعمالكم، واهتماكم للعمل في دنياكم واتباع شهوات بطونكم وفروجكم صرتم مثالا للمعائب، ورشقا لنبال المثالب، وسيسجل التاريخ مساوئكم السيئة التي خالفتكم بها سيرة سلفكم الصالحين الذين شرفوا عليكم بتمسكهم بالدين، وطاعة رب العالمين، فلا أدري من أحق بالأمن إن كنتم تعلمون! فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللكم، وحافظوا على فرائض ربكم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

(٤)

الجمعة وفرضها وبيان فضلها والتحذير من دخول البدع فيها

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين. ونصلي ونسلم على رسول الله سيد المرسلين.
وأشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمداً رسول الله.
أما بعد:

فإن الله سبحانه خلق الخلق لعبادته، وافترض عليهم توحيده وطاعته، أوجب ذلك عليهم في خاصة أنفسهم، وأن يجاهدوا عليها أهلهم وأولادهم، وأكد العبادة الصلوات الخمس المفروضة؛ التي هي عمود الديانة ورأس الأمانة، وأكدها صلاة الجمعة التي هي عيد الأسبوع، وهي أفضل من عيد الأضحى وعيد الفطر؛ لأن الله سبحانه اختار لهذه الأمة يوم الجمعة عيداً يتفرغون فيه لعبادة ربهم، كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا ليوم الجمعة، نحن الآخرون السابقون»^(١) افترضت الجمعة على النبي ﷺ بمكة كسائر الصلوات الخمس، لكنه لم يتمكن من إقامتها بمكة، من أجل أن المشركين يمنعونهم من ذلك. ولما هاجر بعض الصحابة إلى المدينة، أمر النبي ﷺ مصعب بن عمير بأن يصلي بهم الجمعة. قال عبد الرحمن ابن كعب - وكان قائد أبيه بعدما عمي - قال: كان أبي إذا سمع أذان الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة، فقلت: يا أبت إنك إذا سمعت أذان الجمعة ترحمت لأسعد بن زرارة؟ قال: نعم يا بني، إنه أول من جمع

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

بنا في نقيع الخضعات في حرة بني بياضة، وذبح لنا شاة، فتغدينا عنده. قلت: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون^(١).

أخذ بهذا الحديث من اشترط لصحة الجمعة حضور أربعين من أهل وجوبها. ولا دليل في الحديث على اشتراط هذا العدد؛ لأنها قضية حال صادفت كونهم أربعين بدون تحديد من الشارع. والصحيح أن الجمعة تصح ولو بدون أربعين، فكل قوم في قرية فإنه يجب عليهم أن يقيموا صلاة الجمعة، ولو كانوا عشرة، أو أقل أو أكثر.

أما النبي ﷺ فإن أول جمعة صلاها في مسجد بني عبد الأشهل بالمدينة حين قدم إليها مهاجرًا، ونزل على أبي أيوب الأنصاري، فوافق قدومه يوم الجمعة، فصلى بالناس، وحُفِظَ من خطبته في ذلك اليوم بعد حمد الله والثناء عليه أنه قال: «أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا، وصلُّوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية؛ تُنصروا، وتُرزقوا، وتُجبروا، واعلموا أن الله افترض عليكم صلاة الجمعة في يومي هذا، في مقامي هذا، من تركها تهاونًا بها، واستخفافًا بقدرها، فلا جمع الله شمله، ولا بارك له في أمره، ألا صلاة له، ألا زكاة له، ألا ولا صيام له»^(٢) وفي هذا الحديث دليل على عقوبة التارك للجمعة بدون عذر؛ فإنه متعرض لإحباط عمله من صلاته وصيامه، ثم هو متعرض لوقوع دعاء النبي ﷺ عليه، حيث قال: «فلا جمع الله شمله، ولا بارك له في أمره». ومن لا يجمع الله شمله يكون مشئت الحال، كثير الهم والغم والبلبال، كما أن من لا يبارك في أمره يكون دائمًا هلوغًا جزوعًا، جموعًا منوعًا؛ كشارب البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا. فهو فقير، لكنه لا يؤجر على فقره، بل الفقير أحسن حالًا منه. ومن دعاء النبي ﷺ أنه قال: «اللَّهُمَّ فَتَنِّي بِمَا رَزَقْتَنِي وَبَارِكْ لِي فِيهِ وَأَخْلِفْ عَلَيَّ كُلَّ فَائِتَةٍ بِحَيْرٍ»^(٣).

(١) رواه أبو داود وابن ماجه، وأخرجه أيضًا ابن خزيمة وابن حبان والبيهقي وصححه.

(٢) رواه ابن ماجه والطبراني في الأوسط، من حديث جابر ومن حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأهل السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبي الجعد الضمري.

إن بعض الناس يثقل عليهم حضور الجمعة، ويتهربون إلى الصحراء عنها، ويتركونها بدون أن يصلوا في طريقهم في أحد المساجد التي تقام فيها الجُمُع. وهذا إنما ينشأ عن ضعف الإيمان، وعدم الرغبة في الثواب المترتب عليها، وإذا خرج الرجل إلى الصحراء وتعمد ترك الجمعة؛ دعت عليه الملائكة بأن لا يُصَحَب في سفره، ولا تُقَصَى حاجته. ذكره العلامة ابن القيم في كتاب الهدى النبوي وقد قال النبي ﷺ على أعواد منبره: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ»^(١). والختم هو أن يقفل على القلب فلا يدخله هدى، ولا يتخلص منه الردى. وقال: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ»^(٢) وقد همَّ رسول الله ﷺ بإحراق بيوت المتخلفين عن الجمعة لولا ما اشتملت عليه البيوت من الذرية والنساء الذين لا يجب عليهم حضورها^(٣). إن حضور الجمعة واجب على كل مسلم إلا على أربعة: مملوك وامرأة وصبي ومريض، كما ثبت بذلك الحديث^(٤). فالمريض الذي لا يستطيع حضور الجمعة، يصلّيها ظهرًا؛ أربع ركعات، وله ثواب الجمعة على قدر نيته. وكذا المرأة تصلّيها في بيتها أربع ركعات، كصلاة الظهر؛ لأنه لا جمعة عليها وتذكر ثواب الجمعة وفضلها على حسب نيته، إلا إذا حضرت المسجد مع الناس، في أحد المساجد الذي يصلي فيه النساء بمعزل عن الرجال، كمسجد مكة والمدينة، فإنها تصلّيها ركعتين كما يصلي الرجال.

وينبغي للمسلم أن يغتتم التبكير للجمعة، ويغتتم ثوابها وفضلها؛ لأن حضور الجمعة خير من الدنيا وما فيها، وإن الملائكة يكتبون الأول فالأول، كما أن الشياطين تغدو براياتها إلى الأسواق،

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عمر، وكذا رواه ابن ماجه من حديثهما.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأهل السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبي الجعد الضمري.

(٣) رواه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

(٤) رواه أبو داود عن طارق بن شهاب، وقال: لا يسمع طارق من النبي ﷺ. ورواه الحاكم من حديث أبي

يثبطون الناس عن الصلاة. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت قلبك شغلاً ولم أسد فقرك»^(١).

إنه يوجد من الناس في بعض الأمصار من يحافظ على حضور الجمعة لكنه يهمل فرائض الصلاة في سائر الأوقات؛ لزعمة أن حضور الجمعة يكفر عنه عدم حضوره الصلوات الخمس، ويتأولون حديث: «الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهما». وحديث: «من صلى الجمعة كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى وَفَضَّلَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ»^(٢).

وهؤلاء ممن قال الله فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥١]. فإن تكفير ما بين الجمعة إلى الجمعة مشروط بالمحافظة على سائر الصلوات الخمس، وصيام رمضان، كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِّمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنَبَتِ الْكِبَائِرُ»^(٣) فشرط التكفير كونه يجتنب الكبائر. وترك الصلاة هو من أكبر الكبائر، بل إن تعمد ترك الصلاة كفر بالله؛ لأنها عمود الإسلام، والناحية عن الفحشاء والآثام. من تركها فقد كفر كما في صحيح مسلم عن جابر أن النبي ﷺ قال: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة، من تركها فقد كفر» وفي رواية: «من تركها فقد أشرك»^(٤) وقد أجمع العلماء على كفر من استباح ترك الصلاة.

ثم إن للجمعة آداباً ينبغي للمسلم المحتسب أن يحافظ على آدابها رجاء ثوابها، فمنها: الاغتسال لها، ولبس أحسن الثياب، ومس الطيب، وإذا دخل المسجد صلى ما يتيسر له، فمن الصحابة من يصلي اثنتي عشرة ركعة، ومنهم من يصلي ثماني ركعات، ومنهم من يصلي أقل، ومنهم من يصلي أكثر، والنبي ﷺ قد حث على هذا كله، فقال: «من اغتسل يوم الجمعة، ولبس

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة.

(٣) أخرجه مسلم من حديث هريرة.

(٤) أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك.

أحسن ثيابه، ومس من طيب أهله، ثم صلى ما كتب له، ثم أنصت حتى يفرغ الإمام من خطبته؛ غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام. ومن مس الحصى فقد لغا؛ ومن لغا فلا جمعة له» رواه مسلم. وقال: «من تكلم والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارًا. ومن قال لصاحبه: أنصت. والإمام يخطب فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له»^(١)

فمن فوائد هذه الأحاديث، أن خروج الإمام، وشروعه في الخطبة، أنه يمنع من فعل التطوع بالصلاة، ويمنع من الكلام. فلا يجوز لأحد أن يقوم ثم يصلي؛ لأن هذا وقت نهى، إلا إذا دخل المسجد والإمام يخطب، أو المؤذن يؤذن، فإنه يصلي ركعتين تحية المسجد قبل أن يجلس؛ لما في صحيح مسلم عن جابر: أن النبي ﷺ كان يخطب، فدخل رجل - يقال له: سليك الغطفاني - فجلس قبل أن يصلي ركعتين. فقطع النبي خطبته، ثم قال له: «يا سليك، أصليت ركعتين؟» قال: لا. قال: «قم وصل ركعتين».

ومن آداب الجمعة: الاستماع للخطبة، وألا يتكلم بشيء؛ فإن الكلام يبطل ثواب الجمعة. وألا يتخطى رقاب الناس إلى بقعة يريد أن يصلي فيها، وقد نهى رسول الله ﷺ عن تخطي رقاب الناس في المسجد، ولما رأى النبي ﷺ رجلاً يتخطى رقاب الناس قال له: «اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ وَأَنْتَ»^(٢) فواجب المسلم أن يجلس حيث ينتهي به الجلوس من المسجد بدون أن يتخطى رقاب الناس، وبدون أن يحتجز له بقعة يضع فيها عصا أو مصلى، ثم يتخطى رقاب الناس إليها فقد عد بعض العلماء هذا ظلمًا، كما أنه بدعة لكونه يحجز هذه البقعة عن المبكرين السابقين إلى المسجد، والسابق إلى المسجد أحق بالتقدم إليها؛ لأن الله يقول: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾^(٣) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ [الواقعة: ١٠-١١]. وقد قال بعض العلماء بعدم صحة الصلاة في ذلك المكان المحجوز؛ لأنها بمثابة البقعة المغصوبة. حيث إن مَنْ مَنَعَ المستوجبين للتقدم في الروضة والصف المتقدم فقد ظلمهم حقهم. وقد قيل:

(١) أخرجه أحمد من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله.

ووضع المصلى في المساجد بدعة وليس من الهدي القويم المحمدي
وتقديمه في الصف حجر لروضة ومنع لها عن سابق متعبد

ومما ينبغي أن ننصح به أن المسلم إذا دخل المسجد فإنه يجب عليه أن يوطن نفسه، وأن يعتقد اعتقادًا جازمًا لصحة جمعته التي يصلّيها مع الإمام، ومع جماعة المسلمين، وأنها جمعة صحيحة تامة، يرجو ثوابها وأجرها عند الله، ولا يختلج في قلبه الشك في صحتها بناء على ما يسمعه من بعض الفقهاء الذين يقيدون الشريعة بقيود توهن الانقياد. فقد سمعنا عن بعض البلدان أن بعضهم يصلّي الجمعة بنية فاسدة؛ حيث يدخل فيها وفي نيته أن يعيدها ظهرًا لاعتقاده بطلانها. ولا شك أن الداخل في صلاة الجمعة بنية فاسدة فإن جمعته فاسدة «وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(١). ونحمد الله أننا في عافية من هذه البدعة فلا تفعل عندنا، وإنما ننصح عنها من ابتلي بها من إخواننا المسلمين الذين جعلوا هذه البدعة بمثابة الزيادة في الدين، وهي من وساوس الشياطين، ونعوذ بالله ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦]. فهؤلاء الذين يفعلون ذلك، يعتبرون بأنهم خاسرون لفضل جمعتهم وفرضها، فيصرفون عن الجمعة بخفي حنين حيث خسروا الجمعة حين دخلوها بنية فاسدة. والله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا. كما أنهم يخسرون صلاة الظهر، فلا تصح منهم، فيصرفون وقد خسروا الجمعة، وخسروا صلاة الظهر ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وهنا أمر ينبغي التفتن له وهو أن الجمعة لا تدرك إلا بإدراك ركعة تامة. فإذا دخل الإنسان المسجد وأدرك مع الإمام الركعة الثانية من الجمعة فإنه يعتبر مدرّكًا للجمعة. بحيث يأتي بالركعة الثانية فقط، وتصح جمعته؛ لأن من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة. أما إذا دخل المسجد ووجد الإمام قد رفع رأسه من الركعة الثانية فإنه يعتبر بأن الجمعة قد فاتته. فلا

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب.

جمعة له. فمن واجبه أن يصلّيها ظهرًا؛ أربع ركعات. سواء كان وحده أو مع جماعة. لما روى ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَعَظِيرَهَا فَلْيُضِفْ إِلَيْهَا أُخْرَى، وَقَدْ تَمَّتْ صَلَاتُهُ، وَإِنْ أَدْرَكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيُصَلِّ ظَهْرًا»^(١).

إن الله سبحانه أمر عباده المؤمنين بالمبادرة بالسعي إلى الجمعة وترك البيع والشراء، والأخذ والعتاء بعد النداء للتفرغ لعبادتها. وأخبر أن حضور الجمعة خير لهم من الدنيا وما فيها. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]. ثم إنه سبحانه أذن لهم بعد الفراغ منها بأن ينتشروا في الأرض ويتبعوا من فضل الله فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. أي يبعوا واشتروا وابنوا واغرسوا، وسافروا للتجارة في البر والبحر، لأنكم قد أديتم واجبكم. وحافظتم على فريضة ربكم. والمحافظة على الواجبات هي من أكبر العون على قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وسعة الرزق في الحياة ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. ﴿...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [الطلاق: ٢-٣].

وكان عراك بن مالك أحد التابعين إذا فرغ من صلاة الجمعة، أمسك بعصاة باب المسجد وقال: اللهم إني أجبت دعوتك، وأديت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك كما وعدتني، إنك خير الرازقين. فأثرى ماله، وكثر خيره.

أسأل الله سبحانه أن يعمننا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة.

(٥)

التذكير بالخطبة الأخيرة من يوم الجمعة

الحمد لله الذي خلق الخلق ليعبدوه، وركب فيهم العقول ليعرفوه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ليشكروه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من يخاف ربه ويرجوه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي شرع صلاة الجُمُع والأعياد. وبيّن للناس طريق الهدى والرشاد. اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها الناس، إنكم لن تُخلقوا عبثًا، ولن تُتركوا سدى، وإن لكم معادًا يجمعكم الله فيه، فيحكم بينكم. وقد خاب وخسر عبد خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء. وحُرِمَ جنة عرضها السماوات والأرض. أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون إلى أجل مسمى محتوم. فمن استطاع منكم أن يقضي عمره وهو محافظ على واجباته؛ من صلاته وزكاته وصيامه فليفعل.

إن قومًا صرفوا جل عقولهم، وجل أعمالهم، وجل اهتمامهم للعمل في دنياهم، واتباع شهوات بطونهم وفروجهم، وتركوا فرائض ربهم، ونسوا أمر آخرتهم. فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم. فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٨-١٩]. أين من تعرفون في مثل هذا اليوم من الآباء والإخوان،

والأصدقاء والجيران قدموا على ما قدموا من عمل، وجوزوا بالسعادة والشقاوة، أين الذين بنوا القصور المشيدة، وحازوا فنون الأموال والقلاع؟ قد صاروا رميًا تحت الصخر والتراب. إن

الله أننى على زكريا وأهل بيته. لتعملوا مثل عمله. فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾
[آل عمران: ١٤٧]. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب
العالمين.

(٦)

فضل الإسلام

وَمَا يَشْتَمِل عَلَيْهِ مِنَ الْمَحَاسِنِ وَالْمَصَالِحِ الْعَظَامِ

الحمد لله الذي وفق من أراد هدايته إلى الإسلام، فانقادت للعمل به الجوارح والأركان. وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من قال: ربي الله ثم استقام. وأشهد أن محمدًا نبيه ورسوله سيد الأنام. اللهم صل على نبيك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه البررة الكرام، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن الله سبحانه بفضلله ورحمته، قد أنعم على عباده بنعم كثيرة، وأجلها وأعظمها الهداية إلى الإسلام، والثبات عليه حتى يلقوا ربهم. كما في الحديث: «قد أفلح من هُديَ للإسلام، ورزقَ كفافًا، وقنعه الله بما آتاه»^(١). ومن دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالسَّنةِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ»^(٢). ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فيفرح بذكره، ويندفع إلى القيام بفرضه ونفله، طيبة بذلك نفسه، منشرحًا به صدره ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] بذكر الإسلام، ﴿حَرَجًا﴾ من أمره ونهيه وصلاته وصيامه، وحلاله وحرامه. يراه بمثابة التكاليف الشاقة عليه، ينفر عن

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن العاص بلفظ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا».

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة.

الطاعة، ويألف البطالة، يبغض أهل الإيمان، ويميل بطبعه ومحبه إلى أهل الكفر والفسوق والعصيان؛ لأن شبيه الشيء منجذب إليه، والمرء على دين خليله وجليسه.

ثقل الكتاب عليهم لما رأوا تقييده بأوامر ونواهي

إن أكثر الناس في هذا الزمان يتسمون بالإسلام، وهم منه بعداء، ويتحلون حبه وهم له أعداء، يعادون بنيه، ويقوضون مبانيه، لم يبق معهم منه سوى محض التسمي به، والانتساب إليه بدون عمل به، ولا انقياد لحكمه، فترى الكثير منهم لا يصلون الصلوات المفروضة، ولا يؤدون الزكاة الواجبة، ولا يصومون رمضان، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٢٩]. من الربا وشرب الخمر، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩]. ويحبون أن يعيشوا في الدنيا عيشة البهائم، ليس عليهم أمر ولا نهي، ولا صلاة ولا صيام، ولا حلال ولا حرام، فهؤلاء هم العادمون للدين، والمعادون لأهله، فهم جديرون بكل شر، بعيدون عن كل خير. وعادم الخير لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه؛ لأن دين الإسلام يهذب الأخلاق، ويطهر الأعراق، ويزيل الكفر والشقاق والنفاق، وسوء الأخلاق، وإنما تنجم الأفعال الفظيعة، والأعمال الشنيعة، من العادمين للدين.

وليعتبر المعترف بالبلدان التي قوضت منها خيام الإسلام، وترك أهلها فرائض الصلاة والزكاة والصيام، واستباحوا الجهر بمنكرات الكفر والفسوق والعصيان، كيف حال أهلها؟! وما دخل عليهم من النقص والجهل والكفر، وفساد الأخلاق والعقائد والأعمال، حتى صاروا بمثابة البهائم، يتهارجون في الطرقات، لا يعرفون صياماً ولا صلاة، ولا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون عن قبيح، ولا يهتدون إلى حق، قد ضرب الله قلوب بعضهم ببعض؛ لأن للمنكرات ثمرات، ولترك الطاعات عقوبات ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

هو الإسلام ما للناس عنه إذا ابتغوا السلامة من غناء

إذا انصرفت شعوب الأرض عنه فَبَشِّرْ كُلَّ شَعْبٍ بِالشَّقَاءِ

نظام العدل يمنع كل شر وطب الشرع ينزع كل داء

وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك؛ يقول: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ»^(١).

والدين - هو هذا السمع السهل الموصل بمن تمسك به إلى سعادة الدنيا والآخرة - ليس بخرج ولا شاق، ولا يقيد عقل مسلم عن الحضارة، ولا التوسع في التجارة المباحة، بل هو سلم النجاح، وسبب الفلاح. رأسه: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وعموده: الصلاة، وبقية أركانه: الزكاة، والصيام، وحج بيت الله الحرام.

وقد جعل الله هذه الأركان بمثابة البنيان للإسلام، وبمثابة الفرقان بين المسلمين والكفار، والمتقين والفجار، وبمثابة محك التمييز لصحة الإيمان، بها يعرف صادق الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان. وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان؛ لأن الله سبحانه لم يكن ليذر الناس على حسب ما يدعونه بألسنتهم، بحيث يقول أحدهم: أنا مسلم أنا مؤمن، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، بدون اختبار لهم بالأعمال التي تصدق إسلامهم أو تكذبه، يقول الله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. أي لا يُتَحَبَّرُونَ ولا يُمْتَحَنُونَ على صحة ما يدعون ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي اختبرنا الأمم قبلهم بالشرائع من فعل الواجبات وترك المحرمات ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي في دعوى إيمانهم حيث قاموا بواجبات دينهم فصدق قولهم فعلهم ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]. أي الذين قالوا: آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، ولم تنقد

(١) رواه الإمام أحمد من حديث ابن مسعود.

للعمل به جوارحهم، وصار حظهم من الإسلام هو محض التسمي به، والانتساب إليه، بدون عمل به، ولا انقياد لحكمه.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْلِفُوكَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾^٨ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ [البقرة: ٨-٩]. فاعملوا بإسلامكم تُعرفوا به، وادعوا الناس إليه، تكونوا من خير أهله، فإن للإسلام صُوى ومنارًا كمنار الطريق يُعرف به صاحبه، وأنه لا إسلام بدون عمل.

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله - من حديث أنس - أن النبي ﷺ قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب». ومعنى كون الإسلام علانية أن المسلم على الحقيقة لا بد أن يظهر إسلامه علانية للناس، بحيث يرويه يصلي الصلوات الخمس المفروضة، ويؤدي الزكاة الواجبة، ويصوم رمضان، فيظهر إسلامه علانية للناس، بحيث يشهدون له بموجبه. والناس شهداء الله في أرضه. وهذا معنى قول العلماء: إن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة. أما من يتسمى بالإسلام وهو لا يصلي، ولا يؤدي الزكاة الواجبة، ولا يصوم رمضان، ولا يصدق بالبعث بعد الموت للجزاء على الأعمال، ولا يصدق بالجنة والنار، فلا شك أن إسلامه مزيف مغشوش لا حقيقة له، بل هو إسلام باللسان، يكذبه الحس والوجدان، والسنة والقرآن. فمثل إسلامه كمثل البيت الخرب المتساقطة غرفه وعمدانه. وأكثر الناس لا يعرفون الإسلام على حقيقته، وإنما يعرفونه باسمه فقط. فالإسلام قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

إن دين الإسلام هو دين الفطرة السليمة، والطريقة المستقيمة، يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، وبين مصالح الروح والجسد، فهو دين سعادة وسيادة. فمن ادعى عزل الدين عن الدولة فقد كذب.

فهو الدين الذي شرعه الله لعباده، وارتضاه دينًا للبشر كلهم: عربهم وعجمهم. لا دين لهم سواه، يقول الله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ

لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» [المائدة: ٣]. وقد «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»^(١). ثبت بذلك الحديث. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. إن دين الإسلام هو دين السلام والأمان، دين العزة والنظام، المطهر للعقول من خرافات البدع والضلال والأوهام. دين من قام به ساد، وسعدت به البلاد والعباد، ومن ضيعه سقط في الذل والفساد، ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. دين يحترم الدماء والأموال ويقول: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ»^(٢) فدين الإسلام صالح لكل زمان ومكان، قد نظم أحوال الناس أحسن نظام، بالحكمة والمصلحة والعدل والإحسان. فلو أن الناس آمنوا بتعاليمه، وانقادوا لحكمه وتنظيمه، ووقفوا عند حدوده ومراسيمه، لصاروا به سعداء لأنه يهدي للتي هي أقوم.

إن أكثر الأمم في هذا الزمان لما خسروا الإسلام، ولم يكن لهم حظ ولا نصيب من العمل بالسنة والقرآن، أصبحوا فوضى حيارى، ليس لهم دين يعصمهم، ولا شريعة تنظمهم، فصاروا في أخلاق البهائم، يعتذرون بأنه ليس عليهم أمر ولا نهي، ولا صلاة ولا صيام، ولا حلال ولا حرام ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

إن أعداء الإسلام قد شوهوا سمعة الإسلام، وألبسوه أثوابًا من الزور والبهتان، ومن التدليس والكتمان، حيث وصفوه بأن فرائضه تكاليف شاقة، وأن حدوده آصار وأغلال، وأنه لا يتلاءم الحكم به مع القرن العشرين. ونحو ذلك مما يقولون: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

(١) أخرجه مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب.

(٢) رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله.

فهذه الأقوال الكاذبة الخاطئة إنما خرجت من المستشرقين، أعداء الإسلام والمسلمين، قصدوا بها صد الناس عن الدين، لأنهم لم يعرفوا الإسلام، ولم يذوقوا حلاوته. من ذاق منه عرف، ومن حُرِّم انحرَف، فمن جهل الإسلام عابه وعاداه، وقد قيل:

صديقك لا يثني عليك بطائل فماذا ترى فيك العدو يقول

لقد مكث المسلمون ثلاثة عشر قرناً يحكمون بالشرعية الإسلامية الكفيلة بحل مشاكلهم، ما وقع في هذا الزمان، وما سيقع بعد أزمان. عملاً بقوله سبحانه: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [البائدة: ٤٩].

فكان الحكام المسلمون يحكمون بالقصاص، وقطع يد السارق، ويجلدون الزاني والقاذف وشارب الخمر، ولا تأخذهم في الله لومة لائم. فكانت لهم العزة والقوة والتمكين في الأرض، وهذه الحدود، وإن استوحش الناس منها واستشنعوها، لكنها بمثابة العلاج الوحيد لتقليل الجرائم، فهي العلاج الشافي النافع لعللهم، وإصلاح مجتمعهم ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. لأن من لا يكرم نفسه لا يكرم. ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. والمضار الجزئية الفردية تُغتفر في ضمن المصالح العمومية.

خرج الصحابة ﷺ من جزيرتهم والقرآن بأيديهم، يدعون الناس إليه، ويفتحون به ويسودون. فهو السبب الأعظم الذي نهضوا به، وفتحوا وسادوا وشادوا، وبلغوا المبالغ كلها من المجد والرقي، وتحولوا بهديته من الفرقة والاختلاف، إلى الوحدة والإتلاف، ومن الجفاء والبداءة والهمجية، إلى الحضارة والعلم والمدنية، واستبدلوا بأرواحهم الجافية الجاهلية أرواحاً جديدة دينية، صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة ومجد وعلم وعرفان. وقد أنجزهم الله ما وعدهم به في القرآن بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ

هُمُ الْفَلْسِْفُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥]. وصدق الله وعده، فكانوا هم ملوك الأمصار، بعد أن كانوا عالة في القرى والقفار، يعز على أحدهم شيع جوعته، وستر عورته. ولما تدفقت جحافل الصحابة المظفرة على بلاد الأكاسرة، وعلم رستم قائد الفرس الأعلى أنها الهزيمة لا محالة، أرسل إلى سعد بن أبي وقاص، أن أخبرونا بالذي تريدون منا، وما الغرض الذي أقدمكم على بلادنا؟ فكان جوابهم الذي لم يختلف أن قالوا: نريد أن نُخرج الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأن نخرجهم من عبادة المخلوق إلى عبادة الله وحده، وأن نخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعتها.

فهذا صنيع سلف المسلمين الكرام، من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان. قد جاهدوا عليه بالحجة والبيان، والسنة والقرآن، حتى اتسعت حضارة الإسلام اتساعاً عظيماً، لا يباثل ولا يضاهى ولا يضام. ذلك بأنها لما اتسعت فتوحهم الإسلامية، وامتد سلطانهم على الأقطار الأجنبية، لم يقصروا نفوسهم على استلذاذ الترف ورخاء العيش، وتزويق الأبنية وخزن النقود فحسب، بل عكفوا جادين على تمهيد قواعد الدين، وهدم قواعد الملحدين، ونشر العلوم الإسلامية، والأحكام الشرعية، وتعميم اللغة العربية، فاختطوا المدن، وأنشؤوا المساجد، ونشروا المكارم والمفاخر وأزالوا المنكرات والخبائث، فأوجدوا حضارة نضرة، جمعت بين الدين والدنيا. أسسوا قواعدا على الطاعة، فدامت لهم بقوة الاستطاعة، وغرسوا فيها الأعمال البارة، فأينعت لهم بالأرزاق الدارة. أمدهم الله بالمال والبنين، وجعلهم أكثر أهل الأرض نفيراً.

وإنما ضعف المسلمون في هذه القرون الأخيرة، وساءت حالهم وانتقص الأعداء بعض بلدانهم، كل ذلك من أجل أنه ضعف عملهم بالإسلام، وساء اعتقادهم فيه، وصار فيهم منافقون، يدعون إلى نبذه، وإلى عدم التقيد بحدوده وحكمه، ويدعون إلى تحكيم القوانين الوضعية بدله، ولأجله صاروا من أسوأ الناس حالاً، وأبينهم ضلالاً، وأشدّهم اضطراباً وزلزالاً، وصاروا جديرين بزوال النعم، والإلزام بالنقم؛ لأن الله سبحانه قال: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ**

مَا يَفْعَلُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

واقترضت حكمة الله المشاهدة بطريق الاعتبار والتجربة، أنه ما ظهر الإلحاد والزندقة في بلد فكفر أهلها بالشرعية الإسلامية، وتركوا الصلاة والزكاة والصيام، والتكاليف الشرعية، واستباحوا المنكرات، وشرب المسكرات الوبيئة، إلا فتح عليهم من الشر كل باب، وصب عليهم ربك سوط عذاب ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللکم، وتمسكوا بدينكم، وحافظوا على فرائض ربكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

(٧)

نظام شرع الإسلام وكونه صالحاً لكل زمان ومكان

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة مُبرّأة من كل قول واعتقاد لا يحبه الله ولا يرضاه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه من بين خلقه واجتبهه. اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه ومن والاه. وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها الناس اتقوا الله الملك العلام، والتزموا ما أوجبه عليكم من حقوق الإسلام، واعلموا أن نعم الله على العباد كثيرة وأجلها وأفضلها الهداية للإسلام، كما في الحديث: «قد أفلح من هدي للإسلام ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»^(١) ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فيفرح بذكره، ويندفع إلى القيام بفرضه ونفله، منشراحاً بذلك صدره، طيبة به نفسه، وإذا حلت هداية الإسلام في قلب إنسان نشطت في مرادها الأجسام ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]. أي ضيقاً بذكر الإسلام، وحرَجاً من أمره ونبيه، وحلاله وحرامه، وصلاته وصيامه، فهو ممن قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا

(١) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن العاص بلفظ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا».

يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ [البقرة: ٨-٩]. فتجد من هذه صفته يألف البطالة، وينفر عن الطاعة، ويبغض أهل الإيمان، ويميل بمحبته إلى مصاحبة أهل الكفر والفسوق والعصيان؛ لأن شبيهه الشيء منجذب إليه، والمرء على دين خليله.

إن أكثر الناس في هذا الزمان يتسمون بالإسلام وهم منه بعداء، ويتحلون حبه وهم له أعداء، يعادون بنيهِ، ويقوضون مبانيهِ. فتجد أكثرهم يقولون: نشهد أن لا إله إلا الله، ونشهد أن محمداً رسول الله، ويصلون عليه عند ذكره، ويشهدون أن دينه هو الحق، وهم يتوسلون بالمقبورين ويسألونهم قضاء حوائجهم، وتفريج كربهم، وما شعروا أن هذا هو الشرك الأكبر؛ المحبط لصلاتهم وصيامهم وصالح أعمالهم. وقد أخبر الله بأنه لا أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وقد أخبر النبي ﷺ أن أمته تفرق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(١).

إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابع الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وعماد الدين، وأمثالهم من سلاطين المسلمين، إنما شاع لهم الثناء العاطر، والذكر الجميل، وصاروا في الفتوح والتاريخ هم الصدر المقدم، والسيد المرهوب، كله من أجل تمسكهم بالإسلام، وعملهم بشرائعه على التمام. حيث جعلوا القرآن لهم بمثابة الإمام؛ فقادهم إلى الأمن والإيمان، والسعادة والاطمئنان، فعاشوا في ظله في نعمة باسقة، وعافية واسعة، عرفوا حلاوته حين ذاقوا ثمرته، وقد قيل: من ذاق عرف، ومن حُرِم انحرَف. وفي الحديث: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»^(٢).

فالتكاتف على التمسك بالإسلام والعمل بشرائعه على التمام؛ هو الذي يوحد المسلمين، ويؤلف بين قلوبهم، ويصلح ذات بينهم، ويجعلهم مستعدين للنصر على عدوهم، كما قال أمير

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب.

المؤمنين عمر بن الخطاب: إن الله قد أعزكم بالإسلام، ومهما طلبتم العز في غيره يذلكم.^(١) وقد ذكر عباده المؤمنين في كتابه المبين بهذه الوحدة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣]. فحبل الله الإسلام والعمل بالقرآن، فهو حبله المتين، ودينه القويم، وصراطه المستقيم.

الإسلام دين السلام والأمان، دين العزة والقوة والنظام، المطهر للعقول من خرافات البدع والضلالة والأوهام، دين العدل والمساواة بين الشريف والوضيع، والخاص والعام، في الحدود والحقوق والأحكام. لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأسود على أحمر إلا بالطاعة والإيمان.

دين يوجب على المؤمنين أن يكونوا في التعاطف كالأخوان، وفي التعاضد والتساعد كالبنيان ﴿أَذَلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) [التوبة: ٧١].

دين يحترم الدماء والأموال، ويقول: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»^(٢). ويقول: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ»^(٣) أي بموجب الرضا التام.

دين من قام به ساد وسعدت به البلاد والعباد، ومن ضيعه سقط في الذل والفساد ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث عمر.

(٢) متفق عليه من حديث جابر.

(٣) أخرجه الدارقطني من حديث أنس بن مالك.

دين صالح لكل زمان ومكان، قد نظم حياة الناس أحسن نظام بطريق العدل والإنصاف والإتقان ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتَيْهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]. أي صدقاً في الأقوال، وعدلاً في الأحكام، فلو أن الناس آمنوا بتعاليمه، وانقادوا لحكمه وتنظيمه، ووقفوا عند حدوده ومراسيمه، لصاروا به سعداء، ولما حصل بينهم بغي ولا طغيان ولا اعتداء؛ لأنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

لقد مكث المسلمون ثلاثة عشر قرناً من بعثة النبي ﷺ ودينهم الإسلام، ودستورهم السنة والقرآن؛ لأن الله نصبهما حكماً عدلاً يقطعان عن الناس النزاع، ويعيدان خلافهم إلى مواقع الإجماع. ولأنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المسلمين؛ باع واشترى، وأجر واستأجر، ونكح وطلق، وحارب وسالم. وأنزل الله عليه في حجة الوداع وهو واقف بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وخطب الناس فقال: «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»^(١).

فشريعته كاملة شاملة صالحة لحل جميع مشاكل العالم، ما وقع في هذا الزمان، وما سيقع في الزمان القابل، ولا يأتي صاحب باطل بحجة ولا مشكلة من مشكلات العصر إلا وفي القرآن والسنة بيان حلها وطريق الهدى من الضلال فيها.

غير أن أعداء الإسلام قد شوهوا سمعة الإسلام، وألبسوا شريعته أثواباً من الزور والبهتان، والتدليس والكتمان، فصاروا يعيبونه بالقدم، وأنه لا يتلاءم الحكم به في القرن العشرين، وأنه ينبغي عزل الدين عن الدولة. وأن شريعته تكاليف شاقة. ونحو ذلك مما يقولون ويفترون ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. وغير ذلك من الألفاظ

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم من حديث العرياض بن سارية..

المقتضية لصد الناس عنه، وتنفيرهم منه وهم أعداؤه، فلا عجب إذا أكثروا من الحمل عليه والطعن فيه. وقد قيل:

صديقك لا يثني عليك بطائل فماذا ترى فيك العدو يقول

وإنما ضعف المسلمون في هذه القرون الأخيرة وساءت حالهم، وانتقص الأعداء كثيرًا من بلدانهم من أجل انتشار هذه الأفكار بينهم، ومن أجل ضعف عملهم بالإسلام، فساء اعتقادهم فيه، ومن أجل أنه صار فيهم منافقون يدعون إلى نبذه، وإلى عدم التقيد بحدوده وحكمه، ويدعون إلى تحكيم القوانين الوضعية بدله، ومن أجل أن القوانين تبيح لهم الربا والزنا وشرب الخمر، وتبيح لهم الرقص والخلاعة والسفور، وقد رضوا بها حكمًا بديلاً عن حكم الله عز وجل ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فصاروا بهذه الأعمال من أسوأ الناس حالاً، وأبينهم ضلالاً، وأشدّهم اضطراباً وزلزالاً، وصاروا جديرين بزوال النعم، والإلزام بالنقم، وصدق عليهم قول النبي ﷺ: «ما نقض قوم عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكّم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(١) وقد وعد الله - ووعدته حق وصدق - كل من اتبع هداه وتمسك بدينه وشرعه بألا يضل ولا يشقى في الدنيا، ومن أعرض عن ذكره وترك طاعة ربه وشرعه فإن له معيشة ضنكاً في الدنيا ويحشر يوم القيامة أعمى. والمشاهدة في الحاضرين تكفي لتصديق قواعد الدين.

إنه من الجائر إبدال قاض بدل قاض، وأمير بدل أمير، أما إبدال شرع الله الحكيم بالقوانين فإن هذا يعد من الضلال المبين. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. ويرحم الله الإمام مالك حيث يقول: والله لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس.

ذلك بأنه لما انتشرت الفتوح الإسلامية وامتد سلطان المسلمين على الأقطار الأجنبية؛ لم يقصروا نفوسهم على استلذاذ الترف ورخاء العيش، وتزويق الأبنية فحسب، بل عكفوا جادين على تمهيد قواعد الدين، وهدم قواعد الملحدين، وترقية العلوم الإسلامية، ونشر اللغة العربية. فاستنبطوا الأحكام وبيينوا للناس الحلال والحرام، وكشفوا عن قلوبهم خرافات الضلال والأوهام فرقت حضارة الإسلام رقيًا لا يماثل ولا يضاهي ولا يضام. فاخطوا المدن، وأنشؤوا المساجد، وأشادوا المكارم والمفاخر، فأوجدوا حضارة جديدة نضرة، جمعت بين الدين والدنيا. أسسوا قواعدا على الطاعة، فدامت بقوة الاستطاعة. وغرسوا فيها الأعمال البارة فأينعت لهم بالأرزاق الدارة. أمدهم الله بالمال والبنين وجعلهم أكثر أهل الأرض نفيًا.

آثارهم تنبيك عن أخبارهم حتى كأنك بالعيان تراهم
تالله لا يأتي الزمان بمثلمهم أبدًا ولا يحمي الثغور سواهم

ثم دخل النقص حين ضعف عملهم بشرائع الإسلام، وحين أعرضوا عن هداية القرآن. وإنه ما من بلد يكفر أهلها بالشرائع الإسلامية، ويتركون الصلاة الفرضية، وسائر الطاعات المرضية، إلا فتح عليها من الشر كل باب، وصب عليها ربك سوط عذاب ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

(٨)

دعوة

النصارى وسائر الأمم إلى دين الإسلام^(١)

الحمد لله والصلاة والسلام على سائر أنبيائه، ومن آمن بهم واتبع هديهم ولم يفرق بين أحد منهم، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا نبيه ورسوله.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون وأيها المستمعون: إن الله سبحانه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وإن الله سبحانه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي دين الإسلام إلا من يحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه.

وإن الدين - هو هذا السمع، سهل الاكتناه^(٢) والعمل - ليس بشاق ولا حرج. عموده: الصلاة، وبقية أركانه: الزكاة والصيام وحج بيت الله الحرام مرة واحدة عند الاستطاعة. وقد جعل الله هذه الأركان بمثابة البنيان للإسلام، وبمثابة الفرقان بين المسلمين والكفار، والمتقين والفجار، وبمثابة محك التمييز لصحة الإسلام، بها يعرف صادق الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان.

(١) هذه الكلمة ألقاها المؤلف في المركز الإسلامي في لندن حين صلى بالناس صلاة عيد الأضحى في سفره للعلاج سنة ١٣٩٤ هـ، وقد نشرتها إذاعة لندن في البلاد العربية.

(٢) كُنْهُ الشَّيْءِ: غايته وقدره ونهايته.

لكون الإسلام ليس هو محض التسمي باللسان، والانتساب إليه بالعنوان، ولكنه ما وقر في القلب وصدقته الأعمال. فاعملوا بإسلامكم تُعرفوا به، وادعوا الناس إليه تكونوا من خير أهله، فإنه لا إسلام بدون العمل.

إن دين الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لجميع الخلق، فقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [البائدة: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فيفرح بذكره، ويندفع إلى القيام بفروضه ونوافله، طيبة بذلك نفسه، منشراحًا به صدره ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

الإسلام يهذب الأخلاق، ويطهر الأعراق، ويزيل الكفر والشقاق والنفاق. يأمر بالمحافظة على الفرائض والفضائل، وينهى عن منكرات الأخلاق والردائل. الإسلام دين السلام والأمان، يحب السلم ويكره الحرب، إلا في حالة الاضطراب. وقد سماه الله سلمًا فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أي في الإسلام. الإسلام دين العزة والقوة والنظام، المطهر للعقول من خرافات البدع والشرك والضلال والأوهام.

الإسلام دين العدل والمساواة في الحدود والحقوق والأحكام، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأسود على أحر إلا بالطاعة والإيمان.

الإسلام يحترم الدماء والأموال، ويقول: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»^(١) ويقول: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»^(٢). أي بموجب الرضا التام. وفي

(١) رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله، ومن رواية ابن هشام: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ».

(٢) أخرجه الدارقطني من حديث أنس بن مالك.

حكم القرآن ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

الإسلام دين السعادة والسيادة، من قام به ساد، وسعدت به البلاد والعباد، ومن ضيعه سقط في الذل والفساد، ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

الإسلام شريعة الله في أرضه، شرعه لعباده لمصالحهم الدينية والدنيوية، فقد نظم حياة الناس أحسن نظام. ولولا الإسلام وما فيه من الشرائع والأحكام، وأمور الحلال والحرام، لكان الناس بمثابة البهائم يتهارجون في الطرقات، لا يعرفون صيامًا ولا صلاة، ولا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، ولا يمتنعون من قبيح، ولا يهتدون إلى حق.

الإسلام كافل لحل مشاكل العالم ما وقع في هذا الزمان، وما سيقع بعد أزمان. صالح لكل زمان ومكان، قد نظم حياة الناس أحسن نظام، بالحكمة والمصلحة، والعدل والإحسان والإتقان. فلو أن الناس آمنوا بتعاليمه، وانقادوا لحكمه وتنظيمه، ووقفوا عند حدوده ومراسيمه، لصاروا به سعداء، ولما حصل بينهم بغي ولا طغيان ولا اعتداء؛ لأنه يهدي للتي هي أقوم.

إننا في دعوتنا إلى دين الإسلام، لسنا ندعو إلى قومية عربية، ولا إلى أحزاب شعبية، ولا إلى مذاهب فقهية، وإنما ندعو إلى الدين الحق، دين الله الذي ارتضاه لجميع الخلق، دين عيسى وموسى وسائر الأنبياء، وخاتمهم محمد ﷺ. يقول الله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فأمر الله سبحانه بإقامة الدين والاجتماع على كلمته، ونهى عن التفرق فيه، بأن يؤمنوا ببعض الأنبياء ويكفروا ببعض، أو يؤمنوا ببعض الكتب ويكفروا ببعضها ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠].

وقد أمر الله عباده المؤمنين بأن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

إنه من يكذب نبياً من الأنبياء فإنه يعتبر مكذباً لسائر الأنبياء، وكافراً بالله عز وجل. فالذين يكذبون بنبوة المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، أو يكذبون بمعجزاته التي أثبتتها القرآن، فإنهم يعتبرون مكذبين لسائر الأنبياء، وكافرين بالله عز وجل. ومثلهم الذين يكذبون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، أو يكذبون بالقرآن النازل عليه من الله، أو يزعمون بأنه شيء فاض على نفس محمد بدون أن يوحى به الله إليه، أو ينزل به جبريل عليه السلام.

فإنهم يُعتبرون بأنهم مكذبون بنبوة عيسى ابن مريم، ونبوة موسى وسائر الأنبياء؛ لأن من كذب نبياً واحداً كذب سائر الأنبياء. ولأن التكذيب بمحمد أو التكذيب بالقرآن النازل عليه يستلزم التكذيب بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، والتكذيب بمعجزاته التي أثبتها القرآن الحكيم. وإنني أعجب أشد العجب من عقلاء النصارى المستقلة أفكارهم، والذين برعوا في الذكاء والفتنة، وعرفوا اللغة العربية، وقد كثر في هذه الأزمنة اختلاطهم بالعرب المسلمين، وتعلموا لغة العرب التي يتمكنون بها من معرفة أحكام الإسلام، وبلاغة القرآن، وشمول نفعه ومحاسن أحكامه وحكمته، وعموم دعوته، وكونه رسالة رحمة وهداية من الله لجميع خلقه، وأنه المعجزة الخالدة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والمصدق لسائر الأنبياء قبله، ومع هذا كله نراهم يصرون ويستكبرون على التكذيب بمحمد عليه الصلاة والسلام، وعلى التكذيب بالقرآن النازل عليه، تقليداً منهم للمكذبين من القسيسين والمبشرين. والله تعالى يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. نظير قوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

على أن الكثيرين من عقلائهم يعترفون بدين الإسلام، ويصدقون بنبو محمد عليه الصلاة والسلام، وأن ما جاء به هو الدين الحق الذي لا سعادة للبشر إلا باعتناقه واعتقاده، وأخذ بعضهم ينادي بعضًا بالرجوع إليه واتباع أحكامه. وسيكون لهذا التداعي تجاوب ولو بعد حين ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

يا معشر النصارى لقد تعصبتُم وما أنصفتُم، وإن موضع العجب منكم هو أن القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام كله نضال وجهاد وجدال عن نبوة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، يحقق صدق نبوته وكرامة نشأته، وطهارة مولده، وبراءة أمه مريم البتول عليها السلام. وإن الله سبحانه خلقه بيد القدرة من أم بلا أب، كما خلق آدم من تراب ثم قال له: كن. فكان. وإن الله أيدته بالمعجزات الباهرات، الدالة على صدق رسالته، فكان يرى الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله وينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرونه في بيوتهم، مع تكليمه الناس في المهدي وقوله: ﴿...إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣٤].

كل هذه المزايا من الصفات والمعجزات قد أثبتتها القرآن، وآمن بها المسلمون، ومن كذب بها فقد كفر. ولا توجد هذه الصفات وهذه المعجزات بالإنجيل الذي بأيديكم؛ لأن الله ذكرها في كتابه المبين: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

على أن الإنجيل الذي بأيدي النصارى الآن ليس هو الإنجيل النازل على المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وإنما هو مبدل منه، وفيه التحريف الكثير، والكذب على الله وعلى الأنبياء، كما يعترف العقلاء من علمائهم بذلك، يقول الله تعالى: ﴿قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

لأن النصارى يحيزون للقسيسين بأن يُغيروا من شريعة الرب ما يشاؤون ويشتهون، فيجعلون الحرام حلالاً؛ لأنهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

فجعلوا المسيح هو الله، وجعلوه ثالث ثلاثه. والقرآن والإنجيل بريثان من ذلك: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

وهذا القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام هو معجزة الدهور، وآية العصور، محفوظ في المصاحف وفي الصدور، منذ نزل إلى يوم القيامة. لا يستطيع أحد أن يقحم فيه حرفاً أو يحذف منه حرفاً؛ لأن الله سبحانه تولى حفظه، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُوَلَحْفَظُونَهُ﴾ [الحجر: ٩].

والقرآن هو أساس دين الإسلام، مع سنة محمد عليه الصلاة والسلام. ولولا هذا القرآن لكذب الناس بنبوة عيسى ابن مريم وبمعجزاته، كما كذب بها اليهود وغيرهم، ورموا أمه بالمفتريات والعظائم، طهرها الله وأعلى قدرها عما يقولون علواً كبيراً. أفيجازي محمد رسول الله ﷺ الذي جاهد أشد الجهاد في الدفاع والنضال عن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، بأن تقابلوه بتكذيبه، والتكذيب بالقرآن النازل عليه والذي هو المعجزة العظمى له؟! وقد تحدى الله جميع الخلق - وأنتم منهم - على أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا. يقول الله سبحانه: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. أي معيناً.

مع العلم أنه كان لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وليس في بلده ولا زمنه مدارس ولا كتب، يقول الله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٥٨]

بَلْ هُوَ ءَايَتٌ بَيِّنَتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾
[العنكبوت: ٤٨-٤٩]. فعلم منه أن هذا القرآن وحي من الله أوحاه إليه بعد أن بلغ الأربعين من عمره، لا يقال: إن هذا القرآن شيء فاض على نفسه بدون أن يوحى الله به إليه، وبدون أن ينزل به جبريل عليه؛ فإن القول بهذا حقيقة في التكذيب به، ومن قال به كفر وأصلاه الله سقر.

إن الله سبحانه ختم الرسل بنبوة محمد ﷺ، يقول الله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. كما ختم الشرائع بشريعته الشاملة الكاملة، فلا يجوز لأحد أن يتعبد بغير شريعته؛ لأن الله سبحانه أرسله إلى كافة الناس بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فكما أنه رسول للمسلمين فإنه رسول للمسلمين واليهود، ولسائر الأمم في مشارق الأرض ومغاربها، فهو رحمة الله المهداة لجميع خلقه، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وأنزل الله عليه: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقد أثنى الله سبحانه على ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن كل نبي يُبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس كافةً»^(١) فهو رحمة من الله مهداة لجميع الناس، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

فلو كان موسى أو عيسى موجودين بالأرض لما وسعها إلا اتباع محمد والعمل بشريعته. ولما رأى النبي ﷺ مع عمر قطعة من التوراة قال له: «يا عمر، لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا

(١) أخرجه البخاري من حديث جابر بن عبد الله.

يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ولو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي»^(١). إن أكبر صارف يصرف علماء النصارى وعامتهم عن اعتناق دين الإسلام واعتقاده، وعن التصديق بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وبالقرآن النازل عليه الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. هو تأثرهم بتنفير القسيسين والمبشرين عن الإسلام، وكثرة كذبهم وافتراءهم على رسول الله عليه الصلاة والسلام، بقولهم بأنه رجل عاقل، وأنه عبقرى، وأن هذا القرآن هو شيء فاض على نفسه بدون أن يوحي به الله إليه، أو ينزل به جبريل عليه، تعالى الله عن قولهم وإفكهم علوًّا كبيرًا.

فهم يتلقون هذا الكذب من القسيسين والمبشرين مما جعلهم يتأثرون به، ويتربون في حال صغرهم على اعتقاده. فهذا التأثير والتأثر قد أُشربت به قلوبهم حتى صار لهم طريقة وعقيدة، فهو أكبر صارف يصرفهم عن الإسلام، وعن التصديق بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام. والأمر الثاني: هو أن تكذيب أذكياهم، والمفكرين منهم، إنما نشأ عن عدم معرفتهم باللغة العربية، التي هي لغة الإسلام، والتي يعرف بها بلاغة القرآن، لكون القرآن نزل بلسان عربي مبين.

فبلاغة القرآن بلغته، ومعرفة أحكامه وحكمته، وعموم هدايته ومنفعته، وذوق حلاوته، كل هذا إنما يدرك عن طريق لغته كقوله سبحانه: ﴿كِتَبٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ وَقُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ] [فصلت: ٣-٤].

إن عدم معرفة الأمم باللغة العربية التي هي لغة القرآن هو أكثف حجاب يحول بينهم وبين اعتناق الإسلام واعتقاده، والتصديق بالرسول وبالقرآن النازل عليه.

أما ترجمة القرآن الموجودة بأيدي النصارى الآن - وقد تُرجم عدة تراجم - كلها ليست بالقرآن، وتبعد جدًا عن بلاغة القرآن، وفيها الشيء الكثير من الخطب والخلط، الخارج عن معاني القرآن فلا تسمى قرآنًا. وإنني أنصح عقلاء النصارى المستقلة أفكارهم، بأن يوجهوا عنايتهم

ورغبتهم إلى تعلم اللغة العربية، فإن تعلمها يعد من الأمر الواجب على كل أحد، وخاصة من يرغب في الدخول في الإسلام، وبها يعرف أحكام العبادات من الصلاة والزكاة والصيام، ويتبين له بطريق الواضح أن دين الإسلام هو الدين القويم، ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. لأنه دين سعادة وسيادة وسياسة، صالح لكل زمان ومكان. قد نظم حياة الناس أحسن نظام، بالحكمة والمصلحة والعدل والإحسان والإتقان. فلو أن الناس آمنوا بتعاليم دين الإسلام، وانقادوا لحكمه وتنظيمه، ووقفوا عند حدوده ومراسيمه، لصاروا به سعداء؛ لأنه يهدي للتي هي أقوم.

إن كثيرًا من أذكىاء النصارى قد تغيرت أفكارهم بعدما تعلموا اللغة العربية، فظهر لهم من فضل الإسلام وصدق القرآن ما خفي على سلفهم. لهذا أخذوا يدعون قومهم إلى الرجوع إلى الإسلام، وإلى العمل بما شرعه من الأحكام، لكونهم أصبحوا فوضى حيارى ليس لهم دين يعصمهم، ولا شريعة تنظمهم، وقد كثر الداخلون في الإسلام في هذا الزمان وأخذوا يزدادون في الدخول عامًا بعد عام.

إن تعلم اللغة العربية أصبحت ضرورة من ضروريات النصارى الاجتماعية. وفيها لهم مصلحة مفيدة فيما يتعلق بالكسب ووسائل الحياة، لكثرة اختلاطهم بالعرب المسلمين في بلادهم، وشدة حاجتهم إلى التخاطب معهم. كما أن العرب المسلمين لما احتاجوا إلى التعامل معهم فيما يتعلق بالتجارة والصناعة والطب أخذوا يعلمون أولادهم لغتهم لداعي الضرورة والحاجة إلى ذلك، كما علم النبي ﷺ زيد ابن ثابت اللغة العبرانية لحاجته للتخاطب مع اليهود.

ولقد انتشر الإسلام في بداية نشأته لانتشار اللغة العربية في البلدان الأجنبية، فعرفوا بها حقيقة أحكام الإسلام، وبلاغة القرآن، وأنه دين الحق القويم، الذي نظم حياة الناس أحسن تنظيم. وبذلك دخل الناس في دين الله أفواجًا أفواجًا، طائعين مختارين. وسيكثر الداخلون فيه من شتى الأمم ولو بعد حين، والعاقبة للمتقين.

إن النجاشي ملك الحبشة وأحد ملوك النصارى القدماء كان عارفاً باللغة العربية من أجل مجاورته لبلدان العرب، فقرأ عليه جعفر بن أبي طالب صدر سورة مريم، فجعلت عيناه تذرّفان من البكاء خشوعاً وخشية لله، لحسن ما سمعه من كلام الله. فلما فرغ من قراءتها أخذ عوداً فرفعه ثم قال: إنه لم يزد على ما جاء به عيسى ولا مثل هذا العود. فأخذت بطارفته ينخرون استنكاراً واستكباراً لقوله، فقال: وإن نخرتم وإن نخرتم، اذهبوا فأنتم سيوم^(١) بأرضي، من رامكم بسوء غرم. وأنزل الله في فضله وتصديقه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ۝﴾ [الائدة: ٨٣-٨٤].

قرأنا يتلوه المسلمون في صلاتهم وخارج الصلاة، يشيد بفضل النجاشي وسبقه إلى الإسلام، وإيمانه بالقرآن، ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام. وإن هذا التأثير والتأثير من النجاشي بسماع القرآن قد حمله على الدخول في الإسلام، حتى صلى عليه النبي ﷺ وأصحابه بعد موته.

إن أعداء الإسلام قد شوهوا سمعة الإسلام، وألبسوه أثواباً من الزور والبهتان، ومن التدليس والكتمان، حيث وصفوا الإسلام بأنه دين تكاليف شاقة وأغلال، وبأنه دين حرب وقتال، وأنه إنما انتشر بالسيف والإكراه، وأن أهله يعرضون الشخص على السيف، ويقولون له: إما أن تسلم وإلا قتلناك. ونحو ذلك من الأقوال البعيدة عن مواقع الصدق في المقال، وقصدوا بها صد الناس عن الدين. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٢٦]. ولا عجب فهم أعداؤه وقد تحاملوا عليه بالطعن فيه لصد الناس عنه، وقد قيل:

فإذا ترى فيك العدو يقول

صديقك لا يثني عليك بطائل

والحق أن الإسلام إنما انتشر بالقرآن، وأنه فتح من البلدان أكثر مما فتح بالسيف والسنان، وأن السيف بمثابة الناصر له في كف الأذى عنه والعدوان. وفي محكم القرآن ما يدل على منع الإكراه في الدين، يقول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وقال: ﴿قَدْ كَرِهَ اللَّهُ لَكَ ذِكْرًا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. أي لست بمسلط على إدخال الهداية في قلوبهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. وقد سن رسول الله ﷺ طريقة الفتح للبلدان بفتحها لمكة عنوة. ولما فتحها قال لأهلها: «اذْهَبُوا فَإِنَّتُمْ الطُّلُقَاءُ»^(١). وسموا في ذلك اليوم الطلقاء ولم يوقف واحدا منهم لإلزامه بالدخول في الإسلام، بل أبقاهم على حالهم حتى دخلوا في الإسلام باختيارهم، لكون القصد من الجهاد هو إعلاء كلمة الله، وإظهار دينه، وقد حصل ذلك. والإسلام هداية اختيارية، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الفصص: ٥٦].

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من حديث أبي هريرة.

(٩)

القوانين وسوء عواقبها على الدين

الحمد لله الذي وفق من أراد هدايته إلى الإسلام، فانقادت للعمل به الجوارح والأركان،
وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من قال: ربي الله ثم استقام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد
الأنام، اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فاعلموا رحمكم الله، أن نعم الله على العباد كثيرة وأجلها وأعظمها الهداية إلى الإسلام،
وتحكيم شريعته وحدوده وحقوقه بين سائر الأنام، فقد أفلح من هدي إلى الإسلام.
إن الله سبحانه أنزل كتابه الحكيم، وبعث نبيه محمداً الصادق الأمين ﷺ رحمة للعالمين،
وحجة على الخلق أجمعين، فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:
١٣]. فجاء رسول الله ﷺ بشريعة سمحة سهلة، مهيمنة على جميع الشرائع قبلها، فهي خاتمة
الشرائع، كما أن محمداً رسول الله ﷺ هو خاتم النبيين، ورسول الله إلى الخلق أجمعين، وقد جاء
بدين كامل وشرع شامل صالح لكل زمان ومكان، قد نظم حياة الناس أحسن نظام، بالحكمة
والمصلحة والعدل والإصلاح والإحسان، فلو أن الناس آمنوا بتعاليمه، وانقادوا لحكمه
وتنظيمه، ووقفوا عند حدوده ومراسيمه، لصاروا به سعداء؛ لأنه يهدي للتي هي أقوم. وقد سماه

الله شفَاءً لعلاج أسقام العقائد، وإزالة الشُّبه والشكوك، وسوء الطرائق، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ففي نظام شريعة الإسلام حل مشاكل سائر الناس، وكل ما يتنازعون فيه؛ لأن الله سبحانه قد نصب الشريعة لعباده في الدنيا بمثابة الحكم العدل تقطع عن الناس النزاع، وتعيد خلافهم إلى مواقع الإجماع. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

واتفق العلماء على أن الرد إلى الله، هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إلى سنته، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

ففي شريعة الإسلام حل جميع ما يحتاج إليه الناس، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ففي الشريعة أحكام البيع والشراء، والأخذ والعطاء، والوقف والوصية، وقسمة التركات. وفيها العهد والأمان، والحرب والسلام، والنكاح والطلاق، والقصاص وأحكام الجروح والشجاج. وفيها تحريم الربا والزنا وشرب الخمر، وإقامة الحدود التي هي من أسباب تقليل فشو الجرائم، وفي الشريعة الحث على كسب المال من حله، ثم الجود بواجب حقه؛ من أداء زكاته، والصدقة منه. وفيه بيان فضل حفظه بنائه، وتحريم تبذيره، وفضل التجارة المباحة.

وبالجملة فإن الشريعة الإسلامية كفيلة بحل مشاكل العالم، بحيث يسود العاملين بها سر بال الأمن والإيمان، والسعادة والاطمئنان، وهذا هو حقيقة ما وصى به النبي ﷺ أمته، حيث

قال: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ»^(١).

وقال: «ما نقض قوم عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم شديدًا»^(٢) وهذا أمر واضح يشهد به الواقع المحسوس.

هذا وإن لسلطان الدين السيطرة الفعالة على قلوب الناس، وخاصة المؤمنين، بحيث يزعمهم إلى الفرائض والفضائل، ويردعهم عن منكرات الأخلاق والرذائل، فهم يخضعون لسلطان شريعة الدين، سامعين مطيعين، فمتى قيل للخصم اللجوج: هذا حكم الله؛ وقف على حده وقنع بحقه، وعرف حينئذ أنه لا مجال للجدل بعد حكم الله. فلا يجادلون فيه بعد وضوح صبحه، وبراهين صحته، فالمحكمة الشرعية المبنية على أساس العلم والعدل، والسياسة الحكيمة، هي أكبر معين للحاكم وللرئيس، على سيادة رعيته، وسياسة مملكته، لكون حكم الشرع يوقف الخصم اللدود على حده، ويقنعه بحقه، وإنما سمي دينًا، من أجل أن الناس يدينون به، أي يخضعون لحكمه، كما سميت شريعة، لكون الناس يشربونها ويشربون منها، ثم ينصرفون راضين بها، ولأنها مقتبسة من شرع الله ورسوله، ولهذا نرى البلدان التي يُحكم فيها بشريعة الإسلام، والتي تُقام فيها الحدود، ويُستوفى فيها الحقوق، نجدها آخذة بنصيب وافر من الإيمان، والسعادة والاطمئنان، آمنة من الزعازع والافتتان، والصد يظهر حسنه الصد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، بخلاف البلدان التي تحكم بالقوانين التي هي شريعة الكافرين نرى أهلها من أسوأ الناس حالاً، وأشدّهم اضطراباً وزلزلاً، قد ابتلوا بفنون من الفتن والاضطراب، وعدم أمن الجنب، إلى حالة كثرة القتل والنهب، وحرق الحوانيت المملوءة بالأموال، واختطاف النساء والغلمان، وهذه الأعمال تزداد عامًا بعد عام، كلها نتيجة أو عقوبة عزل شريعة الدين، والرضا

(١) رواه الحاكم من حديث أبي هريرة قال: خطب المصطفى ﷺ الناس في حجة الوداع... فذكره.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس.

بحكم القوانين، التي هي آراء شرعها قوم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩]. وهي مبنية على عزل الدين عن الدولة، تبيح للناس ما حرم الله عليهم من الربا والزنا وشرب الخمر، أي أنها لا تعاقب على هذه الأعمال، وتحكم بصحة ما يترتب عليها من الهال الربوي، والمكتسب من القمار، لكون الرضا بهذه الأعمال المحرمة، هي شريعة المتعاقدين، حتى ولو خالفت شرع الله ورسوله، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. ترفع سلطان الولي عن موليته، وتبيح لها أن تتصرف بنفسها كيف شاءت، غير محجور عليها في نفسها، تبيح لكل ملحد كافر أن يجهر بعقيدته وكفره، غير محجور عليه في أمره ولا رأيه.

والشريعة الإسلامية مبنية على حماية الدين والأنفس، والأموال والعقول والأعراض، فهي تهذب الأخلاق وتطهر الأعراق، وتزيل الكفر والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق. وقد قال رجل من حكماء النصارى اسمه هربرت سبنسر قال: إن آداب الأمم وفضائلها التي هي قوام مدنيته مستمدة كلها من الدين، وقائمة على أساسه، وإن بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين، وجعلها على أساس العلم والعقل، وإن الأمة التي يجري فيها هذا التحويل لا بد أن تقع في فوضى أدبية لا يعرف عاقبتها ولا يحد ضررها.

ومن عادة محاكم القوانين تمديد الخصومة بالنقض والإبرام، للحصول على ما يترتب عليها من المدعي والمدعى عليه، فمن أجل كثرة التردد والتلديد يحدث بين الناس القلق والاضطراب.

وليعتبر المعتبر بالبلدان التي أُغْلِقَتْ فيها محاكم شريعة الدين، وفُتِحَتْ فيها محاكم القوانين، كيف حال أهلها، وما دخل عليهم من النقص والجهل والكفر وفساد الأخلاق والعقائد والأعمال، حتى صاروا بمثابة البهائم يتهارجون في الطرقات، لا يعرفون صيماً ولا صلاة، ولا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون من قبيح، ولا يهتدون إلى حق، لهذا صار المحبون لها هم أشد الناس سخطاً عليها وبغضاً لها؛ لأنهم ذاقوا مرارتها، وعرفوا مضرتها،

ولن تجد شخصاً مسلماً يحبها، أو يرضى بها إلا أن يكون مجبوراً عليها، أو أن له غرضاً بإضرار خصمه.

لقد مكث المسلمون ثلاثة عشر قرناً يتحاكمون إلى الشريعة الإسلامية، ويعتزون بها، وحكام المسلمين وسلاطينهم يسمون أنفسهم عبيد الشرع، كما قال صلاح الدين الأيوبي لرجل شكى إليه: لقد نصبت قضاة الشرع ليحكموا لك، أو عليك، وما أنا إلا عبد للشريعة أنفذ حكمها.

وقد فتحت محاكم القوانين في البلدان الإسلامية والعربية رغماً عن أهلها، وذلك أن النصارى لما كانت لهم السلطة والسيطرة على بلدان المسلمين العربية، وكانوا يحبون كون الناس على دينهم، ففتحوا محاكم القوانين بالرغم من المسلمين. ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وعلى أثر فتح محاكم القوانين في بلدان المسلمين، واستمرار التحاكم إليها، قد وقع بالناس ما حذرهم منه نبيهم ﷺ حيث قال: «وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهَمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدًا»^(١) وصدق الله ورسوله، وهذا الحديث بمثابة الصبح الساطع، والبرهان القاطع، وخير الناس من وعظ بغيره، فقد رأينا الذين استبدلوا القوانين الوضعية بدلاً عن المحاكم الشرعية، رأيناهم من أسوأ الناس حالاً وأبينهم ضلالاً، وأشدّهم اضطراباً وزلزالاً، وصاروا جديرين بزوال النعم، والإلزام بالنقم؛ لأن دين الإسلام منجاة عن الغرق في الفوضى والشقاق، وبمثابة سفينة نوح، من لجأ إليها نجا، ومن تخلف عنها غرق.

وقد عُرف بالتجربة أن القوانين الوضعية منصوبة لسلب أموال الناس، وإماتة حقوقهم وحدودهم، فهم معها دائماً بين إبرام ونقض، وحكم واستئناف، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس.

إن أعداء الإسلام قد شوهوا سمعة الإسلام، وألبسوه أثوابا من الزور والبهتان، والتدليس والكتبان، فوصفوه بالقدم، وكونه لا يتلاءم الحكم به مع القرن العشرين، وأن شرائعه تكاليف شاقة، وأنه ينبغي عزل الدين عن الدولة، ونحو ذلك، مما يقولون ويأفكون، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

ولا عجب فإن القائلين بهذا هم أعداء الإسلام، الذين يحاولون هدمه، ودعوة الناس إلى الخروج عليه ﴿يُرِيدُونَ لِيُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

صديقك لا يشني عليك بطائل فإذا ترى فيك العدو يقول

إن أكبر ما ينقم أعداء الإسلام على الإسلام، كونه يحكم بالقصاص بقتل القاتل، وقطع يد السارق، وجلد شارب الخمر، وينسبون هذه الحدود إلى الوحشية، وهي شكاة قد ذهب عنا عارها، ما هي إلا بمثابة التجريح والتقطيع لبعض أجزاء الجسم في سبيل إصلاح بقيته، لكون المضار الفردية تغتفر في ضمن المصالح العمومية، وإقامة هذه الحدود، هي الدواء الوحيد في تقليل الجرائم التي تغص بها السجون، فهي تغني عن الكثير من الحرس والجنود ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢]. لكن هؤلاء نسوا ما صنعوا من القنبلة الذرية التي تقضي بفناء الملايين من الآدميين، ما بين شيوخ ونساء وحوامل وبهائم، وتفسد الحرث والنسل، فهذه - والله - هي الأخلاق الوحشية، لا الحدود الدينية.

لقد مكث المسلمون ثلاثة عشر قرناً ودستورهم القرآن والسنة التي هي سفر السعادة، وقانون العدالة. قد فتحوا المحاكم الشرعية في سائر مشارق الأرض ومغاربها، يتحاكم جميع الناس من المسلمين والكفار إليها؛ لأن شريعة الإسلام كافلة لحل جميع مشاكل العالم، ما وقع في هذا الزمان وما سيقع بعد أزمان. فلا تقع مشكلة ذات أهمية إلا وفي الشريعة الإسلامية طريق حلها، وبيان الهدى من الضلال فيها، كما أنه لا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما

يدحضها، ويبين بطلانها، لكنه لما ضعف الإسلام في هذا الزمان، وضعف عمل الناس به، وساء اعتقادهم فيه، صار فيهم منافقون يدعون إلى نبذه، وإلى عدم التقيد بحدوده وحكمه، ويدعون إلى تحكيم القوانين بدله ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البائدة: ٤١].

وفات على هؤلاء أن أساطين حكام المسلمين من الصحابة والتابعين، وكذا خلفاء بني أمية، وبني العباس، ونور الدين، وصلاح الدين، وغيرهم من حكام المسلمين الفاتحين، إنما شاع لهم الذكر الجميل والثناء الحسن، والتمكين في الأرض، واتساع الفتوح، كله من أجل تمسكهم بالدين، وتحكيم شرائعه بين الناس أجمعين، وصدق عليهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وإنه من الجائز شرعاً والواقع عرفاً، إبدال قاض بقاض أحسن منه، أما إبدال شرع الله الحكيم بشريعة القوانين، فإنه حرام بإجماع علماء المسلمين. وإن حكام المسلمين والزعماء العاقلين، في هذا الزمان لما عرفوا مضار القوانين، وكونها تبعدهم عن الدين وتوقعهم في الفتن والاضطراب، وفي الفوضى والشقاق وفساد الأخلاق، وكونها فرقت شملهم وفلت حدهم وأفسدت مجتمعهم، لهذا أخذوا يتداعون إلى الرجوع إلى أخلاق دينهم، وتحكيم شريعة الإسلام فيما بينهم، يتداعون بهذه عند مناسبة اجتماعهم، وتبادل آرائهم في علاج عللهم، فيما يصلح مجتمعهم، وسيكون لهذا التداعي تجاوب ولو بعد حين، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَیْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. ولن أنسى في هذا المقام، مقالة ذلك الإمام - أي مالك بن أنس - عليه الرحمة والرضوان حيث قال: والله لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

فهذه نصيحتي لكم، والله خليفتي عليكم ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

فأفيقوا من رقدتكم، وتوبوا من زللکم، وتمسکوا بدينکم، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَإِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

(١٠)

عُرْبَةُ الْإِسْلَامِ

وَفَسَادُ النَّاسِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ

الحمد لله الذي وفق من أراد هدايته للإسلام، فانقادت للعمل به الجوارح والأركان؛ فأقام الصلوات، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وحج بيت الله الحرام. وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة من قال: ربي الله ثم استقام. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الأنام. اللهم صل على نبيك ورسولك محمد، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإنه من المعلوم بمقتضى النصوص وبالواقع المحسوس، أن الناس يزدادون إسرافاً في الرذائل وفي ترك الفرائض والفضائل عاماً بعد عام، وأن للدين إقبالاً وإدباراً، وقوة وضعفاً. فمن إقبال الدين أن تتفقه القبيلة بأسرها، وتتمسك بعزائم دينها، حتى لا يكون فيها إلا الفاسق أو الفاسقان، فهما مقهوران ذليلان إن تكلما قُمعاً. وإن من إدبار الدين أن تجفوا القبيلة بأسرها، وتنحل عن عزائم دينها، وتفسق عن أمر ربها، حتى لا يكون فيها إلا الفقيه أو الفقيهان، فهما مقهوران ذليلان.

وإن صفوة الأمة هم أصحاب النبي ﷺ الذين هم أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، ثم التابعون لهم بإحسان الذين تلقوا العلم عنهم فهم من خير الناس بعدهم؛ لما في الصحيحين عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - لا أدري أذكرهم مرتين أو ثلاثة - ثم يجيء قوم يشهدون ولا

يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون، يندرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»؛ أي من أجل غرقهم في الترف وسائر الأكل المسمن للجسم. وفي رواية: «تَسْقِ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ. وَيَمِينَهُ شَهَادَتُهُ»^(١) وهذا مما يدل على فساد الناس في آخر الزمان، كما يشهد به الواقع المحسوس.

ويدل له ما روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَلَا أَوَّلَ، ثُمَّ تَبْنَى حُفَالَةً» وفي رواية: «حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ، لَا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَةً»^(٢).

ومن المعلوم أنه متى ذهب الصالحون المصلحون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؛ فإنه يخلو الجو للفاسدين الفاسقين، فيبيضون ويصفرون. ومن أشرط الساعة أن يذهب العلم ويفيض الجهل، كما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا، يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». ولهذا حث النبي ﷺ على التمسك بسنته أي بدينه عند فساد أمته. وقال في حديث العرباض بن سارية: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَصُوا عَلَيْهَا بِالتَّوَّاجِدِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان. وقال الترمذي: حسن صحيح. ويدل له ما رواه ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «التمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد». رواه البيهقي والطبراني.

وقد سماه النبي ﷺ بأيام الصبر وقال: «إِنْ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامُ الصَّبْرِ، الْقَابِضُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» قالوا: كيف يكون له أجر خمسين منا؟ قال: «إِنْكُمْ تَجِدُونَ عَلَى الْحَقِّ أَعْوَانًا، وَهُمْ لَا يَجِدُونَ». رواه الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني.

إن أكثر الناس في هذا الزمان يتسمون بالإسلام وهم منه بعداء، ويتحلون بأنهم من أهله وهم له أعداء، يعادون بنيته، ويقوضون مبانيه. لم يبق معهم منه سوى محض التسمي به،

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) رواه البخاري من حديث مرداس الأسلمي. وأحمد في مسنده.

والانتساب إليه بدون عمل به ولا انقياد لحكمه. فترى أكثرهم لا يصلون الصلوات الخمس المفروضة، ولا يؤدون الزكاة الواجبة، ولا يصومون رمضان، ويستحلون الربا وشرب الخمر، فهم في جانب والإسلام الصحيح في جانب آخر، فهؤلاء أكثر الناس، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقد قيل: الركب كثير، والحاج قليل.

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم والله يعلم أي لم أقل فندا
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

يقول بعض الناس: إن الدين إذا فسد العمل به صار آلة ضعف وانحطاط، ونحن نقول: إنه متى فسد العمل بالدين فلا دين، كما أنها متى فسدت الصلاة فلا صلاة. ومتى فسد الصيام فلا صيام، لكون الدين عند الإطلاق ينصرف إلى الدين الصحيح.

إن الصنعة لا تعد صنعة حتى يصاب بها طريق المصنع

فمتى أفسد الناس الدين بترك أوامره، وارتكاب نواهيه، فقد خرجوا عن حده، واستبدلوا ضده، وكانوا بهذا الانقلاب جديرين بالضعف والانحطاط؛ لأن ذنوب الجيش جند عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فكل ضعف حصل بالمسلمين فبسبب ما ضيعوا من تعاليم الدين حتى التنازع والاختلاف والقتال بين حكام المسلمين، فكلها ذنوب تورث الضعف والذل وحلول الفشل.

ولضعف الدين عوامل عديدة تساعد على ضعف الناس منها: قول عمر بن الخطاب: إنه يفسد الإسلام ثلاثة أشياء: الأئمة المضلون، وزلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن^(١). وروى مسلم عن ثوبان أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ».

والخطر المخوف من زلة العالم هو الاغترار به فيها ومتابعته عليها؛ إذ لولا التقليد والاتباع لما خيف على الإسلام وأهله من زلته، وكان ابن عباس يقول: ويل للأتباع من عثرات

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة عن عمر بن الخطاب.

العالم^(١). وقد شبهوا زلته بغرق السفينة يغرق بغرقها الخلق الكثير. كما أن الأئمة المضلين هم أمراء الناس الذين تنكبوا الطريق المستقيم، وتركوا شريعة القرآن الحكيم وسنة رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم، واستبدلوا بها شريعة القوانين فتبعهم الناس على ضلالهم، ووافقوهم على فسادهم واستبدادهم. والناس غالباً على طرائق ملوكهم في الخير والشر، ومتى فسد الراعي فسدت الرعية.

ومنها دنيا تقطع أعناق الناس، حتى تجعلهم كالميتين عن مصالحهم الدينية، وعما يوجب قوتهم واستقامتهم، والاستعداد للجهد في سبيل الله؛ لأن شغفهم بلذاتهم المادية قد شغلهم عن الأمور الدينية فلأجل حبها صارت هي الجيش الغازي بلاد الإسلام في هذا العصر، وكأنها الكافلة لأعداء الإسلام بالفتح والنصر بغير جموع ولا جنود، وبغير دفاع ولا امتناع، طبق ما روى الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، عن ثوبان أن النبي ﷺ قال: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أَقْفٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا». قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بَنَّا يَوْمَئِذٍ قَالَ «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غَنَاءً كَغَنَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ». قَالَ قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ قَالَ «حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ». وكل ما كان أصلاً للفساد فإنه يكون سبباً لدخول الضعف منه على العباد.

وكل كسر فإن الدين يجبره وما لكسر قناة الدين جبران

فهذا الضعف الحاصل بالمسلمين ليس من الدين وإنما حصل بسبب ما ضيعوه من تعاليم الدين.

ثم إن الضعف والغربة في الدين لا يلزم أن تدوم، بل قد تقع ثم تزول، إذ هي وصف عارض، كالأعراض الطبيعية. وربما صحت الأبدان بالعلل.

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت وابتلى الله بعض القوم بالنعم

(١) أخرجه البيهقي في المدخل عن ابن عباس.

فقد يعود الإسلام إلى قوته وفيه من غربته، كما اشتد ضعفه وغربته زمن وفاة النبي ﷺ حتى ارتدت العرب عنه، ولم يبق مسجد يصلّى فيه إلا مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد عبد القيس بجواثي أي الأحساء، ولهذا يقول شاعرهم:

والمسجد الثالث الشرقي كان لنا والمنبران وفصل القول والخطب
أيام لا منبر للناس نعرفه إلا بطيبة والمحجوج ذي الحجب

وعلى أثر هذا الضعف، وهذه الغرب جاهد الصحابة في الله حق جهاده حتى استعادوا قوة الدين ونشاطه.

فقول النبي ﷺ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة، ورواه الإمام أحمد، وابن ماجه من حديث ابن مسعود، وفيه: قالوا: «يا رسول الله من الغُرَبَاءِ؟ قَالَ: «الزُّنَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ»». وفي رواية قال: «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ». وفي رواية قال: «هَمُّ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدِي مِنْ سُتِّي».

وقد اتخذ الناس هذا الحديث بمثابة التحذير للهمم، والتخذيل للأمم، بحيث يتخذونه بمثابة العذر لهم عن القيام بما أوجب الله عليهم من الجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ولأئمة المسلمين وعامتهم، حتى كأن الرسول - بزعمهم - قصد بهذا الحديث الاستسلام لهذا الضعف المفاجئ للمسلمين وهذه الغربة في الدين.

وإن هذه الغربة تقع في مكان دون مكان، وفي زمان دون زمان. فمثل الرسول ﷺ في الإخبار بها كمثل خريت الأسفار، يخبر قومه بمفاوز الأقطار، ومواضع الأخطار، ليتأهبوا بالحزم، وفعل أولي العزم من وسائل التعويق، ويحترسوا بالدفاع لقطاع الطريق، كما في صحيح مسلم من حديث ابن عمر قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من يصلح جشره، ومنا من ينتضل، إذ نادى منادي رسول الله: الصلاة جامعة. قال: فاجتمعنا، فقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ

وَيُنْذِرُهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَإِنَّ أَمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيَرْتَقِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا». يعني الآخرة شر من الأولى.

فالعاقل لا يستوحش طرق الهدى من قلة السالكين، ولا يغتر بكثرة الهالكين التاركين للدين، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقد ثبت في الصحيح أنه: «لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»^(١). وإن الله سبحانه «لا يزال يغرس لهذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته»^(٢)، ينفون عن الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(٣). و: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(٤).

ومنها ما روى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أُمِّي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ».

فكل هذه الآثار تدل دلالة واضحة على تقلب الأحوال، وأن الدين محفوظ عن الزوال، لا يزال باقياً دائماً حتى تقوم الساعة، فمن ظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة فقد ظن بالله السوء، ولكن المصارعة لا تزال قائمة بين الحق والباطل، والعاقبة للمتقين.

والدين منصور وممتحن فلا تعجب فهذي سنة الرحمن

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

﴿وَلِيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

(١) متفق عليه من حديث معاوية.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، جميعاً من حديث أبي عتبة الخولاني.

(٣) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، والحاكم في المستدرک.

(٤) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة.

(١١)

فضل العلم وتعلّمه وتعليمه

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. اللهم صل على نبيك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فإن الله سبحانه خلق الإنسان وعلمه البيان، وجعله بالنطق، وشرفه بالإيمان، وفضله بالعلم والعقل على سائر الحيوان، أوجد الإنسان من العدم لا يعرف شيئاً، فيسر له أسباب العلم والعرفان، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقد بالغ الإسلام في الحث على العلم وتعلمه وتعليمه وتوجيهه إليه، لكون الإنسان مهما كان فإنه لا يقوى ولا يرقى إلا بالعلم، وكما قيل:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له والجهل يهدم بيت العز والشرف

فإن شرف العلم وفضله هو بشرف مدلوله وما يؤول إليه، فالعلم الممدوح في القرآن هو علم الدين: كالعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ثم العلم بالأحكام وأمور الحلال والحرام، ثم العمل به. فمن عمل بما علم، أورثه الله علم ما لم يعلم.

أما من لم يعمل بعلمه؛ فقد قالوا: إنه يعذب مع عبدة الأوثان، وأنشدوا:

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

ورأس العلم: خشية الله. أما المعارف بأمر الدنيا فليست من العلم الممدوح في القرآن؛ لدخولها في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ (٧). [الروم: ٧].

لكن يمدح منها تعلم ما لا بد منه للمسلمين من حاجة، كتعلم السلاح، وسائر وسائل القوة مما ينكى به العدو. فقد ورد أنه «يُدْخِلُ الْجَنَّةَ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ صَائِعَةٍ مُحْتَسِبًا بِصَنْعَتِهِ، وَالْمَدِّ بِهِ، وَالرَّامِي بِهِ»^(١).

وقد أوجب العلماء تعلم ما يحتاج إليه الناس في حياتهم من سائر الصناعات المباحة، كالحدادة والنجارة والحياكة والزراعة. وإن الناس متى تركوا تعلم هذه الأشياء أثموا. وعدوا من الصدقة أن تعلم جاهلاً، أو تصنع لأخرق. ومثله الممدوح في القرآن فإنه ينصرف إلى العقل الديني الذي يعقل صاحبه على الفرائض والفضائل، ويردعه عن منكرات الأخلاق والرذائل، أو لكونه يعقل عن الله مراده وأمره ونهيه، كما قيل.

والعقل في معنى العقل ولفظه فالخير يعقل والسفاه يحمله

أما العقل المقصود على الحذق في الدنيا، ومعرفة أسبابها وطرقها، فليس له من ذكر عند الله، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥٨). [البائدة: ٥٨]. فنفى الله عنهم العقل الصحيح؛ لعدم إجابتهم لنداء الصلاة الذي هو نداء إلى الفلاح والفوز والنجاح بخير الدنيا والآخرة. وقد حث النبي ﷺ على تعلم العلم النافع مما يتعلق بأمر الدنيا والدين. فقال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢) وهذا الثواب والأجر يحصل لمن سلك طريقاً إلى جامعة أو مدرسة بنية خالصة لله، لتعلم مبادئ العلوم والكتابة، فيتعلم ويعلم غيره، لأن العلم بالتعلم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي والطبراني في الكبير، وابن خزيمة في صحيحه، جميعاً من حديث عقبة بن عامر الجهني.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾
[الزمر: ٩]. وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾
[المجادلة: ١١].

ولا يزال القرآن يطالب أهله المؤمنين به بأن يتلقوا العلم من كل مَنْ جاء به ممن هو دونهم
أو فوقهم؛ إذ قد يخفى على العالم الفاضل ما عسى أن يظهر للمفضول ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
عِلْمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. لكون العلم دليل الحجة والبرهان.
فطلب العلم عبادة، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة. ومن أنواع الصدقة: أن
تعلم جاهلاً، أو تصنع لأخرق.

ومن كلام علي رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن من العلم. وهذه الكلمة غاية في
البلاغة وفي الحث على العلم، وأن من لا علم عنده فإنه كاسد لا قيمة له ويوصف بالجاهل
وبالساذج. وقد أخذ هذه الكلمة بعض الشعراء فأنشد:

حسود مريض القلب يخفي أنينه	ويضحى كئيب البال عندي حزينه
يلوم على أن رحت للعلم طالباً	أجمع من عند الرواة فنونه
فأعرف أبكار الكلام وعونه	وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يكسب الغنى	ويحسن بالجهل الذميمة ظنونه
فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي	فقيمة كل الناس ما يحسنونه

إن أول ما أنزل الله في كتابه الامتنان بتعليم الكتابة؛ التي هي مفتاح العلوم والمعارف.
فقال سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ
۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

فهذه الآية تمهد للتوسع في العلم، والاستعانة عليه بالكتابة؛ لأن العلم صيد والكتابة قيده.
وتشير إلى محو الأمية أو تقلييلها. وإنه لمن المعلوم أن رسول الله ﷺ نشأ أمياً لا يكتب ولا يقرأ

المكتوب، وقد سباه الله بذلك. فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأمية الرسول ﷺ هي معجزة من معجزات نبوته؛ لثلاث يتطرق إليه، ولا إلى القرآن النازل عليه شيء من الظنون الكاذبة، والأوهام الخاطئة، بحيث يقولون: تعلمه من كذا، أو كتبه من كتاب كذا وكذا. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطَوْنَ بَيَمِينِكُمْ ۖ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩].

ومع أمية الرسول ﷺ فإنها كانت تنزل عليه السورة الطويلة كسورة الأنعام، فإنها نزلت عليه جملة واحدة فقام حافظاً لها من ساعته بدون أن ينسى حرفاً منها. وهذه الأمية هي من معجزات نبوته ولم تكن من سنته، حيث لم يأمر بها أحداً من أمته. وكان الغالب على قريش زمن بعثته الاتصاف بالأمية، أشبه بالأعراب المتنقلة. وقد سباهم الله بذلك فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

فالقرآن وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام أنشأت العرب نشأة مستأنفة جديدة، فاستبدلوا بأرواحهم الجافية الجاهلية أرواحاً جديدة دينية، جمعت بين الحضارة والمدنية، وبين العلوم والمعارف الدينية، صيّرهم إلى ما صاروا إليه من العز والمجد والعلم والعرفان، فجمعوا بين التدين وبين الإبداع في الحياة من الحضارة والعمران. فكانوا هم العلماء والبلغاء والخطباء. ومن صفة الرسول ﷺ أنه يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بما يهذب أخلاقهم.

وفي وقعة بدر لما أمر النبي ﷺ بالأسرى من بعد الفراغ من القتلى؛ وكان القتلى سبعين، والأسرى سبعين؛ ضرب على كل واحد منهم فداء من نقود الذهب يلزمه أداؤه. فقابل الأغنياء بأداء ما عليهم ومنهم العباس وغيره، وبقي بقيتهم الذين لا يستطيعون الأداء. فأمرهم النبي ﷺ بأن يعلموا الصحابة القراءة والكتابة في مقابلة ما عليهم من الفداء^(١). مما يدل على مجاهدة الرسول ﷺ على محو الأمية، وتعميم التعليم لأصحابه، لكون الأمية نقص في الشخص ما عدا رسول الله ﷺ، فإنها من معجزات نبوته وليست من سنته، حيث لم يأمر بها أحدًا من أصحابه. وضد الأمية العلم، ومن شرف العلم أن كل أحد يدعيه، ومن قبح الجهل أن كل أحد يتبرأ منه، وإن كان قد رسخ فيه. ثم إن الله سبحانه أمر في كتابه بالكتابة، وجعلها من مكملات الشخص وضرورياته، بحيث يحفظ بها حقوقه وماله وما عليه، وتكون كسبًا له في حال عسرتة كما قيل:

تعلم قوام الخط يا ذا التأدب وما الخط إلا زينة المتأدب
فإن كنت ذا مال فخطك زينة ولم تك ذا مال فأفضل مكسب

يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

[البقرة: ٢٨٢].

فهذه الآية المحكمة تحث على الكتابة، وتبين حاجة الشخص والمجتمع إليها، وكل ما أمر الله به في كتابه من مثل هذه الآية فإنها من أحكام ديننا. فيهمال الشهادة على الديون الغائبة، والتفريط في عدم الكتابة، يعتبرها القرآن فسوقاً عن أمر الله، وخروجاً عن طاعته.

وبما أن الحكومة المكرمة قد عملت عملها وبذلت أسبابها، وفتحت أبوابها لتعميم التعليم للقراءة والكتابة لكل الكبار الذين يشتغلون بالنهار ولا يفرغون إلا في أوقات العطل من طرفي النهار أو بالليل. فعملت الحكومة هذا العمل، حرصاً منها على العلم، ومحاولة محو الأمية. لهذا ينبغي للعاقل أن يواظب هذه الفرصة في الحصول على العلم ما دامت الفرصة ممكنة وبابها مفتوح؛ لكون الكتابة من الكمال والفضيلة، كما أن الجهل بها يعد نقصاً ورذيلة. وبعض الناس من كبار الأسنان يستحيي من دخول دار التعليم؛ كأنه يصور نفسه بصورة القاصر وهذا خطأ، فإن العلم لا يناله مستح ولا متكبر، وإنما يوفق له المتدللون المتواضعون، وقد تعلم أصحاب رسول الله ﷺ العلم والكتابة مع كبر أسنانهم.

ومتى حضر وقت الصلاة وهم في دوام الدراسة وجب عليهم أن يبادروا بأداء هذه الفريضة، فإنها نعم العون على ما يزاولونه من العلم والتعلم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فهذه نصيحتي لكم، والله خليفتي عليكم، وأستودع الله دينكم وأمانتكم.

(١٢)

فضل القرآن وتفسير قوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ٢٩]

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، ومن همزات الشياطين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، وحجة على الخلق أجمعين. اللهم صل على نبيك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورُهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

وقال تعالى عن هذا القرآن: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. وقال: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ [فصلت: ٣-٤]. فهو حبل الله المتين، ودينه القويم، ونوره المبين، وصراطه المستقيم، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يمل سماعه، فهو معجزة الدهور، وآية العصور، وسفر السعادة، ودستور العدالة، وقانون الفريضة والفضيلة، والواقى عن الوقوع في الرذيلة، يقول الله تعالى: ﴿...قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ

أَتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦]. فلو تدبر أحدكم كتاب الله وعمل بما فيه من الوصايا الفصيحة، والنصائح الصحيحة، لصار سعيداً في نفسه، سعيداً في أهله، سعيداً في مجتمعه وقومه.

فتلاوة القرآن بالتدبر، وتوطين النفس للعمل به عبادة، وللقارئ بكل حرف عشر حسنات، مع ما يكتسبه من رفيع الدرجات في الجنات، فإنه يقال للقارئ: اقرأ وارق في درج الجنة. وإنما نزل القرآن للعمل به لا لمجرد التغني بتلاوته، والذي يقرأ القرآن ولا يعمل به قد ضرب الله به مثل السوء، أي كمثل الحمار يحمل أسفاراً أي كتباً لا يدري ما فيها. وكما قيل:

زوامل للأخبار لا علم عندهم بمتقنها إلا كعلم الأباع
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وهذه الآية وإن نزلت في اليهود الذين كُلفوا العمل بالتوراة ثم لم يعملوها بها، فإنها منطبقة بالدلالة والمعنى على الذين كُلفوا العمل بالقرآن ثم لم يعملوا به؛ لأن الاعتبار في القرآن يكون لعموم لفظه لا بخصوص سببه، فقوله: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]. هو بمعنى قوله: يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن.

تدبر كتاب الله ينفعك وعظه فإن كتاب الله أبلغ واعظ
وبالقلب ثم العين لاحظه واعتبر معانيه فهو الهدى للملاحظ

وما تلا أحد كتاب الله في بيته إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، وينبسط الرزق ويكثر الخير في ذلك البيت الذي تصلى فيه

النوافل ويتلى فيه القرآن، لقول النبي ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»^(١) أي تهجروها من فعل نوافل الصلاة فيها، وتلاوة القرآن.

ثم إن القرآن يبعث يوم القيامة شافعاً مشفعاً، وماحلاً مصدقاً، من جعله إمامه وعمل بأوامره، واجتنب نواهيه، صار خصماً دونه يقول: يا رب حَمَلْتَهُ إِيَّاي، فخير حامل، حفظ حدودي، وعمل بطاعتي، واجتنب معصيتي. ولا يزال يلقي إليه بالحجج، حتى يدخله الجنة. وإن كان غير ذلك صار القرآن خصماً له يحاجه عند ربه، فيقول: يا رب حَمَلْتَهُ إِيَّاي فبئس حاملاً ضيع حدودي، وترك طاعتي، وارتكب معصيتي. ولا يزال يلقي إليه بالحجج، حتى يقال: شأنك به. فيأخذه ويكرسه على وجهه في نار جهنم.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. وهذا المهجران يُحْمَل على هجر التلاوة، وهجران العمل به، نزلت حيث أصرت قريش على معصية الرسول، وعدم الإصغاء إلى القرآن الذي جاء به. وهو ينطبق على كل من هجر تلاوة القرآن، وهجر العمل به. ورب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه. يتلو قوله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وهو مضيع لها، ويتلو قوله: ﴿وَعَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. وهو يأكلها، ويتلو قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [الملك: ٩٠]. وهو يدمن شرب الخمر صباحاً ومساءً.

إنه يُسْتَحَب تحسين الصوت بالقرآن، لحديث: «حَسِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا»^(٢). وقال: «مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣) والتغني تحسين الصوت، لكون تحسين الصوت به مدعاة إلى الإصغاء والاعتاظ والاعتبار. وقال: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ -أي ما استمع الله لشيء- كإذنه -أي كاستماعه- لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ

(١) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه الدارمي ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة، والحاكم من حديث البراء ابن عازب.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

يَجْهَرُ بِهِ»^(١).

كثيراً ما يقرن سبحانه بين تلاوة القرآن وإقامة الصلاة، كما في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّن تَبُورَ ۖ﴾ [فاطر: ٢٩]. لأن القرآن يذكر بإقامة الصلاة لله. يقول الله تعالى: ﴿أَتُلَّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢-٤].

فقد أوجب الله على أهل الإسلام المؤمنين بالقرآن بأن يقيموا الصلاة المفروضة على التمام، ثم إن التعبير بإقامة الصلاة: هو أكمل وأشمل من التعبير بالإتيان للصلاة، لأن معنى إقامة الصلاة: هي أن تأتي بالصلاة مقومة معدلة بخشوع وخضوع في السجود والركوع، على صفة ما شرعه رسول الله ﷺ بقوله: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(٢) وكثير من الناس يأتي بصورة الصلاة على سبيل العادة لا العبادة، ولا صلاة له لكونه لم يطمئن في ركوعه ولا سجوده، ولم يتم إحكام صلاته. فهذه الصلاة قد أمانتها صاحبها ولم يقمها، فجديرة بأن تلف كما يلف الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها، وتقول: «صَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا صَيَّعَنِي»^(٣).

إن للصلاة ميزاناً توزن به. ولا تسمى صلاة حتى تكون على وفق ما شرعه رسول الله ﷺ في الأقوال والأفعال.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري من حديث مالك بن الحويرث.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف، والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عبادة

بن الصامت بسند ضعيف، ونحوه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.

إن الصنعة لا تعد صنعة حتى يصاب بها طريق المصنع

وميزان الصلاة الشرعي: هو ما بينه النبي ﷺ لذلك الأعرابي المسيء في صلاته حين ساقه الله لتعليم الناس كيفية الصلاة المشروعة. وحاصله ما ثبت في البخاري ومسلم، أن النبي ﷺ كان جالساً في المسجد فدخل رجل أعرابي فصلى، ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». فعل ذلك ثلاث مرات. فقال: والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا، فعلمني. فشرع النبي ﷺ في تعليمه الصلاة المشروعة. وإنه يجب علينا الآن بأن نصغي إلى هذا التعليم بالأذان، وأن نفرغ له الأذهان، ثم نوطن أنفسنا على العمل به على التمام. فإن فائدة الاستماع الاتباع. وقد مدح الله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

لهذا شرع النبي ﷺ في تعليم هذا الجاهل فقال: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الوُضُوءَ». فأمره بإسباغ الوضوء وهو إيصال الماء إلى مواضع الأعضاء؛ لأن مفتاح الصلاة الطهور، ولا يقبل الله صلاة من أحد حتى يتوضأ. وفي حديث ثوبان: أن النبي ﷺ قال: «اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ تَخْضُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(١) والوضوء مأخوذ من الوضاءة وهي النظافة؛ لأن دين الإسلام دين النظافة؛ ثم إن الوضوء يكسب الأعضاء نشاطاً وقوة عند القيام للصلاة، كما أنه سبب في تكفير السيئات.

ثم قال: «ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وَكَبِّرْ». فأمره باستقبال القبلة عند الشروع في الصلاة، لأنها شرط في حق من قدر على ذلك، أما إذا كان في طائرة، أو في سيارة فإنه يصلي حيث توجهت به الطائرة أو السيارة، مستقبل القبلة أو مستدبرها، إذ لا يمكنه إلا ذلك. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴿فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. قال: «فَاسْتَقْبَلِ الْقِبْلَةَ وَكَبِّرْ» وهذا يفيد عدم مشروعيته الجهر بالنية للدخول في الصلاة؛ لأن النية قلبية، كان النبي ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله. كما ثبت ذلك من حديث عائشة أي أنه لا يتلفظ بالنية عند التكبير،

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والدارمي وابن حبان في صحيحه من حديث ثوبان.

ولم تثبت عند أحد من الصحابة ولا التابعين. قيل للإمام أحمد: تقول قبل التكبير: نويت أن أصلي كذا؟ قال: لا. إذ لم ينقل عن النبي ولا عن أحد من أصحابه، ولقد كان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

ومن السنة أن الإنسان إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإنه يضع يده اليمنى على يده اليسرى على صدره، حتى يكون كالأسير الذليل عند ربه، ولأن هذا أعون على حضور قلبه وخشوعه في صلاته: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ٢﴾ [المؤمنون: ١-٢].

قال: «ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» ولم يذكر فاتحة الكتاب، لأن الناس حديثو عهد بجاهلية. وأكثر الأعراب لا يحفظون فاتحة الكتاب، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لا أحسن شيئاً من القرآن في الصلاة، فعلمني. قال: «قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ». قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا لِي قَالُ «قُلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي»^(١).

وأما من يحفظ الفاتحة فإن قراءتها ركن في الصلاة، لقول النبي ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(٢).

قال: «ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعًا». ومعنى تطمئن أي تسكن وتركد في ركوعك، لأن لبَّ الصلاة الخشوع. وأدنى الكمال هو أن يقول الإنسان في ركوعه: سبحان ربي العظيم ثلاث مرات، والسنة أن يساوي رأسه بظهره فلا يرفع رأسه ولا يخفضه. قال: «ثم ارفع» أي من الركوع: «حَتَّى تَطْمِئِنَّ قَائِمًا» أي يعتدل جسمك. ففي الحديث: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقُمْ صُلْبُهُ مِنَ الرُّكُوعِ»^(٣) قال: «ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا». ويجب أن يسجد على سبعة أعضاء: الوجه ومنه الأنف، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين. قال: «ثم ارفع حتى تعتدل جالسًا، ثم افعَل

(١) رواه أبو داود والإمام أحمد وابن حبان في صحيحه والدارقطني من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

(٢) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

(٣) رواه النسائي وابن ماجه والترمذي والدارمي وابن حبان والدارقطني من حديث أبي مسعود الأنصاري.

ذلك في صلاتك كلها» فهذه هي الصلاة المشروعة الجديرة بأن تصعد إلى الله، فتشفع لصاحبها، وتقول: «حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي»^(١) وما نقص من الصلاة الموصوفة منها، فإنه بمثابة الاختلاس. وأسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، فلا يتم ركوعها ولا سجودها.

أما ترك الصلاة بالكلية، فإنه حقيقة في الكفر بمقتضى الدليل والبرهان والسنة والقرآن، فقد قال علماء الإسلام: إنه لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة. وفي صحيح مسلم عن جابر أن النبي ﷺ قال: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة».

أما قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾^(٢) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ^(٣) [فاطر: ٢٩-٣٠]. فكثيراً ما يقرن القرآن بين إقامة الصلاة وبين النفقات في الزكاة والصدقات؛ لأن المسلم بما أنه متعبد بالصيام والصلاة، فإنه متعبد أيضاً بالزكاة والصدقات؛ لأن المال مال الله والله مستخلفه عليه، وناظر كيف يعمل فيه.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]. وقال: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤) [المنافقون: ١٠]. وفي الحديث: «ما طلعت شمس يوم إلا وملكان يناديان: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. اللَّهُمَّ أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً». رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم.

فأثر هذا واقع محسوس، وإن المتصدقين هم أسعد الناس في الدنيا والآخرة، فإنها ما نقصت الصدقة مالا بل تزيده ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٥) [سبا: ٣٩].

فمن رزقه الله من هذا المال رزقاً حسناً، فليبادر بأداء زكاته، ولينفق منه سرّاً وعلناً، حتى يكون أسعد الناس به، فإنها للإنسان ما قدم ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

أسأل الله سبحانه أن يعمننا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(١٣)

هجرة النبي عليه الصلاة والسلام

من مكة إلى المدينة

الحمد لله معز من أطاعه واتقاه، ومذل من أضاع أمره وعصاه، الذي وفق أهل طاعته بما يرضاه، وخذل أهل معصيته، فاستحوذ عليهم الشيطان، وحبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وأنساهم ذكر الله. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

أما بعد: فإن الله سبحانه بعث نبيه محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل، وقد استحكمت في الناس الضلالة، وخيمت عليهم الجهالة، وسادت من بينهم عبادة الأصنام والأوثان والقبور. فأنقذهم الله ببعثته، وبركة رسالته، فجاء بدين كامل، وشرع شامل، صالح لكل زمان ومكان، قد نظم حياة الناس أحسن نظام؛ يهذب أخلاقهم، ويطهر عقائدهم، ويزيل كفرهم وشقاقهم، ويهديهم للتي هي أقوم. وقد لقي رسول الله ﷺ الشيء العظيم من المشاق والمتاعب في سبيل دعوته إلى دين ربه كحالة الأنبياء من قبله، يقول الله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

إن المكارم منوطة بالمكاره، وإن السعادة لا يُعبر إليها إلا على جسر المشقة والتعب، وأخبر النبي ﷺ أن الأنبياء هم أشد الناس بلاء، فقال: «لَقَدْ أُودِيَْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْدِي أَحَدٌ وَلَقَدْ

أَخْفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَى ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلَيْلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَيْدٍ إِلَّا مَا وَارَى إِبْطَ بِلَالٍ»^(١).

إن الله سبحانه لما اصطفى نبيه محمداً ﷺ برسالته وامتن على عباده المؤمنين ببعثته، أي بداية نبوته، أنزل الله عليه ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ^(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ^(٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ^(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ^(٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^(٥)﴾ [العلق: ١-٥]. فهذا هو ابتداء بعثته، وذلك بعد ولادته بأربعين سنة، فالفضل كل الفضل في بعثته التي قال الله فيها: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(٦)﴾ [آل عمران: ١٦٤]. أي أن العرب قبل بعثة محمد ﷺ كانوا في شر وشقاء وضلالة عمياء.

ولما أنزل الله عليه ﴿يَنَّايُهَا الْمُدَّثِّرُ^(١) قُمْ فَأَنْذِرْ^(٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ^(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ^(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ^(٥)﴾ [المدثر: ١-٥]. شمر رسول الله ﷺ عن ساعد الجد، وأعلن دعوته، ومكث بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو بين القبائل وفي المواسم، ويقول: «أَنَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. مَنْ يُؤْيِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟»^(٦). فيلقى من قومه أشد الأذى، ويعذبون كل من آمن به، غير أن من قبيلته وخاصة عمه - أبا طالب - كانوا يحمونه ويذبون عنه العدوان، وقد دخلوا معه في الشعب حين تمالأت قريش على مقاطعتهم حتى يسلموا لهم محمداً، وكتبوا بذلك صحيفة القطيعة والمقاطعة، وعلقوها على الكعبة، وفيها يقول أبو طالب في قصيدته الشهيرة:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجل غير آجل

وقد أخبره ورقة بن نوفل بمقتضى فراسته بأنه سيؤذى ويُمتحن، ويخرج من بلده، فقال: «أَوْخَرَجِيْهِمْ مِنْ بَلَدِي؟» قال: نعم، إنه لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عُودي وأوذى، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفي^(٧).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه وابن حبان من حديث أنس بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه أحمد من حديث جابر.

(٣) رواه البخاري من حديث عائشة.

ثم توفيت خديجة، وكانت تنفق على رسول الله ﷺ من مالها، ثم توفي أبو طالب، شيخ قريش وسيدهم، وكان يحب رسول الله ﷺ أشد الحب ويحميه وينصره، وكانت قريش تتحاشى من أذى الرسول ﷺ خشية أن يغضب أبو طالب فيسلم.

ولما توفي أبو طالب اشتد الأذى برسول الله ﷺ وبمن آمن به، وخاصة المستضعفين من أصحابه كبلال وصهيب وسمية. فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يهاجروا إلى الحبشة. وقال: «**إِنْ فِيهَا مَلَكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ بِجَوَارِهِ**»^(١).

فهاجر إلى الحبشة جماعة من الصحابة، رجال ونساء، فرارًا بدينهم من الفتنة، وبأبدانهم من التعذيب، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، ومنهم الزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب، فخرجوا من مكة يمشون على أرجلهم حتى وصلوا إلى سيف البحر^(٢)، فاستأجروا سفينة وركبوا فيها حتى انتهوا إلى الحبشة، وهذه هي الهجرة الأولى. فأواهم النجاشي وأكرمهم، وقال لهم: أنتم سيؤم^(٣) بأرضي، اذهبوا حيث شئتم، من رامكم بسوء غرم وأثم^(٤). ثم تابعوا إلى الهجرة، وكان عددهم يزيد على الثمانين من بين رجال ونساء.

وكان المسلمون في ابتداء الإسلام مأمورين بالصلاة، والعفو والصفح، والصبر على أذى المشركين، وكانوا يحبون أن يؤمروا بالقتال لينتصروا. وأتى عبد الرحمن ابن عوف وأصحاب له إلى النبي ﷺ وهو بمكة، فقالوا: يا رسول الله، كنا أعزاء ونحن مشركون، فلما أسلمنا صرنا أذلة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ**»^(٥).

(١) انظر: زاد المعاد ج ١ ص ٢٤،

(٢) سيف البحر: أي ساحله.

(٣) سيؤم: أي آمنون.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث جعفر بن أبي طالب.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى من حديث ابن عباس.

فلما أمروا بالقتال كرهه بعضهم، وودوا لو تأخر فرضه عليهم، وأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴿[النساء: ٧٧-٧٨].

فلما اشتد الأذى برسول الله ﷺ وعظم به البلاء، خرج إلى الطائف يطلب من ثقيف النصرة والتأييد والحماية، فلم يجد عندهم قبولاً لدعوته، وأُشْلُوا^(١) عليه سفهاءهم. فكانوا يرمونه بالحجارة ويقولون: ساحر كذاب، حتى أدموا عقبه، فرجع عنهم حزيناً كثيراً حتى أتى وادي نخلة - وهي موضع ميقات أهل نجد - فتوضأ وصلى، ودعا بدعائه المشهور وقال:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي، إِلَى عَدُوِّ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَكَتْهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أَبَالِي، غَيْرَ أَنْ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الْكَرِيمِ الَّذِي أَضَاءَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَأَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَجِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ تَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(٢).

ثم إن رسول الله ﷺ أراد دخول مكة بعد رجوعه من الطائف، فمنعته قريش من الدخول، فأرسل إلى المطعم بن عدي، وقال: «إِنْ قَرِيشًا مَنَعْتَنِي مِنْ دُخُولِ بَلَدِي، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْخُلَ فِي جَوَارِكِ» فَلَبَّى دَعْوَتَهُ، وَأَمَرَ بَنِيهِ وَإِخْوَتَهُ أَنْ يَلْبِسُوا سِلَاحَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَعَدَهُ فِيهِ، فَدَخَلَ مَكَّةَ، وَطَافَ بِالْبَيْتِ وَهُمْ مُحَدِّقُونَ بِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي قَتْلِ بَدْرٍ: «وَاللَّهِ لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَسَأَلْتَنِي هَؤُلَاءِ الْقَتْلَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»^(٣).

(١) أُشْلُوا: أَيِ اغْرَوْا وَدَعَوْا.

(٢) رواه الطبراني من حديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

(٣) أخرجه البخاري من حديث جبير بن مطعم.

وكان جميع عرب الحجاز ونجد مع قريش على حرب رسول الله ﷺ، فلما استجاب الأنصار لدعوته على أن يمنعوه، ويمنعوا كل من هاجر إليهم من أصحابه، مما يمنعون منه أهلهم وأولادهم، وتواثقوا معه على ذلك ليلة العقبة، فعند ذلك أمر رسول الله ﷺ كل من أسلم بأن يهاجروا إلى المدينة، فكانوا يخرجون أرسالاً، ويهاجرون على سبيل الاختفاء من قريش. وكانت قريش يصادرون أموال كل من هاجر منهم، وأنزل الله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]. وهذه هي أول آية نزلت في الإذن بالقتال، لهذا كان قتال رسول الله ﷺ لقريش ولسائر العرب، كله دفاعاً عن الدين، وعن أذى المعتدين.

ولما اشتد الأذى برسول الله ﷺ وتألبت قريش بالعداوة له ولأصحابه، ثم اتفقوا في أن يختاروا من كل قبيلة رجلاً فيضربوه جميعاً بسيوفهم في وقت واحد، حتى يضيع دمه من بينهم. فأطلع الله نبيه ﷺ على كيدهم ومكرهم، وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وعلى أثر هذه الممالة على قتله، حصل مع رسول الله ﷺ تلك الليلة شيء من الخوف من هجومهم عليه، إذ سمع حركة سلاح، فاطلع فقال: «من هذا؟» فقال: أنا ربيعة بن كعب الأسلمي، أحرسك يا رسول الله لتنام. فَقَالَ لَهُ «سَلْ». فَقَالَ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْحُجَّةِ. فَقَالَ: «أَوْغَيْرَ ذَلِكَ». قُلْتُ هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَاعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ». رواه مسلم.

ثم إن الله سبحانه أمر رسول الله ﷺ بالهجرة في شهر ربيع الأول على القول الصحيح، وكان رسول الله ﷺ لا يخطئه يوم إلا ويأتي بيت أبي بكر، إما بكرة أو عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه بالهجرة والخروج من مكة؛ أتى إلى أبي بكر للهجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، فلما رآه أبو بكر قال: «والله ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ» فقال: إنما عندي ابنتاي: عائشة وأسماء، وما ذلك فداك أي وأبي؟ فقال: «إن الله قد أذن لي في الهجرة»

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. فقال: «نعم» فبكى أبو بكر فرحاً، فقال: يا نبي الله، إن عندي راحلتين أعددتهما لهذا الشأن»^(١).

وأخذت أسماء بنت أبي بكر تجهز لهما جهاز السفر، فصنعت سُفرة في جراب، وشقت نطاقها نصفين، فربطت لهما الجراب بنصفه، وربطت أسفل الجراب بالنصف الثاني، فسميت ذات النطاقين من ذلك اليوم.

ثم إنهما استأجرا عبد الله بن أريقط هادياً خريئاً وكان مشركاً على دين قومه، فخرج رسول الله ﷺ على حين غفلة من قومه ولم يعلم بخروجه أحد إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي الودائع التي عند رسول الله ﷺ للناس، وكان رسول الله ﷺ يدعى الأمين، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه، إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته. فخرج رسول الله ﷺ خائفاً مختفياً في صحبة أبي بكر، وعمداً إلى غار ثور - وهو جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة بأن يرعى غنمه بالنهار، ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار؛ لتخفي أثرهما، ويشربان من لبنها، ففعل ذلك.

وخرجت قريش في طلب رسول الله ﷺ وهم يَمرون بالغار ويقول أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى شرك نعله لأبصرنا. ورسول الله ﷺ يقول: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِهُمَا؟»^(٢).

يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

فمكثا في الغار ثلاثة أيام، ثم خرجا منه لسفرهما إلى المدينة، ونظر رسول الله ﷺ إلى مكة وقال: «والله إنك لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت»^(٣) ثم إن

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أنس.

(٣) أخرجه أبو يعلى الموصلي من حديث ابن عباس.

المشركين من قريش ذهبوا في طلبها كل مذهب من سائر الجهات، وجعلوا لمن ردهما، أو رأوا أحدهما مائة من الإبل عن كل واحد منهما، فجاء رجل إلى قوم جُلوس فيهم سراقه بن مالك بن جعشم. فقال: يا سراقه، إني رأيت أسودة^(١) بالساحل، ولا أراها إلا محمداً وأصحابه، فقال سراقه: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً. أريد أن أعمي خبرهما، حتى أفوز بالجُعْل، ثم قمت فدخلت بيتي وأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وأخذت رمحي، وركبت فرسي، فدفعتها حتى قربت منهم فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، حتى إذا قربت منها، إذ سمعت قراءة رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات.

ويقول أبو بكر: يا رسول الله، لقد لحقنا الطلب. ورسول الله ﷺ يقول: «لا تحزن إن الله معنا». فأرسل رسول الله عليه سهماً من سهام الدعاء؛ فساخت قوائم فرسه بالأرض حتى بلغت الركبتين، فخررت عنها. قال: فناديتهم بالأمان، فوقفوا وعرفت حينئذ أنه سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: الله عليّ أن أرد كل من جاء في طلبك، فادع الله لي أن يخرج فرسي. فدعا الله وخرجت فرسه، وصدق في ذلك؛ فكان لا يجيء أحد من الطلب إلا رده، ويقول: قد كفيتم ما هنالك^(٢).

ولما سمع أبو جهل بخبر سراقه بن مالك، أخذ يعنفه ويلومه، حيث لم يردهما. قال سراقه بن مالك مجيباً له:

أَبَاحَكُمُ وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ شَاهِدًا لَأَمُرَّ جَوَادِي حِينَ سَاخَتْ قَوَائِمُهُ
عَلِمْتُ وَلَمْ تَشْكُكَ بِأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ بَرَهَانَ فَمَنْ ذَا يَقَاوُمُهُ

ثم إن رسول الله ﷺ مر بخيمة أم معبد الخزاعية وكانت امرأة بَرْزَة جَلْدَة،^(٣) تحتبي وتجلس بفناء الخيمة، فتطعم وتسقي الناس. فجاء رسول الله ﷺ فسأل: «هل عندك من لحم أو لبن

(١) أسودة جمع قلة لسواد، وهو الشخص.

(٢) متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق.

(٣) امرأة بَرْزَة: عفيفة تبرز للرجال وتتحدث معهم، وهي المرأة التي أسنّت وخرجت عن حد المحجوبات... ومعنى جَلْدَة: صلبة.

نشريه؟» فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك، وقالت: لو كان عندنا من ذلك شيء ما أعوزكم القَرَى^(١) وكان القوم مُرْمِلِينَ مُسْتَتِينَ^(٢) فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة عجفاء في كسر خيمتها، فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» فقالت: هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم. فقال: «هل فيها من لبن؟» فقالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين لي أن أحلبها؟» فقالت: إن كان بها حليب فاحلبها. فدعا رسول الله ﷺ للشاة ومسحها، وذكر اسم الله عليها، فدرت واجترت وتفاجت، ودعا بإناء لها يُرَبِّضُ الرَهْطَ^(٣) فحلب فيه حتى ملأه، فشربوا عللاً بعد نهل^(٤) ثم حلب فيه ثانياً، فغادره عندها، ثم ارتحل. فجاء زوجها أبو معبد، فسألها عن هذا اللبن، فأخذت تخبره خبره وتستقص صفته. فقال: هذا صاحب قريش الذي كانت تطلبه.

وقد قيل في ذلك:

جزى الله ربُّ الناس خيراً جزائه	رفيقين حلاً خيمتي أم معبد
هـما نزلاً بالبر وارتحلابه	فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيالقصي ما زوى الله عنكم	به من فعال لا تجارى وسؤدد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها	فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد ^(٥)

ودخل المدينة بعد الزوال، فتنازعه القوم كلهم يريد أن ينزل عنده، فقال: «سأنزل على بني النجار» أحوال جده عبد المطلب ليكرمهم بنزوله عندهم، فنزل على أبي أيوب الأنصاري.

(١) القَرَى: الضيافة.

(٢) مرملين: أي نفد زأدهم واففقروا... مُسْتَتِينَ: أي مُجْدِين أصابهم القحط والجذب.

(٣) معناه أنه يرويه حتى يُثْقِلَهُمْ فيربضوا فيناموا لكثرة اللبن الذي شربوه، ويمتدوا على الأرض، من ربض بالمكان يربض: إذا لصق به وأقام ملازماً له.

(٤) أي صبوا اللبن على اللبن، وشربوا وشربوا تبعاً حتى رواء، فالعلل: الشربة الثانية، والنهل: الشربة الأولى.

(٥) هذا الحديث بتمامه في الأحاد والمثاني لابن أبي عاصم من حديث أم معبد وأخرجه الحاكم في المستدرک دون ذكر ما قيل من شعر حسان بن ثابت.

وكان قد أقام بقاء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وصلى بالناس الجمعة وهي أول جمعة صلاها بالمدينة، وأسس مسجد قباء، ثم ركب ناقته، فجعلت قبائل الأنصار يعترضونه في طريقه، كل منهم يطلب نزوله عنده، ويقولون: هَلُمَّ إِلَيْنَا، فعندنا العدد والمنعة. ورسول الله ﷺ يقول: «**خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»^(١). حتى أتت موضع مسجده الآن، فبركت به ناقته ﷺ. وحُفِظَ من قوله: **﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾** [الإسراء: ٨٠].

ومن جميل شعر الأنصاري في هجرة الرسول ﷺ قول قيس بن صرمة، وكان ابن عباس يتردد عليه ليحفظها.

يذكر لو يلقى حبيباً موثقاً	ثوى في قريش بضع عشرة حجة
فلم ير من يؤوي ولم ير داعياً	ويعرض في أهل المواسم نفسه
وأصبح مسروراً بطيبة راضياً	فلما أنا واستقرت به النوى
بعيد ولا يخشى من الناس باغياً	وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم
وأنفسنا عند الوغى والتآسيا	بذلنا له الأموال من جل مالنا
جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا	نعادي الذي عادى من الناس كلهم
وأن كتاب الله أصبح هاديّاً	ونعلم أن الله لا رب غيره

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ج ٢ ص ١٠١ طبعة دار الجليل.

(١٤)

وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

الحمد لله، ونستعين بالله، ونصلي ونسلم على رسول الله. وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

أما بعد:

فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ بِهَ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

والآيات والمعجزات تعم كل خارق للعادات، وتسمى البراهين. وهي كاسمها معجزة لعجز الناس عن معارضتها والإتيان بمثلها. فمعجزات الأنبياء هي آياتهم وبراهينهم الدالة على صدق نبوتهم، نصبها الله علامة على صدق رسله، والاستدعاء إلى الإيمان بهم وقبول دعوتهم. وأنها من صنع الله القادر على كل شيء، والفعال لما يريد. ليست من صنع النبي ولا من كسبه. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨]. فالعصا التي بيد نبي الله موسى هي عصاً مقطوعة من الشجر كعصا أحدنا في يده، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ [طه: ١٧-١٨]. وإنما صارت آية ومعجزة حين أمره ربه أن يلقيها، ولهذا قال: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى﴾ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ [طه: ١٩-٢١]. أي عصاً معتادة كحالتها السابقة.

وإن المسلم متى آمن بالله القادر على كل شيء لم يعسر عليه التسليم والقبول بكل ما أخبر الله به من عجائب رسله، ومعجزات خلقه، كخلق آدم من تراب، ثم قال له: كن. فكان، فصار بشراً سوياً. ثم خلق حواء من ضلع آدم. ثم خلق المسيح من أم بلا أب. وكذا سائر معجزات الأنبياء والأولياء، كأهل الكهف الذين قص الله علينا خبرهم. إذ لا بد للرسول من المعجزات التي تعزز دينهم، وتستدعي تصديق دعوتهم، فقد أتت الرسل بما تحار فيه العقول.

ولولا حكاية القرآن للمعجزات التي أيد الله بها موسى وعيسى وسليمان وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكذب الناس بهم وبمعجزاتهم، وبالكتب النازلة عليهم. وأنه لا يمكن إثبات آيات الأنبياء السابقين، إلا بثبوت نبوة محمد ﷺ، والإيمان بالقرآن النازل عليه الذي أخبر الله فيه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [النمل: ٧٦-٧٧]. وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ۝﴾ [يوسف: ٣]. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [يوسف: ١١١]. وقال: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۝﴾ [طه: ٩٩-١٠٠]. وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقَبَةَ لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [هود: ٤٩].

إن من آيات الله ما يجري على حسب السنن المطردة في الخلق والتكوين.

ومنها ما يجري على خلاف السنن المعروفة للبشر، مما يدل على قدرة الباري. وإن لله سبحانه خرق العادات في خلقه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝﴾ [يس: ٨٢]. فقد أتت الرسل بما تحار فيه العقول.

أحدهما: الهاديون الطبيعيون الذين ينكرون ويكذبون بكل ما لم يدركوه بحواسهم، فهم ينكرون وجود الرب، ويكذبون بالملائكة، ويكذبون بالموت، ويكذبون بالجنة والنار، ويبادرون إلى إنكار ما سمعوه من الخوارق والمعجزات التي لم يصلوا إلى حقيقة العلم بها، وفيهم أنزل الله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٣٩-٤١].

عُمِّي الْقُلُوبَ عَمُوا عَنْ كُلِّ فَائِدَةٍ

أما الصنف الثاني: فهم المؤمنون الذين يصدقون بكل ما أخبر الله به تصديقًا جازمًا ليس مشوبًا بشك ولا ريب، سواء أدركوا سر معرفة ذلك بعقولهم أو لم يدركوه. فهؤلاء هم المؤمنون حقًا، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين. وفيهم أنزل الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الرِّبَّانِيُّونَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والمعجزة، إنما كانت آية ومعجزة لوقوعها من فعل الله ليس للنبي ولا لغيره تصرّف في صنعها أو كسبها. والحكمة في ذلك أن مجرد قول الرسول ﷺ لأمرته: إن الله أرسلني إليكم. بدون أن يأتي بآية تصدق ما يقول، فإن ذلك مما يقتضي عدم تصديقه ولا الإيمان به، لكنه متى أتى بآية

ومعجزة ليست من صنعه ولا من كسبه ولا من الشيء المعتاد لغيره، ويمتنع أن يأتي من يعارضه بمثلها دل هذا على صدقه وصحة نبوته. وسميت معجزة، لكون الناس يعجزون عن معارضتها والإتيان بمثلها. وآيات الأنبياء هي علامات وبراهين من الله تتضمن إعلام الله لعباده بصدق رسله، وما جاؤوا به من الحق.

وقد سماه الله برهاناً في قوله تعالى: ﴿فَذَنِّكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢]. يعني العصا واليد. ومن المعجزات إخبار القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام بقصص الأنبياء مع أمهم، وبمعجزاتهم وخوارق العادات التي أيدهم الله بها، وتكرار القرآن لأخبارهم، تارة بطريق البسط، وتارة بطريق الاختصار غير المخل.

ولأن اليهود والنصارى قد بدلوا الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل، وغيرَها، وأدخلوا فيها الشيء الكثير من الكذب على الله وعلى أنبيائه ورسله، يقول الله سبحانه: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وكانوا يميزون لعلمائهم القسيسين بأن يغيروا من شريعة الرب ما يشاؤون ويشتهون، لأنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

ولما كان هذا القرآن هو المهيمن على الكتب السابقة، وبمثابة المصحح المصفي لما ذُكر فيها؛ فيحق الحق ويبطل الباطل؛ لهذا أعاد سبحانه وأبدى من ذكر قصص الأنبياء ومعجزاتهم، ليكون هذا القرآن هو المرجع الوحيد لكل ما يذكر من قصصهم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٧٦] وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ [النمل: ٧٦-٧٧]. ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]. ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [١٥] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ

سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾
 [المائدة: ١٥-١٦]. لأن الله سبحانه أرسل نبيه محمداً إلى كافة الناس عربهم وعجمهم. يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾
 [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ۚ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٧-١٥٨]. فكل قصة نجدتها تخالف القرآن يجب علينا أن نضرب بها عرض الجدار، إذ ليس لنا حاجة في كل ما يخالف القرآن؛ لعدم الثقة بصحته وكثرة دخول الكذب فيه.

ثم إن الإخبار بالآيات والمعجزات والمغيبات؛ لا يجوز معارضتها بالعقل والرأي لأنها من صنع الله القادر على كل شيء؛ وليس من صنع النبي ولا من كسبه. فالاستدلال بها والتحدي بمثلها مع عجز الناس عن معارضتها دليل واضح على صحتها، وصدق مَنْ جاء بها.

من ذلك معجزة القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام، والذي هو الحجة البالغة العظمى على خلقه. فهو معجزة الدهور، وآية العصور، وسفر السعادة، ودستور العدالة، وقانون الفضيلة، والواقى عن الرذيلة. مآدبة الله في أرضه، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يَخْلُقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشd، فيه خبر الأمم السابقة مع أنبيائهم، وما جرى منهم، وما جرى عليهم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى نَبِيِّ إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ [النمل: ٧٦-٧٧].

بهن مريد الحق كن هواديا

فيها من آيات حق لو اهتدى

فليست وإن أصغت تحيب المناديا

ولكن على تلك القلوب أكنة

وهذا القرآن المشتمل على مائة وأربع عشرة سورة؛ منها السور الطوال والقصار، مع ما اشتمل عليه من البلاغة؛ أنزله الله على هذا النبي العربي الأمي الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوبات، وكما قيل: كفاك بالأمي معجزة. يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩]. وقد تحدى الله جميع الخلق على أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]. وهذا التحدي لجميع الخلق؛ هو أعظم معجزة لنبوة محمد ﷺ، وصِدْقُ رسالته والقرآن النازل عليه. يقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. لا يقال: إن هذا القرآن فاض على نفس محمد ﷺ بدون أن يتكلم الله به، وبدون أن ينزل به جبريل ﷺ! فإن هذا صريح في التكذيب به. وهي مقالة الوحيد العنيد القائل: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٥]. ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَتْهَا فِيهِ ثُمَّ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥٠﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٥-٦].

وللنبي ﷺ معجزات غيره: كنبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام القليل، وغير ذلك. والمعجزة العظمى هي القرآن فهو معجزة الدهور وآيات العصور. ولكل نبي معجزة تناسب حالة قومه. وقد أيد الله موسى بمعجزات عديدة من أجل أنه أُرْسِلَ إلى شعب عنيد: فرعون وهامان وقارون. يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَنْ وَقُرُونٍ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]. وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١]. وهي: اليد، والعصا، والحجر الذي يحمله ثم يضربه بالعصا فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم على قدر عدد الأسباط. وكذلك انفلاق

البحر حينما لحقهم فرعون وجنوده **﴿.... قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾** [الشعراء: ٦١-٦٣].
أي كالجبل الشامخ.

ومثله معجزات نبي الله سليمان، حيث سخر الله له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب.
فكان يسط البسط، فيركب هو وجميع جنوده ومن معه فتقلهم الريح **﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾** [سبأ: ١٢].

ومثله معجزة نبي الله صالح، حيث أخرج الله له ناقة من صخرة صماء، **﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾** [الشعراء: ١٥٥]. **﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾** [الأعراف: ٧٣].

ومثله نبي الله عيسى، حيث كان يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويبين للناس ما يدخرون في بيوتهم.
وهذه المعجزات، يصدق بها أهل الكتاب من اليهود والنصارى لكونها مذكورة في كتبهم، ومشهورة مشهود بها فيما بينهم. ولما قيل للنبي ﷺ: إن اليهود يصومون يوم عاشوراء ويقولون: إنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فيه فرعون وقومه. قال: «نحن أحق وأولى بموسى، صُومُوا يَوْمًا قَبْلَهُ، أَوْ يَوْمًا بَعْدَهُ، خَالِفُوا الْيَهُودَ»^(١).

فالعلم بهذه المعجزات والبراهين البينات، يوجب علمًا ضروريًا بأن الله جعلها آية لصدق أنبيائه ورسله الذين جاؤوا بها من الله، واستدلوا بها على قومهم. وذلك يستلزم أنها خارقة للعادة، وأنه لا يمكن معارضتها، ولا الإتيان بمثليها؛ لكونها غير مصنوعة ولا من كسبهم ولا معتادة لغيرهم، ولهذا كانوا يعارضون معجزة كل نبي بدعوى أنه ساحر كما قال تعالى: **﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾** ﴿٥٥﴾ **﴿أَتَوَصَّوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾** ﴿٥٦﴾.

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ بلفظ: «صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ - وَخَالِفُوا الْيَهُودَ فَصُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا وَبَعْدَهُ يَوْمًا» وجاء في رواية: «أو بعده».

[الذاريات: ٥٢-٥٣]. أي كان بعضهم يوصي بعضًا بهذه المقالة. وإنما هي من الله عز وجل أعلم الله بها عباده بصدق رسله وكتبه. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨].

فخوارق السحرة والكهان المشعوذين، هي من الأمور المعتادة المشتركة التي يفعلها الكثير من الناس. وبالتحقيق فيها سرعان ما يتبين بطلانها. وما ابتلي الناس به من الشرك والكفر وعبادة الأصنام، إلا من أجل إغرائهم عن هداية الأنبياء، وعدم الإيمان بهم، واعتمادهم على آرائهم وعقولهم.

إن المسلم متى آمن بالله القادر على كل شيء، فإنه لن يعسر عليه التسليم بكل ما أخبر الله في كتابه من العجائب كعجيبة خلق آدم من تراب، ثم خلق حواء من ضلع آدم، وخلق المسيح من أم بلا أب. إذ لا بد للرسول من العجائب؛ لتعزيز دينهم، وتصديق دعوتهم. ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيد الله بها موسى وعيسى لكذب الناس بهما وبمعجزاتهما وبالكتب النازلة عليهما. إنه لا يمكن إثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوة محمد ﷺ، والتصديق بهذا القرآن النازل عليه، الذي: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ٧٦ ﴿وَأَنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٧٧ [النمل: ٧٦-٧٧].

فإن من آيات الله ما يجري على سنته العامة المطردة في الخلق والتكوين، ومنها ما يجري على خلاف السنن المعروفة للبشر. مما يدل على قدرته على كل شيء، وأنه فعال لما يريد. وأن لله سبحانه خرق العادات. فالهاديون الملحدون المنكرون لوجود الخالق وقدرته التامة يبادرون بإنكار ما يسمعون من الخوارق والمعجزات الذين لم يصلوا إلى حقيقة العلم بها، أو يتكلمون بالتأويلات البعيدة لكل ما يرونه مخالفًا لسنته المعروفة. كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ٣٩ [يونس: ٣٩]. وهذا دأبهم في جميع نظرياتهم العلمية. فهم يكفرون بآيات الله، ويكذبون بها كلها، ولا يؤمنون بشيء منها. فتراهم يكذبون بكل ما غاب عن أبصارهم، وبكل ما لم يحيطوا بعلمه. فيكذبون بوجود الرب وبالملائكة وبالجنة والنار. فإفساد هؤلاء الفلاسفة الملاحدة

للشعر في أمر دينهم ودنياهم أشد من إفساد النار لهشيم الخطب؛ لزعمهم أن الأنبياء يكذبون على الناس، ويجدثون الناس بما لا حقيقة له، وأنهم يتصرفون بما يخالف السنن والنواميس ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. فكذبوا بالدين من أساسه، وكذبوا بالكتاب، وبما أرسل الله به رسله. وهذا يعد من أشد أنواع الكفر بالله؛ لأن ضرره يتعدى بما فيه من إضلال الناس باعتقاد هذا الباطل الذي يتبعه خروج الناس عن الدين، ويبقون فوضى حيارى لا دين لهم. فمتى جهر هؤلاء باعتقادهم في بلادهم، فإنها لفتنة في الأرض وفساد كبير، فإن الجهر بالكفر والإلحاد، هو جرثومة الفساد، وخراب البلاد، وفساد أخلاق العباد.

أما وظائف الرسل: فإنهم بشر، اختصهم الله بالحق؛ لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل، وبالتعليم والإرشاد، تبشيراً وإنذاراً، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة، ولم يؤتهم التصرف في خلقه بهداية أقرب الناس إليهم، وأحبهم إليهم من والد وولد والناس أجمعين. فوالد إبراهيم عاش كافراً، ومات كافراً، وولد نوح أول رسل الله إلى خلقه مات كافراً، ولم يأذن الله لنوح بحمله معه في السفينة، فكان من المغرقين. وكان أبو لهب عم رسول الله ﷺ من أشد أعدائه المؤذنين له، والصادقين عن دينه، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد المؤمنون بقراءتها إلى يوم القيامة. وعمه أبو طالب الذي كفله ورباه، وكف عنه أذى المشركين، واعترف بصدق نبوته ولما قال له عند الاحتضار: «أَيُّ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»^(١) فامتنع ومات على ملة عبد المطلب فأنزل الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحَبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. ونهى أن يستغفر له فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. لأن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه. والمقصود أن

(١) متفق عليه من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن.

معجزات الأنبياء كلها من الله لا من كسب الأنبياء ولا من تصرفهم، كما نطق به القرآن الكريم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨].

وأن الله سبحانه لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات إلا لتكون حجة لهم على قومهم، بحيث يهتدي بها المستعد للهداية منهم، وتحق بها كلمة العذاب على الجاحدين ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

إن الثابت من معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء كأهل الكهف وغيرهم فما كانت دلالة من النصوص القرآنية، فإنها تعتبر قطعية لا مجال للرأي في إنكارها، ولا صرفها بمجرد التحكم والتأويل عن المعنى المراد منها. فقد أتت الرسل بمحارات العقول، فالتكذيب بها يعتبر نقضاً لقواعد الشريعة المعتمدة القطعية، ويعتبر ارتداداً عن الإسلام ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه يجب على كل مسلم التصديق بما أخبر الله ورسوله، وأنه ليس موقوفاً على أن يقوم دليل عقلي على ذلك الأمر أو النهي أو الخبر. فإن مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الله إذا أخبر في القرآن بشيء، أو أن الرسول إذا أخبر بشيء فإنه يجب علينا التصديق به، وإن لم نعلم بعقولنا حكمته. ومن لم يقر بما جاء عن الله ورسوله حتى يعلم بعقله فقد أشبه الذين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ومن سلك هذا السبيل، فليس بالحقيقة مؤمناً بالقرآن ولا بالرسول، ولا متلقياً عنه الأخبار بالقبول، ولا فرق عنده بين أن يخبر القرآن أو الرسول بشيء أو لا يخبر به. فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به، بل يتأوله أو يفوضه. وما لم يخبر به إن علمه بعقله آمن به، ولا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود القرآن والرسول، وبين عدم وجودهما. ويصير ما يذكر من القرآن والحديث والإجماع عديم الأثر عنده. انتهى.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

(١٥)

التذكير بحديث

«المؤمن القويّ أحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف»

وفيه بيان القضاء والقدر على الوجه الصحيح

الحمد لله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الملك: ٢]. وأشهد أن لا إله إلا الله بيده مواقيت الأعمار، ومقادير الأمور. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الداعي إلى كل عمل مبرور. اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ إِحْرَاضٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتِعْنُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ "لَوْ" تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

وأقول: إن هذا الحديث هو من جوامع الكلم، ومهمات الحكم. فهو بمثابة الموعظة الفصيحة، والنصيحة الصحيحة التي حث النبي ﷺ عليها أمته، وأحب منهم أن يتخلقوا بمدلوله الذي فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

بدأه بقوله: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**». لكون القوي يزيد على الضعيف بقوته، والقوة في سبيل الحق والعدل مطلوبة شرعاً، ومحبوبة طبعاً. ولهذا يستحبون الغزو مع الأمير القوي الفاجر، ويفضلونه على الغزو مع الأمير المؤمن الضعيف. ويقولون: إن إيمان الضعيف لنفسه، وضعفه يضر الناس. وإن فجور الأمير القوي على نفسه، وقوته تنفع الناس. ولهذا كان من سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يفضل الأمير القوي ويقدمه في الولاية على الضعيف. كما ولى زياد بن أبيه وأمثاله وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز الثقة. ويستحبون في القاضي أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف، حليماً ذا أناة وفطنة. وقد قيل:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب

فالقوة الممدوحة هنا شاملة للقوة في الدين والدنيا؛ لكونه يقوم في أعماله بجد وعزم، يأخذ بأسباب الحزم. ولهذا قال: «**اِحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ**». فهذه من أجمع الكلمات، وأفصح العظات ترشد الإنسان إلى الحرص فيما ينفعه في أمر دينه ودنياه وبدنه. فمتى احتاج إلى علاج يزيل به ضرره، ويدفع به مرضه، فإنه يبادر إلى الأخذ به. لأن دين الإسلام يجمع بين مصالح الروح والجسد، وبين مصالح الدنيا والآخرة. ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**مَا نَزَلَ مِنْ دَاءٍ إِلَّا لَهُ دَوَاءٌ عَلَيْهِ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»^(١) وقال: «**تَدَاوَوْا يَا عِبَادَ اللَّهِ، وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»^(٢) فيستعمل الدواء الكريه المر خوفاً من الوقوع في الضرر كما قيل:

نحنن في دار بليات نعالج آفات بآفات

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في المستدرک، والطبرانی في المعجم الكبير، والبيهقي في السنن الكبرى، كلهم من حديث ابن مسعود.

(٢) رواه ابن ماجه وأحمد من حديث أسامة بن شريك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الطعن في الأسباب قدح في الشرع، والإعراض عن الأسباب نقص في العقل.

فقول النبي ﷺ: «إِحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ». يشمل هذا كله، كما يشمل الحرص على أمر دينه من المحافظة على فرائض ربه التي ينتظم بها أمر حياته، فإنها نعم العون على ما يزاوله من أمر الدنيا. وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي»^(١) وقد مدح الله الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

فلا ينبغي للإنسان أن يعجز عن ما يعود عليه نفعه من أمر دينه ودنياه. فإن العجز نتيجه الحرمان. وقد قيل:

دع التكاثر في الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان

ومن دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ»^(٢).

إن أضر ما ابتلي به الشخص هو العجز والكسل، وأكثر الناس يجعلون عجزهم توكلاً، وفجورهم قضاءً وقدراً.

فمتى صارحت الشخص ونصحته عن ترك الصلاة مثلاً، أو نهيته عن شيء من المنكرات، كشرب المسكرات، اعتذر إليك قائلاً: إنه أمر مكتوب علي! فهو كما قيل: عند ترك الطاعات قدر، وعند ارتكاب المنكرات جبري. نظير ما حكى الله عن المشركين حيث قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. فالمحتج بالقدر حجة

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري.

داحضة عند ربه؛ لأنه باحتجاجة بالقدر يريد أن يبطل الأمر والنهي اللذين عليهما مدار العبادات والأحكام، وأمور الحلال والحرام.

والله سبحانه خلق الإنسان، ورَكَّب فيه السمع والبصر والعقل؛ ليتم بذلك استعدادة لتناول منافعها، واستعمالها في سبيل قوته، ووقاية صحته، وحفظ بنيته. وكان من هدي النبي ﷺ فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه. وكل ما شرعه رسول الله ﷺ لأُمَّته، وأمر به، فإنه من الدين الذي يجب اتباعه واستعماله، ويدخل في عموم قوله: «أُخْرِضَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ». فالأنبياء والعلماء دينهم الأمر، وعليه مدار العمل مع إيمانهم بالقضاء والقدر. فهم يقدمون الأمر على القدر، ويجاربون القدر بالقدر، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما بلغه أنه قد وقع الطاعون بالشام، فامتنع عن دخول البلد من أجله، وعزم على الرجوع بأصحابه. ولما قال له أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله يا عمر؟ قال: نعم. وقال: نفر من قدر الله إلى قدر الله^(١).

ويقولون: القدر لا يمنع العمل، ولا يجب الاتكال عليه، ولا الاحتجاج به، إلا في حالة بذله للأسباب التي تقيه وترقيه وتحفظه. فمتى غلبه الأمر بعد ذلك، فإنه لا يلوم نفسه على تقصيره أو تفريطه ولن يلومه الناس؛ إذ قد ينزل بالشخص من البلايا والمحن ما لا طاقة له به. ولهذا قال: «وَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا» لأن هذا من اللوم المذموم.

فالعاقل يأخذ في أموره بالحذر والحزم وفعل أولي العزم. فمتى غلبه أمر لا يطيق دفعه ولا رفعه فعند ذلك يلتجئ إلى قوله: هذا قدر الله وما شاء فعل، ليسلي بذلك نفسه.

أما إذا غلبه أمر بسبب ضعفه وعجزه وتقصيره بأخذ الحيلة، ووسائل الولاية والحفظ، فإنه ملام على عجزه. ولا معنى لاحتجاجة بقضاء الله وقدره ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

ولما قصر الصحابة يوم أحد في حمايتهم، وأهملوا الشعب حتى دخلت عليهم خيل المشركين من جهته، فقتلوا سبعين من الصحابة. وكانوا يظنون أنهم لن يغلبوا من أجل أنهم جند الله، والمجاهدون في سبيله مع نبيه، وأنهم لن يغلبوا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مْصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَلَيَّْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. أي بسبب تقصيركم بحفظ ببيضتكم وحماية ثغركم.

وعاجز الرأي مضيع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدر

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن التوكل إنما يكون مع الأخذ بالأسباب، وإن ترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع، أو فساد في العقل. فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح والحركة. والإنسان مأمور بالأسباب. فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

يسأل بعضهم: هل الإنسان مخير أم مسير؟

فالجواب: إن الإنسان مخير أي فاعل مختار لعمله؛ سواء كان خيرًا أو شرًا. فلا يقع فعل مقصود إلا من فاعل مختار. يقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]. وقال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. أما من قال: إن الإنسان مسير فإن هذه طريقة الجبرية القائلين: إن الإنسان لا يعدو أن يكون مجبورًا محضًا في جميع أفعاله وتصرفاته. ويصفونه في تصرفه بالريشة المعلقة في الهواء، تقلبها الرياح اضطرابًا لا اختيارًا.

وينشدون في ذلك:

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبطل بالهاء

وأقول: إن هذا الشعر هو من الكذب المفترى على الله وعلى رسوله ﷺ، فهو بعيد عن الحق والعدل. فإن الله سبحانه لم يخلق الإنسان في الدنيا مكتوفاً عن العمل والسعي، والأخذ بأسباب الحول والقوة، وسائر ما يؤهله من السعادة والوصول إلى الغاية والنعيم في الدنيا وفي الآخرة. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. ويقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فهذه هي الوسائل والأسباب التي تنجيه من عذاب الدنيا وعقاب الآخرة؛ فسيكون سعيداً في حياته، سعيداً بعد وفاته. أما إذا عطل الإنسان هذه المنافع، ولم يستعملها في سبيل ما خلقت له من عبادة ربه، واستعملها في مصالحه ومنافعه المباحة، فسيكون بمثابة الأعمى والأصم، أو كالميت المكتوف. كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وحكى سبحانه عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١١] ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١]. فقد خلق الله الإنسان، وخلق له السمع والبصر والعقل، وخلق له أيضاً جميع ما يحتاج إليه في الدنيا من المطاعم والمشارب واللباس والأدوية، فكل العقاقير التي يستعملها الأطباء لعلاج الأمراض، والوقاية من البلاء والوباء، فهي بالحقيقة من مخلوقات الله التي أنبتها في أرضه، رحمة منه لعباده بإيصال نفعها إليهم، وخص كل نوع منها بمرض يزاوله ويشفيه. فهي من قدر الله التي يقدر الله بها دفع البلاء ورفعها؛ لكون الدواء أماناً للصحة وقت المهلة.

فالقائلون: ألقاه في اليم مكتوفاً: هم الجبرية الذين يحتجون بالقدر يحاولون أن ينزهوا أنفسهم عن سوء ما فعلوا من المنكرات وترك الطاعات. ويحيلون جورهم وفجورهم، من تركهم الطاعات، وارتكابهم المنكرات، وشرب المسكرات، إلى القضاء والقدر، وما أذنّب

القضاء والقدر، ولكنهم هم المذنبون. فلو تعدى ظالم على أحد هؤلاء بضربه، أو أخذ ماله، أو انتهك محارمه، ثم احتج على سوء فعله بالقضاء والقدر، فإنه لن يقبل منه هذا الاحتجاج؛ لعلمه أنه احتجاج باطل حاول به التوصل إلى باطل ببدية العقل. فكيف يقبل على الله في ترك طاعاته، وارتكاب محرماته؟!.

ولهذا يدعو بعض العلماء أن يجابو الجبرية بالصفع على الوجه، ويقال: هذا قضاء الله وقدره. كما كنت تحتج به.

ولما جيء إلى عمر بن الخطاب بسارق قد سرق، واعترف. فقال له عمر: ما حملك على السرقة؟ قال: حملني عليها قضاء الله وقدره!! فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره. ثم أمر به فقطعت يده^(١).

ومثله احتجاج بعضهم بقول الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

وهذا أيضًا يعد من أفسد الشعر، يتمشى على عقيدة الجبر كما ذكرنا فيما سبق. وهذا القول وهذا الاعتقاد باطل بمقتضى النقل والعقل. فهم يصورون القضاء والقدر في نفوسهم، بمثابة الغل في العنق، والقيد في الأرجل، بحيث لا يتفصى^(٢) أحد عنه، ولا محيص للناس منه. وهو مدفوع بقول النبي ﷺ في هذا الحديث: «أَحْرُضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»^(٣).

والله سبحانه لم يخلق الخلق في الدنيا سدى مهملين، مضيعين مكتوفين. بل خلقهم عاملين متحركين مختارين. ونحن نؤمن بأن الله على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وقد جعل الله لكل شيء سبباً ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

(١) أخرجه الراهزمزي في المحدث الفاصل من حديث عمر.

(٢) أي لا يتخلص.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُتْرُدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَاللَّهِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة: ١٠٥]. ومن بطلاً به عمله، لم يسرع به ابتكاله على قضاء الله وقدره.

وحقيقة القدر: هو الإخبار عن سبق علم الله بالأشياء قبل كونها، وأنه يعلم ما كان، وما سيكون كيف يكون؛ لأنه لا تخفى عليه خافية من أعمال عباده. فعلمه بالأشياء قبل وقوعها شيء، والجبر منه عليها شيء آخر. فقد ثبت في صحيح مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة». وهذه الكتابة هي عبارة عن سبق علم الله بالأشياء قبل أن تقع وتكون.

قال ابن عباس: إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه: كن كتاباً. فكان كتاباً، فأنزل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان ص ١٩٩.

وثبت أن الله يدفع القدر بالقدر، وأن الله يمحو القدر بالقدر. وسمع من دعاء عمر أنه يقول: اللهم إن كنت كتبتني في أم الكتاب شقيّاً فاحني وأثبتني سعيداً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت^(١). والله يقول: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]. مما يدل على أن هذا المحو قد أزيل به قدر كتاب سابق.

وفي حديث ثوبان أن النبي ﷺ قال: «وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَإِنْ الصَّدَقَةُ لَتُدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»^(٢) وفي دعاء القنوت: «وقنا واصرف عنا شر ما قضيت»^(٣) فأثبت في هذا الحديث كون الدعاء يرد القدر والقضاء. كما أن الصدقة تدفع ميتة السوء. وكذا قوله: «وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ»^(٤) سواء حملناه على زيادة الأيام والليالي، أو على البركة في

(١) ذكره ابن بطة في الإبانة الكبرى.

(٢) رواه ابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

(٣) متفق عليه من حديث الحسن بن علي.

(٤) أخرجه أحمد من حديث ثوبان.

العمر، والكل واقع بقضاء الله وقدره.

فالأنبياء والعلماء دينهم الأمر، ويقدمونه على القدر. فقول الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

هو قول باطل قطعاً، فلا يكون التحرك مثل السكون، إذ إن مدار الشرع على الأمر والنهي، وأصدق الأسماء: حارث وهمام، فالهمام: هو الذي يهم بقلبه: سأفعل كذا. والحارث: هو الذي يسعى بيديه ورجليه إلى تحقيق آماله والسعي في أعماله. وقد قيل:

المسلم الحق يصلي فرضه ويأخذ الفأس ويسقي أرضه

يجمع بين الشغل والعبادة ليكفل الله له السعادة

وقد قلنا بأن المرض الذي يصاب به الشخص؛ هو من قضاء الله وقدره، وأن الدواء الذي يعالج به ليشفيه، هو من قضاء الله وقدره أيضاً. فهم يشربون الدواء الكريه المر؛ ليقبهم من الوقوع في الضر. كما قيل:

وخذ مرّاً تصادف منه نفعاً ولا تعدل إلى حلو يضر

فإن المر حين يسر حلو وإن الحلو حين يضر مر

وقد ثبت في الحديث: «بَادِرُوا بِالْصَّدَقَةِ، فَإِنَّ الْبَلَاءَ لَا يَتَخَطَّاهَا»^(١) وفي مراسيل الحسن أن النبي ﷺ قال: «حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى حَمْلِ الْبَلَاءِ بِالْدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ»^(٢) والدعاء يتعالج مع البلاء بين السماء والأرض. فلا يعجز أحدكم عن الدعاء ويقول: إن كان هذا الأمر مكتوباً لي فسوف يأتيني، دعوت أو لم أدع. فإن هذه طريقة الملاحدة الذين يحاولون إبطال عبودية الدعاء، وقد قدر الله بعض الأشياء، ولا يحصلها الإنسان إلا عن طريق الدعاء. وإن لم يدع لم تحصل له ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ﴾ **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ** [محمد: ٣٨].

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث علي بن أبي طالب بلفظ: «باكروا».

(٢) رواه أبو داود في مراسيله عن الحسن البصري.

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللکم، وحافظوا على فرائض ربکم، وأطيعوا الله ورسوله
إن كنتم مؤمنين.

(١٦)

حديث

«الطهور شرط الإيمان...» إلخ

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. اللهم صل على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري أن النبي ﷺ قال: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا».

وأقول: إن هذا الحديث عظيم الشأن جليل القدر، جمع مهمات من الحكم والفرائض والفضائل، فهو من جوامع الكلم؛ لأن النبي ﷺ بعث بجوامع الكلم، فكان يجمع الحكم الكثيرة في الكلمات اليسيرة.

بدأ هذا الحديث بقوله: «الطهور شرط الإيمان». يعني بالطهور: التطهر بالهاء من حدث أصغر أو جنابة، وجعله شرط الإيمان أي نصفه، لا اعتبار أن للإنسان حالتين: حالة يكون متطهراً، وحالة يكون محدثاً، ثم إن الطهور مفتاح الصلاة، فلا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ.

وَفَرَضَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ مَعَ فَرْضِ الصَّلَاةِ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ. وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ»^(١).

وعن ثوبان أن النبي ﷺ قال: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُخْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(٢) وقد قيل: إنه من خصائص هذه الأمة لا يشاركهم فيه أحد من الأمم لقول النبي ﷺ: «إِنِّي أَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ»^(٣) وسمي وضوءاً: لكونه يكسب الوضوء والنضرة في سائر الأعضاء، مع تكفيره للخطايا، ثم إنه يكسب الأعضاء نشاطاً، ويطرد النوم والكسل عند القيام للصلاة.

ويشترط طهورية الماء وإباحته؛ بحيث لا يكون مغصوباً، وإزالة ما يمنع وصول الماء إلى مواضعه من الأعضاء، فيزال الخاتم بتحريكه حتى يصل الماء إلى موضعه، وكذلك الساعة والسوار حتى يصل الماء إلى موضعهما من الأعضاء. وكذلك المرأة، إذا لبدت شيئاً فوق شعر رأسها، فإنه يجب أن تزيله حتى يصل الماء إلى موضعه من رأسها.

وقد جعل الله التيمم طهوراً يقوم مقام الماء عند عدم الماء. يقول الله سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البائدة: ٦]. فسماه الله طهوراً وليس من لوازم التيمم السفر، بل يجوز في البلد. فمتى انقطع الماء عن أهل بيت ولم يجدوا ما يتوضؤون به، أو يغتسلون إلا عن طريق سؤال الجيران أعطوهم أو منعوهم، فإنه يجوز

(١) رواه أبو داود والترمذي والدارمي. ورواه ابن ماجه من حديث أبي سعيد.

(٢) رواه أحمد وأحمد والبيهقي من حديث حديث ثوبان مولى المصطفى ﷺ، والبيهقي في الشعب والطبراني في الكبير من حديث ابن عمرو بن العاص. والطبراني في الكبير من حديث سلمة بن الأكوع. قال المنذري: إسناد ابن ماجه صحيح. وقال الرافي: حديث ثابت.

(٣) أخرجه مسلم وابن حبان من حديث أبي هريرة.

لهم أن يتيمموا بضرب التراب مرتين، مرة للوجه ومرة لليدين. ثم يصلون فروضهم ونوافلهم، وصلاتهم صحيحة. فإذا وجدوا الماء، اغتسلوا به عن الجنابة، ولم يعيدوا صلاتهم، لكونها وقعت موقعها في الصحة والإجزاء. فلا إعادة.

ومثله من كان في البلد، والتمس الماء عند حضور وقت الصلاة، فلم يجده فإنه يتيمم. ومثله الطلاب أو الطالبات في المدرسة؛ وقد عدموا الماء، وخافوا فوت الصلاة فإنهم يصلون بالتيمم، وصلاتهم صحيحة لحديث: «الصَّعِيدَ الطَّيِّبَ طَهُورُ الْمُسْلِمِ وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ سِنِينَ فَإِذَا وَجَدَ الْمَاءَ فَلْيَمْسَهُ بِشَرَّتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ»^(١).

ثم قال: «والحمد لله تملأ الميزان» فإن الله سبحانه كرر في كتابه نصبه للميزان. والوزن إنما يكون على حسب الأعمال لا على كثافة الأجسام أو نحافتها. قال سبحانه: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١٢٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٢٣﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

فقد ورد أنه يأتي السمين البطين، الأكل الشروب، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(١٢٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٢٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٢٥﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]. وكان ابن مسعود قصير القامة جدًا حتى إذا رئي قائمًا، ظنوه جالسًا. فجلس يومًا مع بعض الصحابة، وبدت ساقه، فضحكوا عجبًا من دقتها. فقال النبي ﷺ: «أتعجبون من دقة ساق ابن مسعود! والله لساق ابن مسعود في الميزان أثقل عند الله من جبل أحد»^(٢).

(١) رواه البزار من حديث أبي هريرة، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن مسعود.

وأخبر النبي ﷺ بأن التسبيح والتحميد والتكبير من أثقل ما يُجعل في ميزان العبد، وإن لهن دويًا حول العرش. وفي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١) ولهذا قال: «وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». لكون

التسبيح والتهليل والتكبير، تجعل أجسامنا يوم القيامة على حسب قوة إيمان صاحبها أو ضعفه.

ثم قال: «والصلاة نور» ولا يخفى أن الصلاة عمود الديانة، ورأس الإيمان، وتؤدي إلى الفضائل، وتكف عن الرذائل. تذكر بالله العظيم الأكبر، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر، تفتح باب الرزق، وتيسر الأمر، وتزيل الهم والغم، وهي من أكبر ما يستعان بها على قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وسعة الرزق في الحياة.

وكان الصحابة إذا حزبه أمر من أمور الحياة، أو وقعوا في شدة من الشدات، فزعوا إلى الصلاة. فهي نور المؤمنين في الحياة، كما أنها نور في القبر وعلى الصراط. وقد وصفها رسول الله ﷺ بالنور. كما في قوله: «بَشِّرِ لَمَسَائِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِالنُّورِ النَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢) وقال: «خمس صلوات كتبهن الله عليكم وُنَجاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلْفٍ بِئْسَ قَرْنَاءُ السَّوْءِ»^(٣).

ولما مر النبي ﷺ على قبر حديث عهد بدفن. فقال: «ما هذا؟» قالوا: هذا قبر فلان التاجر. فقال: «والله لصلاة ركعتين أحب إلى صاحب هذا القبر من الدنيا وما فيها»^(٤).

ثم قال: «والصدقة برهان». والبرهان هو الضياء المشرق. وسميت برهانًا لكونها تبرهن عن إيمان مُخْرِجِهَا، وكونه أثر طاعة ربه على محبة ماله ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ

(١) واللفظ للبخاري.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث غريب.

(٣) رواه أحمد بإسناد جيد والطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمرو.

(٤) رواه المنذري عن الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة، وقال: إسناده حسن.

كَانَ بِهِمْ حَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَقَّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: ٩]. كما سميت صدقة من أجل أنها تصدق وتحقق إيمان مُحْرِجِهَا. والصدقة تطلق على الصدقة المستحبة، وعلى الزكاة الواجبة. كما في قوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فسميت الصدقة الواجبة زكاة من أجل أنها تزكي إيمان مُحْرِجِهَا من الشح والبخل، وتطهره، كما تزكي المال أي تنميه وتكثره وتنزل البركة فيه، حتى في يد وارثه. فما نقصت صدقة مالا بل تزيده ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١٦]. وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ إِلَّا وَجَنَّبَتْهَا مَلَكَانِ يَنَادِيَانِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهِىَ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَأَعْطِ مُمْسِكًا مَالًا تَلَفًا»^(١)

ثم قال: «والصبر ضياء». وأقول: إن الصبر على ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عما حرم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

فأعلاه الصبر على طاعة الله؛ لأن ملازمة الطاعات، ومواصلة الأعمال الصالحات؛ يحتاج إلى صبر ومصابرة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وقد سمي رسول الله ﷺ انتظار الصلاة بعد الصلاة بالمرابطة. كما سمي شهر رمضان بشهر الصبر، لأن فيه صبراً على طاعة الله من الصيام والصلاة وصبراً عما حرم الله من الأكل والشرب والوقاع في نهار رمضان.

وكل الشرائع المفترضة على العباد فإنها تحتاج في أدائها إلى صبر ومصابرة. فالمحافظة على الصلاة في الجماعات بطريق الاستمرار تحتاج إلى صبر، وأداء الزكاة طيبة بها نفسه، وافدة عليه كل عام تحتاج إلى صبر، وكذا صيام رمضان ونوافله، وبالأخص في شدة الحر يحتاج إلى صبر، وكذا

(١) رواه الطيالسي والإمام أحمد من حديث أبي الدرداء، ورواه ابن حبان والحاكم.

سائر نوافل العبادات يحتاج إلى صبر ومصابرة. والثاني: الصبر عما حرم الله؛ من الربا والزنا وشرب الخمر، وأكل أموال الناس بالباطل، وقتل النفس بغير حق. فالكف عن كل هذه يعد من الصبر عما حرم الله. وقد قيل: لا تنظر إلى ازدحامهم عند المساجد، ولكن انظر إلى وقوفهم عند الحدود والمحرمات؛ لأن أفعال الطاعات يفعلها البر والفاجر، وأما ترك المحرمات، فلا يتركها إلا صديق.

وأما الصبر على أقدار الله المؤلمة، فمثل المصائب في الأهل والأولاد، وانتقاص المال أو ذهابه بنزول جائحة فيه. فكل هذه من الصبر على أقدار الله «وَأِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(١).
وأما قوله: «والقرآن حجة لك أو عليك» فهذا عدل الله في عباده، فإن الله سبحانه أنزل كتبه، وأرسل رسله ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فالقرآن صادق مصدق، وشافع مشفع، من جعله إمامه فحافظ على فرائضه، واجتنب محارمه، فإنه يقوده إلى الجنة. ومن ترك طاعاته، وارتكب محرماته، فإنه يسوقه إلى النار. لأنه يبعث يوم القيامة كالرجل الشاحب يخاصم أقوامًا ويخاصم دون آخرين، فيقول في حق من حفظ فرائضه، واجتنب حدوده ومحرماته: يا رب حَمَلْتَهُ إِيَّاي، فخير حامل: حفظ حدودي، وحافظ على طاعتي، واجتنب معصيتي. ولم يزل يلقي دونه بالحجج حتى يقال: شألك به. فيأخذه بيده، ويدخله الجنة. وأما الثاني فيقول: يا رب حَمَلْتَهُ إِيَّاي، فبئس حامل، ضيع فرائضي، وارتكب معصيتي. فلا يزال يلقي عليه بالحجج حتى يقال: شألك به. فيكبه على وجهه في نار جهنم.

ولهذا قالوا: ما جالس القرآن أحد قام سالماً، بل إمَّا له، وإمَّا عليه.

وإنما نزل القرآن للاعتبار والتدبر، وتوطین النفس على العمل، وهو رسالة من رب العالمين موجهة إلى عباده المؤمنين، فيها الأمر والنهي، والتبشير والتحذير، ومن قرأ القرآن ولم

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك.

يعمل به، فقد ضرب الله به مثل السوء أي: ﴿كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. أي كتباً لا يدري ما فيها، كما قيل:

زوامل للأخبار لا علم عندهم
لعمرك ما يدري البعير إذا غدى
ورُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه.

ثم قال: «كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها». إن الناس كلهم لا يخرجون عن هذين الوصفين منهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. وبضده قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]. لأن سعي الناس شتى، منهم من يعمل بعمل أهل الجنة، ومنهم من يعمل بعمل أهل النار.

وللخير أهل يُعرفون بهديهم
ولللشر أهل يُعرفون بشكلهم
وعند نشر صحائف الأعمال يوم القيامة يقول الله تعالى: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا فَمَن وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَن وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).
فانتبهوا من غفلتكم، وحافظوا على فرائض ربكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

(١) رواه مسلم من حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيها يرويه عن ربه.

(١٧)

تفسير قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧]

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين ونحمده ونشكره أن جعلنا مسلمين. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٧٧ ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

قال بعض السلف: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأصغ لها سمعك. فإنها خير تؤمر به، أو شر تُنهى عنه.

نادى الله عباده المؤمنين باسم الإيمان. فبعدما هاجروا إلى المدينة رسخ الإيمان في قلوبهم، وانقادت للعمل به جوارحهم. ولهذا لا توجد هذه الصيغة أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلا في السور المدنية. ثم إن هذه الآية هي إحدى سجديات القرآن؛ كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ» وفي رواية: «فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يقرأها»^(١).

استدل بهذا الحديث من يرى أن سجدة التلاوة واجبة. والصحيح أنها مستحبة وليست بواجبة لما في البخاري عن عمر أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ فَمَنْ سَجَدَ فَقَدْ

(١) رواه أبو داود في مراسيله عن خالد بن معدان، ورواه الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر.

أَصَابَ وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ». وقد مدح الله الذين إذا ثَلِيَتْ عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً. وثبت أن النبي ﷺ كان يخطب فقرأ سجدة فنزل عن المنبر، فسجد، وسجد الناس معه، وفعل عمر مثله.

وروي أن الإنسان إذا سجد اعتزله الشيطان، يبكي يقول: «أَمْرَ ابْنِ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلَئِي النَّارُ».

أما الدعاء في سجود التلاوة: فليس محصوراً في صفة. بل لو سجد ولم يقل شيئاً، أو قال: سبحان ربي الأعلى كفى.

واختلف العلماء: هل سجود التلاوة صلاة يشترط له ما يشترط للصلاة من الطهارة واستقبال القبلة والتكبير والتسليم، أم هو سجود مجرد؟

فعند بعض الفقهاء: إنه صلاة، يشترط له ما يشترط للصلاة، من الطهارة، واستقبال القبلة. واستأنسوا لهذا بحديث ابن عمر قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ، فَإِذَا مَرَّ بِالسُّجْدَةِ كَبَّرَ وَسَجَدَ وَسَجَدْنَا مَعَهُ». رواه أبو داود بسند فيه لين.

ورجح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بأن سجود التلاوة هو سجود مجرد يشبه سجود الدعاء، فلا يشترط له طهارة ولا تكبير ولا تسليم، لأنه ليس بصلاة، وإنما شُرِعَ للخضوع والدعاء. فيسجد ولو في وقت النهي؛ كبعد العصر والفجر، ومثله سجود الشكر، فإنه يستحب عند حصول نعمة واندفاع نقمة. لأن النبي ﷺ كان إذا جاءه أمر يسره خر ساجداً شكراً لله.

فسجود تلاوة القرآن، وسجود الشكر، لا يشترط لهما الطهارة من الحدث على القول الصحيح، لأنها بمثابة الدعاء، وبمثابة تلاوة القرآن والتسبيح، وسائر العبادات التي يجوز فعلها بدون وضوء.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧]. ولأن يسجد المؤمن سجدة يتبغى بها وجه الله إلا أجره الله عليها، ولأنه لا أفضل من مؤمن يعمر في الإسلام لتسبيحة أو صلاة ركعة أو سجدة أو صدقة.

والموتى في قبورهم يتحسرون ويتأسفون على زيادة في أعمالهم، ويتمنون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا أعمالاً صالحة. يقول المفرد منهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. فلا يجابون إلى ما سألوا وقد حيل بينهم وبين العمل، وغلقت منهم الرهون، فهم يتمنون العمل ولا يقدرُونَ عليه، وأنتم تقدرُونَ على العمل ولا تعملون.

إن بعض الناس يتقرب إلى الله بهذه العبادات، لكنهم يتوسلون ويستشفعون بالأولياء والصالحين والمقبورين يرجون شفاعتهم، وهذا شرك محبط لسائر أعمالهم من صلاتهم وصيامهم ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]. وإذا دخل أهل الجنة الجنة ورأوا ثواب أعمالهم سألوا ربهم أن يأذن لهم بأن يعبدوه بالركوع والسجود. فيقول الله لهم: إن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل. وإنما يلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس. وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وهذا أمر من الله لعباده بأن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً.

إن الله سبحانه إنما خلق الخلق للعبادة، وخلق لهم جميع ما في الدنيا من الخيرات ليستعينوا به على عبادة ربهم، ويتمتعوا به إلى آخرتهم. كما خلق لهم الجنة ثواباً وجزاء على حسن أعمالهم.

وأما قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

فالعبادة اسم جامع لفعل ما يحبه الله ويرضاه، فالصلوات فرضها ونفلها عبادة. والصدقة فرضها ونفلها عبادة. والصوم فرضه ونفله عبادة. وبر الوالدين عبادة. وصلة الأرحام عبادة. والإحسان إلى المساكين والأيتام عبادة. والتسبيح والتحميد عبادة. والاستغفار وتلاوة القرآن بالتدبر، وتوطين النفس على العمل به عبادة. والدعاء والتضرع عبادة؛ بل الدعاء مخ العبادة، ومخ الشيء خالصه. والله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَا يَعْبُدُونَ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ

فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ [الفرقان: ٧٧]. سواء قلنا: المراد به دعاء العبادة، أو دعاء المسألة، فإنه عبادة.

والعبادة هي التي تحب الرب إلى العبد وتجعله من أوليائه المقربين وحزبه المفلحين، كما في البخاري: أن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أَحِبَّهُ...» الحديث.^(١)

خصوصاً الصلاة، فإنها الصلة بين العبد وبين ربه. فالمصلي متصل بربه وموصول من فضل ربه وكرمه، كما في الحديث: «أمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل وجه عبده ما لم يلتفت في صلاته»^(٢) وهي من أكبر العون على قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وسعة الرزق في الحياة. يذنب الشخص الذنب ثم يندم، ويقوم يتوضأ، ويصلي ركعتين يتوب فيها إلى الله، ويتوب الله عليه. أو يصاب بمصيبة، من فقد حبيب، أو خسارة مال، أو شيء من مصائب الدنيا، فيقوم فيتوضأ، ويصلي ركعتين فتخف عليه عظم مصيبتة. ويرى أن الله أكبر من كل شيء، وأن فيه العوض من كل هالك، والخلف من كل فائت.

أو يصاب بهمّ وغمّ شديدين، فيقوم يتوضأ، ويصلي ركعتين، فيزول عنه همه وغمه، ويبدل مكانه فرح وسرور. أو يصاب بغضب شديد، فيتوضأ ويصلي. فيبرد غضبه، ويسكن جأشه. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]. لأنها قرة العين للمؤمنين في الحياة. ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

فأرشدت هذه الآية الكريمة إلى أن فعل الخير على اختلاف أنواعه أنه من أسباب الفلاح، وهو الفوز والنجاح بخير الدنيا والآخرة.

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث الحارث الأشعري.

وهذا الخير الذي أمر الله عباده بفعله يشمل كل ما ينفع الشخص والناس في أمر دينهم ودنياهم؛ لأن خير الناس أنفعهم للناس، والخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله مَنْ أحسن إلى عياله. وخير الناس من يُرجى خيره، ويُؤمّن شره، وشر الناس من لا يُرجى خيره، ولا يؤمّن شره.

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

والله سبحانه خلق الناس على طبقات شتى: فمنهم أهل الخير المعروفون بالخير والإحسان ونفع الناس، ومنهم أهل الشر والمنكر والعصيان.

وللخير أهل يعرفون بهديهم

وللشر أهل يعرفون بشكلهم

وصفة رسول الله ﷺ، أنه يصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويكسب المعدوم، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق. فهؤلاء هم الأبرار الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ

الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝﴾ [الإنفطار: ١٣-١٤]. فالأبرار: المتوسعون في أعمال البر والخير، من صلاة وصلة وصدقة وإحسان إلى الناس. والخير خزائن والناس مفاتيح، فمن الناس من يكون مفتاحاً للخير، مغلاً للشّر، ومن الناس من يكون مفتاحاً للشّر، مغلاً للخير، فهم في نعيم في الدنيا وفي القبر، وفي الآخرة، ومن الناس من يكون مفتاحاً للشّر، وهم المتوسعون في أعمال الشرور والفجور؛ من تركهم الصلاة، وشرهم المسكرات، واستباحة أفعال المنكرات من الزنا والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل. وحسب المتصف بفعل الخير أنه يحبه الله، ويحبه أهل الأرض، ويحبه أهل السماء، ويدعو له المسلمون في صلاتهم، ويقولون: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». وهذا هو الغاية في الفلاح، والفوز بالنجاح، وهو معنى قوله: ﴿وَأَفْعَلُوا

الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ثم قال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

إنه قد يسوء فهم كثير من الناس حينما يسمعون بآيات الجهاد في القرآن، فيظنون كل الظن أن المراد بالجهاد هو الغزو لقتال الكفار، وهذا نوع من الجهاد وليس الجهاد محصوراً فيه. بل الجهاد أعم وأشمل؛ لأن الجهاد هو: بذل الجهد والطاقة في إعلاء كلمة الحق، ونفع الخلق، والجهاد قولي وفعلي. يكون باللسان وبالحجة والبيان. ويكون بالسيف والسنان. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل»^(١)

فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو نوع من الجهاد في سبيل الله، وهو واجب على كل واحد بحسبه. فعلى العالم من وجوب الجهاد في نشر العلم وتعليمه، وتذكير الناس به، والنصيحة بنشر ما ينفعهم، والتحذير عما يضرهم. ما ليس على غيره. وعلى الحاكم من وجوب الجهاد في تنفيذ الحق والحكم بالعدل، ونصر المظلوم، واستيفاء حقه، وقمع الظالم وإيقافه على حده، وإقناعه بحقه. ما ليس على غيره. ولن تقدس أمة لا يؤخذ الحق من قويمهم لضعيفهم.

فالجهاد واجب على كل أحد بحسبه، وواجب على كل أحد مع أهله وعياله بحيث يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر، ويأمرهم بالصلاة في المسجد معه عملاً بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. فالجهاد بالحجة والبيان، والأمر بالخير، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: هو جهاد أنبياء الله ورسله. وإنما شرع القتال لتأييده واستقامته، لأنه قوام الدين، ﴿وَكَفَىٰ بِرِّبَّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

يقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]. ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. وقال سبحانه: ﴿دَايِئِهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكَفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. ورسول الله ﷺ لم يؤمر بقتال المنافقين، ولما

(١) أخرجه أحمد من حديث فضالة بن عبيد.

استؤذن في قتل رجل منافق قال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(١) من أجل أنهم ينتسبون إلى صحبته وإلى الإسلام في الظاهر، فترك قتالهم.

ومعنى قوله: ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ﴾ أي اصطفاكم وجعلكم من خيار الناس، ومن أنفع الناس للناس ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فمتى زالت هذه الصفات الجليلة، فقد زالت عنهم الخيرية.

ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. فنفى سبحانه وقوع الحرج في الدين، لأن شرائع الإسلام كلها سهلة سمحة ميسرة، كما في البخاري عن عمران بن حصين قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ». ولما رأى النبي ﷺ رجلاً يصلي وقد رفع له وسادة يسجد عليها فرمى بها، وقال: «صَلِّ عَلَى الْأَرْضِ إِنْ اسْتَطَعْتَ، وَإِلَّا فَأَوْمِ إِمَاءً، وَاجْعَلْ سُجُودَكَ أَحْفَظَ مِنْ رُكُوعِكَ»^(٢) فما من شيء من العبادات يشق مشقة زائدة على المعتاد إلا كان لها بدل من التيسير حاضر عتيده؛ لأن الشرائع منزلة على جلب المصالح، ودرء المضار.

أما ما يصيب الناس من مشقة الصيام في نهاية طول الأيام، وشدة الحر فيصفون الإسلام من أجله بأن شرائعه تكاليف شاقة. فهذا لا يقوله سوى ضعفة الأديان، الذين ينظرون إلى الأشياء بعين شهواتهم لا بعين عقولهم. وقد خفي عليهم أن المكارم منوطة بالمكاره، وأن السعادة والصحة والعافية لا يُعْبَرُ إليها إلا على جسر المشقة والتعب. والله سبحانه لم يوجب الصيام على عباده إلا لمصلحة تعود عليهم في دينهم وأبدانهم، لأنه بمثابة الرياضة للبدن، وبمثابة الحمية التي تعقب البدن الصحة. والصوم زكاة البدن يزكو به ويصح به، كما في الحديث: «صوموا

(١) رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن عمر.

تصحوا»^(١) لأن في البدن فضولاً سيالة إذا بقيت في الجسم أفسدته. وبالصوم تنشف وتقوى العضلات، فيشتهي الطعام باشتياق. أشبه تضمير الخيل للسباق. وبطريق الاعتبار نرى أن المتنفلين بالصيام الذين يصومون مثلاً الاثنين والخميس، ويصومون عشر ذي الحجة، ويصومون يوم عاشوراء، ويوم عرفة، مع صيام رمضان نراهم من أحسن الناس حالاً، وأصح الناس أجساماً. لأن الله يمدهم بالقوة على أثر الطاعة، حتى يتمتعون بالصحة وطول العمر.

ومثله يقال في الصلاة حيث سماها بعضهم بالرياضة من أجل أنها تروض الجسم. وهي رأس العبادة، وتكسب البدن الصحة لأن الله لم يوجب الصوم والصلاة إلا لمصلحة راجحة، ومنفعة واضحة في الدين والبدن. ولم يحرم المحرمات كالربا والزنا وشرب الخمر إلا لمضرة واضحة ومفسدة راجحة، وأهل الصوم في صومهم، هم أنعم وأسعد وأقوى من أهل البطالة في أكلهم وشربهم وبطالتهم، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي هريرة.

(١٨)

فضل الدعاء

وكونه يدفع شر القدر والقضاء

الحمد لله، ونستعين بالله، ونصلي ونسلم على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمداً رسول الله، اللهم صل على نبيك ورسولك محمد. وعلى آله وصحبه ومن تمسك بستته واتباع هداه.

أما بعد:

فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه، وركّب فيهم العقول ليعرفوه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ليشكروه، وأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

والعبادة أنواع: فالصلاة فرضها ونفلها عبادة، والصوم عبادة، والزكاة عبادة، والحج عبادة، والصدقة عبادة، والتسبيح والتحميد عبادة، وتلاوة القرآن بالتدبر وتوطين النفس على العمل به عبادة، والدعاء عبادة، بل الدعاء مخ العبادة سواء في ذلك دعاء العبادة ودعاء المسألة. يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد ذكر العلماء الحكمة في وضع هذه الآية بين آيات الصيام. ذلك أن الصائم يتوسع في أفعال العبادة ويكثر من الدعاء، والتضرع إلى الله في كل أوقاته، وعند فطره وسحوره؛ لعلمه أن للصائم

دعوة لا تُرد، فهي إرشاد من الله إلى الدعاء عند كل فطر، إذ الدعاء عبادة بل هو مخ العبادة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. فسماه عبادة وتوعد سبحانه كل من استكبر عن عبادة ربه، وأعرض عن دعائه، بأنهم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صغيرين حقيرين ذليلين.

فالدعاء عماد الدين، ونور السماوات والأرض، وسلاح المؤمن كما ثبت ذلك في الحديث. وهو بمثابة الكنز المدخر لحالة الأزمات، والوقوع في الشدات، لأن من عرف الله في الرخاء، عرفه في الشدة «إِذَا سَأَلْتَ فَسَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١). فليس شيء أكرم على الله من الدعاء، والله يحب الملحين بالدعاء. ف «أَلْظُوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٢) أي الزموا وداوموا. ومن لم يسأل الله يغضب عليه.

ومتى كان الدعاء عبادة بل هو مخ العبادة والمسلم مخلوق للعبادة، فلا ينبغي له أن يستبطئ الإجابة ويقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي، فيكسل عند ذلك ويأس فيترك الدعاء. لأن هذا من باب القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، فإن الله سبحانه هو أعلم بمصالح عباده، فقد يدعو الإنسان بشيء من حظوظ الدنيا وسعة الرزق، وكثرة المال والعيال ولو استجيب له، وعجلت له دعوته لكان فيه محض مضرتة وهلاكه؛ لأن الله سبحانه يحمي عبده المؤمن من بعض الأشياء التي يتمناها ويشتتها رحمة منه؛ لأنها لو حصلت له لأفسدت عليه دينه ودنياه ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ومن دعاء بعض السلف: اللهم أعطيتني مما أحب، فاجعله عوناً لي على ما تحب. اللهم ما زويت عني مما أحب، فاجعله فراغاً لي فيما تحب. فالداعي لربه لن يخيب أبداً: «إما أن يستجيب الله له دعوته، وإما أن يدخر ثوابها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من سوء مثلها». - كما ثبت بذلك الحديث -

(١) رواه الترمذي من حديث أبي العباس عبد الله بن عباس.

(٢) رواه أحمد، والطبراني في الدعاء من حديث ربيعة بن عامر

فقالوا: يا رسول الله، إذا نكث من الدعاء. فقال: «**فضل الله أكثر**»^(١) فوجب المسلم والمسلمة أن يكثرا من الدعاء في كل الحالات، وفي سائر الأوقات ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٥]. ﴿**قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾ [الفرقان: ٧٧].

فالدعاء سلاح المؤمن يستدفع به البلاء حتى المنعقد بطريق القدر والقضاء، فإنه يدفع شره. كما ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَحْرُمُ الرِّزْقُ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»^(٢) فأخبر الصادق المصدوق أن الدعاء يرد القدر والقضاء. مثال ذلك أنه يكتب على الإنسان أنه يعيش فقيرًا، أو أنه يصاب بقتل، أو بصدم سيارة أو غرق أو حرق أو غير ذلك مما يتحدث الناس أنه مكتوب عليه في الأزل، ثم لا يزال يدعو ويتضرع إلى الله سبحانه، فيستجيب الله دعوته، ويمحو ما كتب عليه بطريق القضاء والقدر، لأن الله سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت، فيعيش في الدنيا معافي، غنيًا سعيدًا.

ولهذا كان من دعاء القنوت أنه يقول: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ**»^(٣) ولولا أن الدعاء يدفع شر القدر ولقضاء لما دعا به النبي ﷺ. ولما علمه أمته. فصرفُ القدر والقضاء بالدعاء هو أمر واقع من الله، وثابت في شرع الله. فحذار حذار أن يعجز أحدكم عن الدعاء ويقول: إن كان هذا الأمر مكتوبًا لي فإنه سيحصل لي، دعوت أو لم أدع. فإن هذه حجة الملاحدة الذين أبطلوا مشروعية الدعاء وتأثير ثوابه، اتكالا منهم على القدر المكتوب. والله سبحانه ربط الأسباب بالمسببات،

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الدعاء، والإمام أحمد في مسنده، والبيهقي في الدعوات الكبير، جميعًا من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن ماجه، والطبراني في الدعاء، جميعًا من حديث ثوبان.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود والنسائي والترمذي والدارمي، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الدعاء، جميعًا من حديث الحسن بن علي.

وجعل الدعاء سبباً للإجابة. وأنزل الله في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقد استعاذ النبي ﷺ من أربع فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَنَفْسٍ لَا تَتَّسِعُ وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ»^(١) أي لا يستجاب له. والمؤمن في الدنيا بمثابة الغريق في لجة البحر، يقول: يا رب يا رب، حتى يصل إلى ساحل السلامة والنجاة، لأن البلايا والرزايا والأحداث والأخطار والأوجاع المزعجة تفاجئ الإنسان من حيث لا يحتسب، ولا ملجأ ولا منجى له من هذه البلايا والرزايا إلا بالالتجاء إلى الله بالدعاء والتضرع، لأنه نعم الملتجأ ونعم المولى ونعم النصير.

ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء بسؤال العفو والعافية في الدنيا والآخرة. ويقول إذا أصبح: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي اللَّهُمَّ اسْأُرْ عَوْرَتِي». وَقَالَ عُثْمَانُ «عَوْرَاتِي وَأَمِنْ رَوْعَاتِي اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»^(٢) وكان^(٣) يستعيز بالله من نقمته، وتحوّل عافيته، وفجأة نقمته، وجميع سخطه، ويقول في سجوده: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٤). وبالجمله: فإن الدعاء جنة حصينة، ومفتاح كل خير، وهو من لداث الدنيا من ذاق منه عرف، ومن حرم انحرف، فمن فُتِح له باب الدعاء وحُبب إليه فقد فُتِح له باب الخير والرحمة والبركة، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل همّ الإجابة، ولكن أحمل همّ الدعاء، فإنني إذا أعطيت الدعاء وفقت للإجابة.

(١) رواه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح، وقال العراقي: ليس كما قال.

(٢) رواه أبو داود من حديث ابن عمر.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر بن الخطاب.

(٤) رواه مسلم وأصحاب السنن: أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه من حديث عائشة.

وقد قال بعض السلف: إنه ليكون لي إلى الله حاجة فيفتح لي من لذائذ مناجاته ما لا أحب معها أن يعجل قضاء حاجتي باستجابة دعوتي. لا سيما الدعاء في السجود، فإن له سرًا بديعًا، كما في الحديث: أن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ»^(١) وقال: «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقِمْنِ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»^(٢) ففضل الدعاء وتأثيره سببه هو أمر معلوم ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، غير أن للدعاء بابًا يدخل إلى الله منه، وآدابًا ينبغي أن يتأدب بها الداعي، فإن من حرم الأدب حرم الإجابة.

من ذلك أنه ينبغي للداعي أن يطيب مطعمه عن أكل الحرام، لأن العلائق عن الخير عوائق. وقد قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «يا سعد، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة»^(٣) لكون الوسائل مطلوب تقديمها أمام المسائل؛ لأنها من العمل الصالح الذي يرفع الدعاء إلى الله. وعن فضالة بن عبيد قال: «سمع النبي ﷺ رجلاً يَدْعُو وَلَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «عَجَلْ هَذَا». ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالتَّنَاءِ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدَ بَمَا شَاءَ» رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم.

ومنها أن يمد يديه إلى الله في الدعاء؛ لما روى سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إِنْ رَبَّكُمْ حَيٌّ سَتِيرُ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا مَدَّ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّاهُمَا صَفْرًا» أي خائبتين. رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم.

ومنها: أن يدعو بقلب حاضر وهو موقن بالإجابة، فإنه لا يستجاب الدعاء من قلب ساهٍ لاهٍ.

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ولكن قال: «فأكثرُوا الدعاء».

(٢) رواه مسلم من حديث ابن عباس.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط.

«وإذا سألت فاسأل الله». لا تسأل غيره إلا فيما لا بد منه. أما سؤال المخلوق، فإنه حرام إلا في حالة الضرورة. ومن دعاء بعض السلف: اللهم كما صُنْتَ وجهي عن السجود لغيرك، فصُنْ لساني عن السؤال لغيرك. لأن سؤال المخلوق للمخلوق ذل ومهانة ومذمة. والله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩]. أي زكى نفسه بالفضائل ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١٠]. أي دسأها ودنسها بالردائل، ولا رذيلة أعظم من سؤال الناس؛ لأن السؤال يذهب بهاء الوجه. وأخبر النبي ﷺ أن «الْمَسْأَلَةُ كَدٌّ يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا، أَوْ فِي أَمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ»^(١) وأخبر أن الذي يسأل الناس تكثرًا يأتي يوم القيامة، وليس في وجهه مزعة لحم. وقال: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْخُطْبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكْفِيَ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»^(٢) وقد أقسم النبي ﷺ على ثلاث خصال فقال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ لِلنَّاسِ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ»^(٣) وهذا أمر واقع ما له من دافع. ولهذا يقال: شر الكسب السؤال. ويقال: آخر الكسب السؤال. فواجب المسلم أن يصون ماء وجهه عن سؤال الناس: «مَنْ يَسْتَعْنِ يَغْنِهِ اللَّهُ»، وَمَنْ يَسْتَعْفِفُ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ»^(٤) وما جاءك من هذا المال وأنت غير مُشْرِفٍ ولا سائل فخذ، وما لا فلا تتبعه نفسك.

فهؤلاء الذين يسألون الناس حيث اتخذوا مسألة الناس لهم مهنة ومكسبًا، وعندهم نقود مودعة عند التجار أو في البنوك، فهؤلاء يعتبرون مخطئين ضالين؛ لأن مسألة الناس حرام إلا في حالة الضرورة، لأن «مَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ

(١) رواه أبو داود والنسائي والترمذي والإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، جميعًا من حديث سمرة بن جندب.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه البخاري أيضًا من حديث الزبير بن العوام.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الرحمن بن عوف.

(٤) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري.

لَيْسَتْ كَثِيرٌ»^(١) أما إذا كان مضطراً وليس عنده شيء فإن للسائل حقاً ولو جاء على فرس، ولو صدق السائل ما أفلح من رده. وقد أوجب الله للسائل حقاً في كتابه الميمين فقال: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ». بقية الحديث: «وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»^(٢)

فانتبهوا من غفلتكم، وحافظوا على فرائض ربكم، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

آية الحقوق العشرة المذكورة في قوله تعالى:

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والعمل بطاعته تطيب الحياة وتفيض الخيرات وتنزل البركات، وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة نرجو بها رفيع الدرجات، والفوز بالجنات. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صاحب الآيات والمعجزات. اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه أولى الهمم العاليات، والأعمال الصالحات، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦-٣٧]. هذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة.

إن هذا القرآن بمثابة الرسالة الموجهة من رب العالمين إلى عباده المؤمنين، بلسان عربي مبين، بواسطة نبيهم الصادق الأمين.

والقرآن هو معجزة الدهور، وآية العصور، وسفر السعادة، ودستور العدالة، والداعي إلى الفضيلة، والراعي عن الرذيلة. فأمر الله بأن يعبدوه أي يوحده ولا يشركوا به شيئاً.

والعبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال. فالصلاة فرضها ونفلها عبادة. بل هي رأس العبادة، والصوم عبادة، والزكاة عبادة، والصدقة عبادة، وبر الوالدين عبادة، وصلة الرحم عبادة، والإحسان إلى المساكين والأيتام والجيران عبادة، والذكر والتسبيح والتحميد عبادة، وتلاوة القرآن بالتدبر عبادة، والدعاء والاستغفار عبادة، بل الدعاء مخ العبادة. والله سبحانه إنما خلق الخلق للعبادة. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالعبادة هي أكبر ما يستعان بها على أمر الدنيا والسعادة فيها، والفوز بثواب الآخرة.

إن الدنيا محفوفة بالأنكاد والأكدار، وبالشرور والأضرار، ولا يهذبها ويصفيها سوى الدين عبادة رب العالمين. فهي التي تجعل للمسلم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ومن كل بلوى عافية، كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: بَنَ آدَمَ تَفَرُّغٌ لِعِبَادَتِي أَمَلًا صَدْرَكَ غَنًى وَأَسَدٌ فَقْرَكَ وَإِلَّا تَفَعَّلَ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أُسَدِّ فَقْرَكَ»^(١) ومعنى التفرغ لعبادته أي العبادة التي أوجب الله عليك، فلا ينبغي أن تشتغل عنها بأهل ولا مال. ثم تتزود بما تستطيع من النوافل؛ فإنها نعم العون على ما تزاوله من أمور الحياة. كما أنها من الأسباب التي تحبب الرب إلى العبد فتجعله من حزه المفلحين، وأوليائه المقربين لحديث: «مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَاتُلِ حَتَّى أَحْبَبْتُهُ» إلى أن يقول: «وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيدَنَّهُ»^(٢) وإليكم الآن آية الحقوق العشرة:

١ - يقول سبحانه: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]. لما أمر بالعبادة نهى أشد النهي عما يبطئها؛ فقال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]. فالشرك يحبط الأعمال، ومن يشرك بالله فقد حبط عمله، و﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا

(١) رواه الحاكم من حديث معقل بن يسار وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» [المائدة: ٧٢]. وأخبر سبحانه بأنه لا أضل ممن يدعو مخلوقاً حياً أو ميتاً ويتوسل به ليشفع له عند ربه في قضاء حاجاته، وتفريج كرباته، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦]. وقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤]. وهو الله. وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦]. إنه لا أبلغ في الزجر من الشرك من القرآن الكريم.

والعجب أن عبدة القبور والأوثان في هذا الزمان، ينكرون تطبيق هذه الآيات على شركهم ويقولون: إنما نزلت هذه الآيات في المشركين الأولين، كأن الشرك والمشركين كانوا فانقضوا، وأنهم - بزعمهم - مغفور لهم في شركهم ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. فشرك المتأخرين أكبر وأنكر من شرك الأولين. والنبي ﷺ قد بُعث إلى الناس وهم متفرقون في عباداتهم، منهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، فقاتلهم جميعاً، ولم يفرق بينهم. فالذين يدعون الرسول ﷺ عند قبره، أو يدعون علياً، أو يدعون عبد القادر كلهم يعتبرون مشركين ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

٢- ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ففرن سبحانه حق الوالدين بحق نفسه الكريمة ولم يكل الإنسان إلى ما يجده في نفسه من الحنان. وفي الحديث: «رضا الرب في رضا الوالدين، وسخط الرب

في سخط الوالدين»^(١) فيجب أن يعاملها بالحنان والإحسان والعطف واللطف ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]. إن من ينسى إحسان الوالدين، وخاصة الأم التي حملته كرهاً، ووضعت كرهاً والتي أخذت تعاني المشاق في رضاعه وتمريضه وتنظيفه، وتسهر الليل كله أو بعضه في سبيل حياته وصحته، حتى يبلغ سن الرشد من عمره، وحتى قيل: إنه لن ينبت عمر إلا وقد أكل عمرًا.

إن من ينسى هذا كله، ثم يعامل والديه بالشدة والقسوة، إنه لرجل سوء، قد كفر نعمة تربية أبويه، وأبدل شكرهما كفرًا. وقد قيل: إن العقوق هو أحد الثقلين، ولرب عقم أقر للعين. «فَبَرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرُّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ، وَعَفُّوا تَعَفُّ نِسَاؤُكُمْ»^(٢).

٣- ثم قال: ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: وأحسنوا إلى أقاربكم وأرحامكم. والأقارب هم الإخوان والأخوات، والأخوال والخالات، والأعمام والعمات، وأولاد العم والعمة، وأولاد الخال والخالة، وكل من يمتُّ إليك بنسب، وفي الحديث: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ صَلَةَ الرَّحِمِ مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثَرِ»^(٣) فهي من الأعمال الميمونة التي تدر على صاحبها بالبركة، وسعة الرزق، والبركة في العمر. وفي الصحيحين، من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له في رزقه، ويمد له في عمره، فليصل رحمه». وقد أوجب الله لهم حقًا في كتابه المبين، فقال سبحانه: ﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبَذِيرًا ٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦]. وحسبك أن الله يقول: «أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة، وقال الحاكم: صحيح وأقره.

لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ»^(١). ومعنى «وصلته» أي: أوصلت إليه الخيرات، وأنواع البركات، في نفسه ونسله وماله. ومعنى «قطعته» أي: قطعت عنه أسباب الخير والبركة. فالواصل موصول، والقاطع مقطوع.

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحرور محروم

وصلة الأرحام تكون بإفشاء السلام، والتحفى والإكرام، وبالزيارة بالأقدام، وبإهداء التحف وأنواع الإكرام، كما في الحديث: «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»^(٢)، «فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تَسْلُ السَّخِيمَةَ»^(٣)، «تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ»^(٤) «وَلَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ مَنْ إِذَا قُطِعَتْ رَحْمَةُ وَصَلَهَا»^(٥) لكونه يعامل ربه بصلته، ولن يذهب العرف بين الله والناس. ٤- ثم قال: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي وأحسنوا إلى اليتامى وهم: من مات أبوهم قبل أن يبلغوا سن الرشد، ولا يُتَمَّ بعد البلوغ. فحث سبحانه على الإحسان إلى اليتامى؛ لكون الحاجة والمسكنة تحيط بهم بعد موت أبيهم ومريهم. و «خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ»^(٦) و «مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَا يَمْسَحْهُ إِلَّا لِلَّهِ؛ فَإِنْ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمَرٌ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَةٌ»^(٧).

٥- ثم قال: ﴿وَالْمَسْكِينُ﴾ وهم من أسكنهم الفقر. وفي الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالثَّمَرَةُ وَالثَّمَرَتَانِ وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ

(١) أخرجه الطبراني من حديث جرير وقد ضَعَّفَ لضعف أبي مطيع.

(٢) أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس.

(٤) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد، وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٧) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث حديث أبي أمامة.

غَنَى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ»^(١) وللسائل حق ولو جاء على فرس، ولو صدق السائل ما أفلح من رده.

٦- ثم قال: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: الجار الرحم. فإن له حق الإسلام، وحق الجوار، وحق الرحم.

٧- ثم قال: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ وهو الجار الغريب. فإن كان مسلماً فإن له حق الجوار وحق الإسلام. وإن كان كافراً فإن له حق الجوار بأن تحسن مجاورته. والنبي ﷺ قال: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُهُ»^(٢) وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»^(٣) وقيل: خير الجيران عند الله خيرهم لجاره. وخير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه. والنبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السَّوْءِ فِي دَارِ الْإِقَامَةِ؛ فَإِنْ جَارِ الْبَادِي يَتَحَوَّلُ»^(٤) وقد باع قوم عقارهم الغالي في نفوسهم من مضرة جيرانهم، وأنشد:

يلومونني إذ بعت بالرخص منزلي وما علموا جاراً هناك ينغص
فقلت لهم كفوا الملامة إنها بجيرانها تغلو الديار وترخص

٨- ثم قال: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ وهي الزوجة، فحث على الإحسان إليها، والعطف عليها، واللفظ بها، وقال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(٥) وقد قالوا: النساء يغلبن الكرام، ويغلبهن اللثام. كما سمعت من بعض العوام أنهم ودائع الشجعان، وفرايس الذلان. وقد خطب النبي ﷺ يوم عرفة فقال: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةٍ

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى من حديث عائشة وإسناده صحيح وفيه زيادة.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٥) رواه ابن ماجه من حديث ابن عباس، والترمذي من حديث عائشة وابن حبان في صحيحه من حديث ابن

عباس ومن حديث عائشة.

اللَّهُ وَاسْتَخْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ. فَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَن تَكْرَهُونَ، وَلَا وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَن تَكْرَهُونَ. وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(١) ولما قيل للنبي ﷺ: ما حق زوج أحدنا عليه؟ قال: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تَقْبَحَ - أَي لَا تَقُولَ: قَبْحَكَ اللَّهُ - وَلَا تُقَبِّحْهُ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»^(٢) فحرام أن يلعن زوجته، أو يلعن أباه وأمه، أو يقطع نفقته عنها بلا سبب يوجبها منها.

٩- ثم قال: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر الذي نفدت نفقته، واحتاج من الصدقة ما يوصله إلى بلده؛ فيعطى من الزكاة الواجبة، والصدقة المستحبة. ١٠- ثم قال: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ أي: وأحسنوا إلى من ملكت أيانكم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٧٥].

إن هذه هي الحقوق العشرة وهي الغاية في الاتصاف بمكارم الأخلاق. فمن وفقه الله لفعلها فليعلم أنها توفيق من الله له وهداية سيقته إليه، فمن واجبه أن يحافظ على إحسانه بكتمانه، ولا يحبط ثواب عمله بامتنانه؛ فإن الامتنان يبطل ثواب الإحسان، بحيث يقول: فعلت وفعلت. يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. فالمن هو أن يمتن عليه بها، والأذى هو أن يكثر من ذكرها في المجالس، مما يدل على الدناءة وعدم الكرم. وقد جعلوا الامتنان بالإحسان بمثابة الهدم للبنيان، وأنشدوا:

يرب الذي يأتي من الخير إنه إذا فعل المعروف زاد وتمما
وليس بكان حين تم بناؤه تتبعه بالنقض حتى تهدما
ولهذا قالوا: يحتاج الإحسان إلى ثلاثة: تعجيله، وتصغيره، وستره؛ أي: بعدم ذكره، كما قيل:
إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوباً ولا الهال باقياً

(١) رواه مسلم من حديث جابر.

(٢) رواه الحاكم من حديث أبي هريرة، وقال: صحيح وأقره.

ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. أي مختالاً في مشيئته، فخوراً على رَحِمِهِ وعلى الناس بصدقته، متكبراً على اليتامى والجيران والمساكين، متكبراً على أهله وزوجته.

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللکم، وتزودوا من دنياكم لآخرتكم، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

(٢٠)

الحياة الطيبة

وكونها لا تُدرَك إلا بالأعمال الصالحة

الحمد لله العفو الغفور، الرؤوف الشكور، الذي وفق من أراد هدايته لمحاسن الأمور، ومكاسب الأجور، فعملوا في حياتهم أعمالاً صالحة لوفاتهم، يرجون بها تجارة لن تبور. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله، اللهم صل على نبيك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. فوعد الله - ووعدته حق وصدق - كل من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى، بأن يحيا في الدنيا حياة سعيدة طيبة، يجد لذتها في نفسه، وتسري بالصحة والسرور على سائر جسمه، فيكون سعيداً في حياته، سعيداً بعد وفاته، فيحصل الحسنتين، ويفوز بالسعادتين: سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. ثم إن هذه الحياة الطيبة لا تُدرَك إلا بالأعمال الصالحة، ولا يُعَبَّرُ إليها إلا على جسر الثبات والاستقامة على الدين.

والحياة الطيبة: هي السعادة المنشودة في الدنيا وقد تكون طريقاً إلى سعادة الآخرة، فيكون ممن أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، فقد يحسب كثير ممن لا علم عنده أن الحياة الطيبة مقصورة على التمتع بالمآكل الشهية الملونة، والملابس المنوعة، والمراكب الفاخرة المرفهة، والقصور المشيدة المزخرفة، والنقود المخزونة المدخرة، وسائر ما يعد من وسائل

الرفاهية والسعة، فيظن أن هذا هو الغاية في السعادة والحياة الطيبة. ولا شك أن هذا الظن والحسبان لا يصدر إلا عن جهل عريق بفهم القرآن، وجفاء عميق بمعرفة سعادة الإنسان.

فإن التوسع في أمور الحياة، والتمتع بأنواع المشتبهات، هو أمر مشترك بين المسلمين والكفار، لأن الدنيا عَرَضٌ حاصر، يأكل منها البر والفاجر. والله سبحانه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب. بل إن التمتع بأنواع المشتبهات هو أمر مشترك بين الإنسان وبين بهائم الحيوان، فقد يكون حظ بعض الكلاب من الأكل المستطاب، أعظم من حظ بعض الناس، فمن فهم هذا وزال عنه الالتباس، فليعلم أن الحياة الطيبة لا تُدرك ولا تُنال إلا بالأعمال الصالحات، كما أنه لا يُعَبَّرُ إليها إلا على جسر الثبات والاستقامة على الدين، كالمحافظة على فرائض الصلوات، وكأداء فريضة الزكاة، وبسط اليد بالصدقات وصلة القربات، والإحسان إلى المساكين والأيتام وذوي الحاجات، والتفريج على المكرويين والمنكوبين من ذوي الهيئات، ثم التزود بنوافل العبادات. فَمَنْ لَزِمَ هذه الأعمال، وسعى سعيه في كسب المال الحلال، أحياه الله حياة سعيدة طيبة، يجد لذتها في نفسه، وتسري بالصحة والسرور على سائر جسمه، لأن هذه الأعمال هي من أسباب انشراح الصدر، وتيسير الأمر، وسعة الرزق، وزوال الهم والغم. والدنيا محفوفة بالأنكاد والأكدار، وبالسرور والأضرار، ولا يهذبها ويصفيها سوى الدين، وطاعة رب العالمين.

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

أما مجرد كثرة المال الخالي عن صالح الأعمال، فإنه لا يعد من سعادة الحياة، بل هو على الضد من ذلك، وقد سماه الله عذاباً، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]. فتجد صاحبه دائماً هُلُوّاً جَزَوْعاً جَمَوْعاً مَنَوْعاً، يُبْتَلَى بالهموم والغموم والأنكاد والأكدار حتى لا يكاد يمر السرور له بدار. ومن المعلوم أن الهموم والغموم والأنكاد والأكدار، أنها عقوبات تتوالى، ونار في القلب تتلظى، لا تزال تنفخ في الجسم حتى تجعل القوي ضعيفاً، والسمين نحيفاً كما قيل:

والهم يحترم الجسم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

ثم إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا مَنْ بَرَّ وَصَدَّقَ، وأدى حق الله الواجب عليه في ماله.

ومعلوم أنه لا بد للناس من تجارة، ولا بد لهم من تُجَّار، والمال هو ترس المؤمن في آخر الزمان. ولا يستغنى عن المال في حال من الأحوال. فمن أخذ المال من حِلِّه، وأدى منه واجب حقه، فنعم المعونة هو، ويكون له حسنات ورفع درجات في الجنات، لأن الأعمال الصالحات هي التي تصفي الحياة، ولها أثرها المترتب عليها، من سعة الرزق، وصحة الجسم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٢-٣]. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٤]. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا قَلْبَكَ غَنَى، وَأَسَدَّ فَقْرَكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسَدَّ فَقْرَكَ»^(١) وليس معنى التفرغ للعبادة أنه التخلي عن الدنيا، بترك البيع والشراء والأخذ والعطاء، والحرث والبناء، فإن هذا مذموم شرعاً؛ لأن دين الإسلام دين سعي وكسب، وكد وكدح، يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة يحب المؤمن القوي، والغني التقى، ويجب المؤمن المحترف، ويغض الفارغ البطل «إِنَّكَ إِنْ تَذَرُ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»^(٢) وقد استأذن أناس من الصحابة النبي ﷺ في أن يبيعوا عقارهم وأموالهم، ويشتروا بها خيلاً وسلاحاً يجاهدون عليها في سبيل الله. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك وقال: «أَمْسِكُوا عَلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، وَلَا تُفْسِدُوهَا»^(٣) واستأذنه بعضهم في أن يتصدق بهاله كله فنهاهم عن ذلك^(٤).

(١) رواه الحاكم من حديث معقل بن يسار وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٣) رواه مسلم من حديث جابر.

(٤) هو سعد رضي الله عنه.

واستأذنه عثمان بن مظعون في التبتل في العبادة، واعتزال الدنيا والنساء فنهاء عن ذلك، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص: «الْمُ أُخْبِرَ بِأَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ، وَتَصُومُ النَّهَارَ؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَإِنَّ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِرِزْوَرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»^(١)

إذا ثبت هذا فإن معنى «تفرغ لعبادتي» أي: أدّ العبادة التي أوجب الله عليك فلا ينبغي أن تشتغل عنها بأهل ولا مال، فمتى دخل وقت فريضة الصلاة وجب عليك أن تبادر بأدائها في وقتها في الجماعة، وأن تترك لأجلها البيع والشراء والأخذ والعطاء. وإذا حضرت فريضة الزكاة، وجب عليك أن تبادر بأدائها إلى مستحقها تقول: اللهم اجعلها مغنًا، ولا تجعلها مغرمًا.

فينبغي أن تكون الدنيا رخيصة في نفسك، عند حضور واجب حق الله عليك. وما استجلبت نعم الله واستدفعت بمثل المحافظة على طاعته.

وفي البخاري عن قتادة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يَتَجَرَّونَ، أي يبيعون ويشترُونَ، وبينون ويغرسون، ويسافرون للتجارة في البر والبحر، ولكنهم إذا ناهم أمر من أمور الله، أو حضرت فريضة من فرائض الله، لم تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، حتى يؤديه إلى الله، وفيهم وفي أمثالهم أنزل الله تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا تُلِهِمُ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۚ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ﴾ [النور: ٣٧-٣٨]. أي من فضل الدنيا وسعتها، بسبب محافظتهم على واجباتهم.

فالعامل الصالح هو همة التقي، ولا يضره مع ذلك لو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا، لأن الدنيا متاع يتمتع بها المؤمن إلى ما هو خير منها، فهو يحترف فيها بجوارحه، وقلبه متعلق بالعمل لآخرته يعمل في دنياه عملاً لا يضر بآخرته، ويعمل لآخرته عملاً لا يضر بدنيته، فمتى أدى واجب حق الله عليه، من صلاته وزكاته، وتزود من نوافل عباداته، فتح الله له أبواب

الرزق، وسهل له أسباب الكسب، وسلك في قلبه القناعة والرضا، التي هي غاية في الغنى، فإن الغنى ليس بكثرة المال، ولكن الغنى غنى القلب. وهذا معنى قوله: «تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى، وأسد فقرك» لأنه متى دخل الغنى والقناعة في القلب، فقد دخله الفرح والسرور والغبطة والحبور، فيعيش في نفسه وأهله عيشة راضية مرضية، وحياة سعيدة طيبة زكية، قد قنعه الله بما آتاه، ومتعه متاعاً حسناً في دنياه، وهذا هو حقيقة الحياة الطيبة، والغنى المطلوب. وسُمع من دعاء النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت أنه يقول: «اللَّهُمَّ قَنِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي وَبَارِكْ لِي فِيهِ وَأَخْلِفْ عَنِّي كُلَّ فَائِتٍ بِخَيْرٍ»^(١) وليس معنى الدعاء بالقناعة كونه يترك السعي في سعة رزقه، وتوسيع تجارتها، فإنه لا غنى للمؤمن عن بركة ربه والسعي في سعة رزقه، ومن دعاء النبي ﷺ أنه يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَوَسِّعْ لِي فِي دَارِي وَبَارِكْ لِي فِيْمَا أَعْطَيْتَنِي»^(٢) وهذا كله يعد من الحياة الطيبة، التي وعد الله بها كل من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن. ولن يخلف الله وعده، ومن ذاق منها عرف، ومن حرم انحرف.

وأما قوله: «وإن لم تفعل ملأت شغلاً ولم أسد فقرك» فإن هذه ضربة لازب^(٣) في حق كل من أعرض عن عبادة ربه وصرف جلَّ عقله، وجلَّ عمله، وجلَّ اهتمامه للعمل في دنياه، واتبع شهوات بطنه وفرجه، وترك فرائض ربه، من صلاته وزكاته، ونسي أمر آخرته، فإنه يُبتلى بفقير النفس، وشغل القلب. فتجده دائماً مهموماً مغموماً، جموعاً متنوعاً، سيئ الحال، لا يكاد يمر السرور له ببال، فيحيا حياة نكدية مكدرية، من أجل إعراضه عن عبادة ربه. يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَهِيْطْ مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّيْ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىْ فَلَا يَضِلُّ

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه، والحاكم في المستدرک، والبيهقي في شعب الإيمان، جميعاً من حديث ابن عباس، ورواه البخاري موقوفاً على ابن عباس في الأدب المفرد.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في الأوسط والصغير من حديث أبي هريرة، وابن أبي شيبة، والنسائي في الكبرى، من حديث أبي موسى.

(٣) أي: ثابتة ولازمة.

وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ [طه ١٢٣]. أي لا يضل في سعيه، ولا يشقى في حياته ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]. أي بعد وفاته. وهذه المعيشة الضنك، يُبتلى بها كل من أعرض عن عبادة ربه، ونسي أمر آخرته، حتى ولو كان عنده ما عنده من العقارات الثمينة، والتجارات العظيمة، والنقود المودعة في البنوك، فإنه يُبتلى بهذه المعيشة الضنك كأنه فقير ذات، فقير حياة، فقير من الحسنات، فهو لا يؤجر على فقره، فلا تغتروا بما ترونه من حسن بَرِّته،^(١) وجمال ثيابه. فإن الأنكاد والأكدار والشرور والأضرار محيطة به من جميع جهاته، فتتكدر عليه حياته، وتكدر صفو لذاته.

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا الْمَكْرُومَةَ فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا
وَرُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحٍ يَد فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

ولو سألت عمن هذا صفته لوجدتهم كثيرين في شتى البلدان، من التجار المكثرين، الذين غمرهم الله بنعمته، وفضلهم بالغنى على كثير من خلقه ثم يحمد قلب أحدهم على حب ماله، وتنقبض يده عن أداء زكاته وعن الصدقة منه، والصلة لأقاربه، والنفقة في وجوه البر والخير، الذي خُلِقَ لأجله. أتاه شيطانه فخوّفه، روعة زمانه وقلة ماله، فغلّ يده، ومنع ما عنده. ولم يزل ذلك دأبه حتى يخرج من الدنيا مذؤومًا مدحورًا، لا خيرًا قدمه، ولا إثما سلم منه، فيندم حين لا ينفعه الندم ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٤-٢٦].

وكم من مالك مالا كثيرا ولكن حظه منه قليل

ولسنا - بمدحنا للقناعة - نذم السعي والكسب والغنى، أو أننا نمدح الخمول والقعود والفقر. كلا والله، وإنما نمدح الغنيّ التقيّ، والمؤمن القوي، ذا الحول والقوة، الذي يسعى

بجده واجتهاده إلى توسيع تجارته، ثم التزود منها لآخرته، فيكون غنيًا بما له، غنيًا بصالح أعماله. آتاه الله الثروة والنعمة، فعادت عليه بالسعادة والرحمة بالرأي والتدبير، وصانها عن الإسراف والتبذير، وعاد بأداء زكاتها، وبالصدقة منها على الفقير والمسكين، وعلى الرحم واليتيم، فزكت نعمته وزادت، وثبتت ودامت، فكان عمله بارًا، ورزق الله عليه دارًا. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

أسأل الله سبحانه أن يعمننا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

تهذيب الأولاد على المحافظة على الفرائض والفضائل والتّنه عن مُنكرات الأخلاق والرذائل

الحمد الذي خلق الخلق ليعبدوه، ورَكَّبَ فيهم العقول ليعرفوه، وأسبغَ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ليشكروه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ الذي أوصى أمته بأن يخافوا ربهم ويتقوه. اللهم صل على عبدك، ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه، الذين أزروه ونصروه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله حق تقاته، وتدبروا ما أنزل إليكم من حِكَمِهِ وآيَاتِهِ، واعلموا أن الله تعالى لم يخلقكم عبثًا، ولم يضرب عنكم الذكر صفحًا، بل خلقكم لمعرفة وعبادته، وأمركم بتوحيده وطاعته. أوجب ذلك عليكم في خاصة أنفسكم وأن تجاهدوا عليه أهلکم، وأولادکم ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]. وأنزل عليكم في كتابه المبين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. فوقاية النفس من النار تحصل بأداء ما افترض الله، وترك ما حرم الله.

كما أن وقاية الأهل من النار تحصل بأمرهم بالخير، ونهيهم عن الشر، وتحصل بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، فما نحل والد ولده أفضل من أن ينحله أدبًا حسنًا، يدلّه به على الصلاح والهدى، ويردعه به عن السفاه والردى.

والأدب الحسن ليس مقصوراً على الضرب بالعصا، ولكنه تدريب الولد على العلم والهدى، وعلى الطاعة والتقوى، ومباعدته عن مواقع الفساد والردى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]. فمن أحب أن يحفظ في عقبه وعقب عقبه فليطع ربه، وليأمر بذلك من يحبه، فاحفظ الله يحفظك.

إنكم متى أهملتم تربية أولادكم، فلم تهذبوهم على أفعال الطاعات، والحضور بهم معكم في مساجد الجمع والجماعات للصلاة، فإنه لابد أن يتولى تربيتهم الشيطان، فيحبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُو شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُو قَرِينٌ﴾ [٣٦] وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]. إن الداء الضار بالولد والوالد هو إهمال الولد، وإلقاء حبله على الغارب، فلا يتفقه بالليل، ولا عند الصلاة، ولا يسأل عنه أين دخل، ولا أين خرج، وهذا غاية في الإهمال إذ إنه يلتقي بأهل السفاه والفساد، وهم أكابر مفسد لأخلاق الأولاد، فيكتسب منهم فنوناً من الضلال والخبال. فكم من رجل حسن الخلق نزيه العرض، عفيف الشرف، سليم العقيدة، اصطحب مع سفهاء الأحلام، وضعفاء العقول والأديان، فأفسدوا فضائله، وأوقعوه في الرذائل، وغيروا عقيدته، فسأت طباعه، وفسدت أوضاعه، وانتشر عنه الذكر الخامل، والسمعة السيئة.

إن الدواء الكريه المر النافع لن يستعمله الولد إلا بإيعاز من الوالد، وإن الله كيزع بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن، والرجل سلطان على أهل بيته «وَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١) فالمحب الصادق، هو من يجرع صديقه المر ليقيه من الوقوع في الضر، اسق ولدك مرّاً يصادف منه نفعاً، ولا تعدل عنه إلى حلو يضر.

فإن المرَّ حين يسُرُّ حُلُو وإن الحلو حين يضرُّ مُر

فالبطالة وترك الطاعة كلها شهية في نفس الشاب. فتراه يضحي بنفيس وقته في سبيل لهو ولعبة، بدون أن يحرص على تعلم ما ينفعه، فيكون لسانه لاغياً، وقلبه لا هياً.

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

وللتعليم الحسن أثره الحسن في نفس الصبي؛ لأن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، والتعليم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم. وصلاح التعليم ينجم عن صلاح الرأس والرئيس، ومن تَسَلَّمَ منصات التدريس، والصبيان مع الأساتذة بمنزلة الأعضاء مع اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإن استقممت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا.

والمعلم داعية بأفعاله مثل أقواله، لكون الدعاية بالأفعال أبلغ منها بالأقوال. فمتى كان المعلم يترك الصلاة أو يشرب الدخان، فإن هذا تعليم منه بفعله، لأن الأخلاق تتعادي، والطباع تتناقل، والمرء على دين أستاذه وخليله، فلينظر أحدكم من يخال. فكل تعلم وتعليم لا يظهر أثره على صاحبه من محافظته على الفضائل والفرائض، واجتنابه لمنكرات الأخلاق فإنه لا يرتفع به عند الله درجات، وإنما يسقط به في الجهل والضلال دركات، وغايته أن يكون صنعة من الصناعات.

غير أن المدارس مهما صلحت ونصحت؛ فإنها تحتاج - نمط مهمة نجاح الولد - إلى مساعدة الوالد، بحيث يراقب ولده في كل حالاته، فيحثه على تعلم ما ينفعه، ويباعده عن النوادي، وسائر ما يضره، ويدخله معه البيت بعد صلاة العشاء، ويأخذ بيده إلى المسجد معه ليؤدي فريضة ربه.

فالصلاة في المساجد وإن كانت ثقيلة في نفس الصبي، لكنه بمزاولته لها، والأخذ بيده إليها، يعود حبها ملكة راسخة في قلبه، تحببه من ربه، وتقربه من خلقه، وتصلح له أمر دنياه وآخرته؛ لأنها صلة بين العبد وبين ربه، وصلة بين العبد وبين إخوانه، فهي الدواء الناجح النافع تقيم أود^(١) الولد، وتصلح منه ما فسد، وتذكره بالله الكريم الأكبر، وتصدده عن الفحشاء والمنكر، يقول الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ﴿وَأَسْتَعِينُوا

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]. فمجاهدة الولد عليها هو من الجهاد في سبيل الله ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

والله إننا لنسمع بالشاب يحافظ على أداء فريضة الصلاة في المساجد والجماعات، فتقبل قلوبنا على محبته، ويرتفع في نفوسنا جلاله وهيئته، لأن الله إذا أحب عبداً أنزل محبته في قلوب عباده، وبضد ذلك، نسمع بالشاب معرضاً عن الطاعة، منهمكاً في البطالة، تبدر منه بوادر السوء، في الطعن في الدين، وبغض المتصفين به؛ فيسكن القلوب بغضه، والنفرة منه، لعلنا أنه فاسق في نفسه، وسيعود ضرره على مجتمع شبابنا.

فالوالد مدرسة لأولاده، وداعية إلى الاقتداء بأفعاله. فإن ترك الوالد الصلاة تركها أولاده. وإن شرب المسكرات شربها أولاده، أو شرب الدخان شربه أولاده. والتجربة المشاهدة في الحاضرين أعظم تصديق لوصايا الدين. فقد رأينا الأولاد الذين أهمل آبائهم تربيتهم، رأيناهم من أسوأ الناس سيرة، وأفسدتهم سريرة، رأيناهم يتقلبون فيما يعود بالضرر عليهم في حالهم ومآلهم ومآلهم قد أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، واستخفوا بحرمات الدين واتبعوا غير سبيل المؤمنين.

أما الذين تولى آبائهم تربيتهم، وزاولوهم على الحضور إلى المساجد للصلاة معهم، رأيناهم من أحسن الناس سيرة، وأصلحهم سريرة، رأينا أعمالهم بارة وأرزاق الله عليهم دارة ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا إلى ربكم، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

(٢٢)

قوله سبحانه:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة نرجو بها النجاة،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صاحب الآيات والمعجزات، اللهم صل على عبدك ورسولك
محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ
رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦]. فأخبر الله سبحانه أن المال والبنين زينة الدنيا.

فالمال يُجِلُّ صاحبه في العيان، ويُجَمِّله بين الأقران، ويحفظه عن السقوط في الذل والهوان.
وهو ترس المؤمن في آخر الزمان، ولا يُسْتغْنَى عنه في حال من الأحوال. وإن الكريم على
الإخوان ذو المال.

كما أن البنين هم الريحان وسلوة الزمان. فليس شيء يحفز الهمم، ويضحي بأرواح الأمم، كما
يحفز بهم كسب المال، وتوفيره للعيال، فترى الشخص يتحمل المشاق المتعبة، ويخوض
الأخطار الموحشة في سبيل كسب المال، وتوفيره للعيال، حتى إن بعض الناس ليحرم نفسه من
لذته وإنفاقه في سبيل حسنته، حرصاً على جمعه وتوفيره لذريته.

والمال مطلوب شرعاً، ومحبوب طبعاً، غير أن المقصود من المال هو أن يكون زينة في
الحياة، وسعادة بعد الوفاة، فمتى سلك صاحبه به مسلك الاعتدال، بأن أخذه من حِلِّه، وأدى

منه واجب حقه، كان له حسنات ورُفِعَ درجات في الجنات، فقد ذهب أهل الدثور بالأجور، ورفيع الدرجات. ونعم المال الصالح للرجل الصالح. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَصْرَةٌ حُلُوءٌ» ^(١) فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ - وفي رواية: فَمَنْ أَخَذَهُ بِطَيْبِ نَفْسٍ - بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» ^(٢) فالمال غاد ورائح، ويبقى من المال شرف الذكر وعظيم الأجر.

وكذلك البنون، فإنهم لن يكونوا زينة في الحياة، إلا إذا اتصفوا بالمحافظة على الفرائض والفضائل، واجتنبوا منكرات الأخلاق والردائل، لأن من اتصف بذلك، كان جديرًا بأن يطيع ربه ويبر والديه ويصل رحمه، ويخالق الناس بالخلق الحسن، فيكون بطانة حسنة لوالده، إن نسي شيئًا من الخير ذكره، وإن ذكر أعانه، وعلى أثر ذلك، ينتشر له الذكر الجميل، والثناء الحسن، الذي يذكر به في حياته، وبعد وفاته، كما قيل:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما قاته وفضول العيش أشغال

لأن الدين يهذب أخلاق الأولاد، ويزيل عنهم الكفر والشقاق والنفاق وعوامل الفساد، فما كان الدين في شخص إلا زانه، وما نُزِعَ من شخص إلا شانه. وقد أمرنا الله أن نقول: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرَيْتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]:

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويعديهم داء الفساد إذا فسد

ويشرف في الدنيا بفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد

أما إذا اتصف الولد بالسفاه والفساد، وترك واجباته، من صلاته وصيامه، وفسق عن أمر ربه، فإنه يكون غُصَّةً على والديه، يُكَدَّرُ عليها حياتها، وصفو لذاتها. ويكون فتنة على أهله وأقاربه، وسائر من يقاربه، كما حكى الله في كتابه بقوله: ﴿وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ

(١) أُنْتُ الخبر، لأن المراد الدنيا. قاله ابن حجر. وذكر الزركشي أن سبب التأنيث كون المراد: إن صورة هذا المال خَصْرَةٌ حُلُوءٌ.

(٢) متفق عليه من حديث حكيم بن حزام.

فَحَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْ زَكَوَّةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ [الكهف: ٨٠-٨١]. فكم من ولد في هذا الزمان أرهق أبويه طغيانًا وكفرًا.

فكم سليل رجاء للجمال أب
وأكثر النسل يشقى الوالدان به
أضاع داريك من دنيا وآخره
لا الحي أغنى ولا في هالك شفعا
فأصبح خزيًا بأعلى هضبة رفعا
فليتة كان عن آبائه دفعا

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. و ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. للتبعيض، فالزوجة التي هي عدو لك هي التي تأمر بك بعقوق والديك، وقطيعة أرحامك، والإساءة إلى جيرانك، فتطيعها في ذلك كله، فتكون بمثابة الصنم الذي تعبده في بيتك، لأن من أطاع مخلوقًا في معصية الله، فقد عبده، ويوشك أن يتسلط عليه بما يقتضي إفساد دينه ودنياه. وكذلك الولد الذي هو عدو لك، فإنه الولد التارك للصلاة، العاكف على شرب المسكرات وارتكاب المنكرات، وعلى أثر هذا تسوء طباعه، وتفسد أوضاعه، ويتعدى ضرره في فساد أخلاقه إلى إخوانه، وأخواته وأهل بيته.

وقد يكون فساد الولد بسبب من إهمال الوالد، لعدم عنايته بحسن تربيته، حيث أهمل أمره ونهيه، وألقى حبله على غاربه، فلا يسأل عنه أين دخل ولا أين خرج؟ ولا أين جاء ولا أين ذهب؟ وربما كان الوالد سيئ الطباع فاسد الأوضاع في نفسه، تاركًا للصلاة، شاربًا للدخان والمسكرات فيكون سوء فعله بمثابة التعليم السيئ لولده، فينشأ على فساد عقيدته، وسوء طريقته، لأن الوالد مدرسة لأولاده في الخير والشر، وإذا صلح الراعي صلحت الرعية، وإذا فسد الراعي فسدت الرعية، فعند فعل الولد لسائر الأفعال الفاسدة، يعود الوالد على نفسه باللائمة فيكون كما قيل:

فأول راضٍ سيرة من يسيرها
فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها

لقد كان من الواجب على الوالد أن يهذب نفسه بتحسين أخلاقه ومحافظة على واجباته، حتى يكون قدوة حسنة، ومدرسة صالحة لأولاده فيقتدوا به في حسن أعماله، ثم يضع الرقابة الصادقة على أولاده فيتفقددهم بالليل عند دخول بيته، ويأخذ بأيديهم إلى المسجد للصلاة معه، لأن من شبَّ على شيء شاب على حبه، ولأنه يأخذ يد الولد إليها، ومجاهدته على فعلها، يعود حبها ملكة راسخة في قلبه، تحببه إلى ربه، وتقربه من خلقه، وتصلح له أمر دنياه وآخرته؛ لأن الصلاة بمثابة الدواء للفرد، تقيم اعوجاج الولد، وتصلح منه ما فسد، وتذكره بالله الكريم الأكبر، وتصدّه عن الفحشاء والمنكر، فينطبع في قلبه محبة الفضائل، واجتناب منكرات الأخلاق والرذائل، يقول الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وإنكم متى أهملتم تربية أولادكم، فلم تهذبوهم على الصلاح والصلاة، وعلى اجتناب المنكرات، فإنه لا بد أن يتولى تربيتهم الشيطان، فيحبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وصدق الله العظيم ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُو شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُو قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

فقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. هذه الزينة مطلوبة شرعاً ومحبوبة طبعاً، فإن الله يحب الغني التقي، ويحب التاجر الصدوق، والله جميل يحب الجمال، طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، والله إذا أنعم على عبده نعمة، أحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وهذه كلها من زينة الدنيا المحبوبة، وهذه الزينة تفتنى وتبلى.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

والباقيات الصالحات هي روح الحياة النافعة الشافعة بعد الوفاة، فلا يضحي بالروح في سبيل إصلاح الزينة الفانية سوى الحمقى، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، فهم يهتمون بزينة الحياة، ولا يبالون بالأعمال الصالحات، التي هي روح الحياة، والتي هي خير ثواباً أي خير ما يثاب عليه الإنسان، وخير ما يرجوه ويدخره عند ربه بعد موته.

أتدرون ما هي الباقيات الصالحات؟

هي: المحافظة على فرائض الصلوات في الجماعات، وأداء الزكاة، وبسط اليد بالصدقات، وصلة القربات، والإحسان إلى المساكين والأيتام، وذوي الحاجات، ثم التطوع بنوافل الصلاة، وسائر العبادات، فمن لازم هذه الأعمال، وسعى سعيه في كسب المال الحلال، فقد فاز بزينة الحياة، والسعادة بعد الوفاة.

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

إن من الناس من يوسع الله عليه الغنى بالمال، لكنه لا يكتسب به زينة الحياة، ولا السعادة بعد الوفاة ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

خلقوا وما خلقوا المكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا

رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

ولو سألت عمن هذه حاله، لوجدتهم كثيرين في شتى البلدان، من التجار المكثرين الذين غمرهم الله بنعمته، وفضلهم بالغنى على كثير من خلقه، ثم يحمد قلب أحدهم على حب ماله، وتنقبض يده عن أداء زكاته، وعن الصدقة منه، والصلة لأقاربه، والنفقة في وجوه البر والخير، الذي خلق لأجله، ولم يزل هذا دأبه حتى يخرج من الدنيا مذووماً مدحوراً، قد خلف ماله كله، فلا خيراً قدمه، ولا إثماً سلم منه، فيصير ماله عذاباً عليه في الدنيا، وعقاباً عليه في الآخرة.

إن الله سبحانه قص علينا في كتابه خبر من أنعم الله عليه بالغنى فشكر، وخبر من أنعم عليه بالغنى فطغى واستكبر، قال في صفة التجار الأتقياء: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧] لِيَجْزِيَهمَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ [النور: ٣٧-٣٨]. أي من سعة الرزق وبركته، وقال في ضده: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ

﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

فمن رزقه الله من هذا المال رزقاً فليبادر بأداء زكاته، ولينفق منه سرّاً وعلناً، حتى يكون أسعد الناس بماله، وحتى يكون ماله زينة له في الحياة؛ ومن الباقيات الصالحات بعد الوفاة، ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعمننا وإياكم بعفوه. وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(٢٣)

وصية لقمان لابنه

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة مبرأة من كل قول واعتقاد لا يحبه الله ولا يرضاه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي اصطفاه من بين خلقه واجتبه. اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تمسك بسنته واتبع هداه.

أما بعد:

فيا أيها المستمعون الكرام، إنما فُضِّلَتْ هذه الأمة على سائر الأمم بتمسكها بالإسلام، وعملها به على التمام، من اتباعهم لأوامر القرآن الذي هو معجزة الدهور، وآية العصور، وسفر السعادة، ودستور العدالة، والداعي إلى الفضيلة، والراعي عن الرذيلة. فلو تدبر أحدكم كتاب الله، وعمل بما فيه من المواعظ الفصيحة، والوصايا الصحيحة، لصار سعيدًا في نفسه، سعيدًا في أهله، سعيدًا في مجتمع قومه، ولصار ودودًا محمودًا، ولما صار جبارًا متكبرًا عنيدًا.

إن الله سبحانه قص علينا وصية لقمان لابنه للعظة بها والعمل بموجبها، لأن الاعتبار في القرآن هو بعموم لفظه لا بخصوص سببه. فهو يتمشى على حد:

إياك أعني واسمعي يا جاره وخير الناس من وعظ بغيره

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ [لقمان: ١٣]. فنهاه عن الشرك وحذره منه لأنه محبط للأعمال كلها ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ

بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة: ٧٢].

والشرك نوعان: أكبر وأصغر.

فالشرك الأكبر: هو أن يدعو قبرا أو وليا أو نبيا أو ملكا أو شجرا أو حجرا أو غير ذلك. فيتوسل بهم في قضاء حاجاته، وتفريج كرباته. فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يُغفر لأن الدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة، من صرفه لغير الله، فقد أشرك بالله. فهؤلاء الذين يدعون الأموات، ويتوسلون بهم، ويزدحمون رجالا ونساء على قبورهم، يعتبرون مشركين برهم، لأن الشرك اعتقاد وقول وعمل.

وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ ۖ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

ثم قال: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. ففي هذه الآية الإخبار بإحاطة علم الله بعباده، وأنه لا تخفى عليه خافية من أحوالهم وأعمالهم، لأنه سبحانه يرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [١٣] أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ [الملك: ١٣-١٤]. «وَالْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١) ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ [٢١] إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢﴾ [الشعراء: ١١٨-١٢٠].

اجتمع في المسجد الحرام ثلاثة نفر؛ قريشيان وثقفي - أو ثقفيان وفُرشي - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم. فقال بعضهم لبعض: أترون أن الله يسمع كلامنا؟ فقال بعضهم:

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب.

يسمعنا إذا جهرنا ولا يسمعنا إذا أخفينا. فقال الآخر: إن كان يسمعنا إذا جهرنا فإنه يسمعنا إذا أخفينا. فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى لديه يغيب

كانت عائشة رضي الله عنها تقول: سبحان من وسع سمعه الأصوات، لقد أتت المجادلة - أي خولة بنت ثعلبة - تشتكي إلى رسول الله من زوجها، وإنني لفي كسر البيت أسمع بعض كلامها، ويخفى علي بعضه. فما برحت من مكانها حتى سمع الله شكوها، وأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]^(١).

ثم قال: ﴿يَبْنِي أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. فأمره سبحانه بإقام الصلاة، وذلك بأن يأتي بالصلاة مقومة معدلة بخشوع وخضوع في القيام والسجود والركوع، لأن لب الصلاة الخشوع، وصلاة بلا خشوع كجسد بلا روح. و﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَادِعُونَ ^(٢)﴾ [المؤمنون: ١-٢]. لأن للصلاة ميزاناً توزن به، من وفائها وفى له الله الأجر، وصعدت صلاته ولها نور، تقول: حفظك الله كما حفظتني. وفي هذا دليل على أن الصلاة من الشرائع القديمة، وأنها كُتبت على من كان قبلنا، كما فرضت علينا.

وثبت عنه عليه السلام أنه قال: «أشد الناس سرقة الذي يسرق من صلاته». قالوا يا رسول الله وكيف يسرق من صلاته؟ قال: «لَا يَتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا»^(٢) ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يصلي

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه والبخاري تعليقاً.

(٢) رواه أحمد والحاكم، وصحح إسناده من حديث أبي قتادة، قاله العراقي، وكذا رواه أحمد وابن خزيمة والطبراني بلفظ: «أسوأ الناس...» إلخ، أفاده المنذري.

ولم يطمئن في الركوع، ولا في السجود، قال له: «ما صليت، ارجع فَصَلْ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». فعل ذلك ثلاثاً^(١) أما إذا ترك الإنسان الصلاة عمداً، فإنه عين الكفر بالله لقول النبي ﷺ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشَّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ، مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(٢)، وقال: «الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(٣) وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ»^(٤).

وروي بأنه: «لا دين لمن لا صلاة له، إِنَّمَا مَوْضِعُ الصَّلَاةِ مِنَ الدِّينِ كَمَوْضِعِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ»^(٥) ولهذا كان السلف الصالح يسمونها الميزان، فإذا أرادوا أن يبحثوا عن دين إنسان سألوا عن صلاته، فإن حُذِّثُوا بأنه يحافظ على أداء الصلوات في الجماعات علموا بأنه ذو دين. وإن حُذِّثُوا بأنه لا حظ له في الصلاة، علموا بأنه لا دين له. ومن لا دين له جدير بكل شر، بعيد عن كل خير. وعادم الخير لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه. ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَاتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا هُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

فالصلاة هي أم الفضائل، والناحية عن منكرات الأخلاق والردائل. تذكر بالله الكريم الأكبر، وتصد عن الفحشاء والمنكر. تفتح باب الرزق وتيسر الأمر، وتزيل الهم والغم. يقول

(١) ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه، كلهم من حديث جابر.

(٣) رواه من حديث بريدة أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح. وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح ولم تعرف له علة.

(٤) رواه أحمد والطبراني في الكبير، وإسناد أحمد صحيح لو سلم من الانقطاع، فإن عبد الرحمن بن جبير بن نفير لم يسمع من معاذ، وفي الأوسط للطبراني بإسناد لا بأس به في المتابعات، وهو حديث طويل في النهي عن الشرك وعقوق الوالدين وترك الخمر والفواحش.

(٥) رواه الطبراني في المعجم الأوسط والصغير من حديث ابن عمر.

الله سبحانه: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

فالإيمان بالبعث والجزاء والأعمال هو الذي يقوي القلوب، وينشط الأجساد على أداء فرائض الصلوات وسائر العبادات، ويجعلها سهلة في نفوسهم، غير ثقيلة عليهم.

ثم قال: ﴿وَأُمِرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. فأمره بأن يأمر بالمعروف، وهو ما عرفت العقول السليمة، والفطر المستقيمة حسنة، من سائر أفعال الخيرات والطاعات. وأن ينهى عن المنكر وهو ما تنكره العقول السليمة، والفطر المستقيمة، لأن الأمر بالمعروف من واجبات الدين، وطاعة رب العالمين. وهو نوع من الجهاد في سبيل الله، الذي هو سنام الإسلام، ولأن المحسن شريك المسيء إذا لم ينهه. كما أن النهي عن المنكر هو مما يسبب قلة فعل المنكر، وعدم فشوه وانتشاره. والمعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا ظهرت فلم تُغَيَّرْ ضرت العامة لسكوتهن عن إنكارها.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١]. وقد لعن الذين كفروا من بني إسرائيل من أجل أنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٩]. ولهذا قال النبي ﷺ: «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يد السفية ولتأطرنَّه على الحق أطراً - أي تلزمونه بالحق إلزاماً - أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»^(١).

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً فاستمعوا له.. فقال: «مثل القائم في حدود الله - أي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - ومثل الواقع فيها - أي الفاعل للمنكرات - كمثل قوم

(١) رواه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود.

استهموا في سفينة، فكان بعضهم في أعلاها - أي في السطح - وبعضهم في أسفلها - أي في الخن - فقال الذين في أسفلها: لو خرقنا خرقاً نتناول منه الماء من عندنا، ولا نمر على من فوقنا» ومعلوم أنه إذا تمَّ لهم فعلُ هذا الأمر، فإنه الغرق للسفينة ومن فيها؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «فإن أخذوا على أيديهم ومنعوهم - أي بالقوة - نجوا ونجوا جميعاً، وإن تركوهم وما يفعلون، هلكوا وأهلكوا جميعاً»^(١) فهذا المثل مطابق للواقع، وهو أن المنكرات إذا ظهرت فلم تُغيَّر، عمَّ عقابُها الصالح والطالح. فليعتبر المعتبر بالبلدان التي قُوِّضَتْ منها خيام الإسلام، وتظاهر الناس فيها بالكفر والفسوق والعصيان، وترك فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات. كيف حال أهلها؟ وما دخل عليهم من النقص والجهل، والكفر وفساد الأخلاق والعقائد والأعمال، حتى صاروا بمثابة البهائم يتهارجون في الطرقات، لا يعرفون صيماً ولا صلاة، ولا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون من قبيح، ولا يبتدون إلى حق.

ذلك بأن المنكرات متى كثر على القلب وروذها، وتكرر في العين شهودها، ذهبت عظمتها من القلوب شيئاً فشيئاً، إلى أن يراها الإنسان فلا يرى بقلبه أنها منكرات، ولا يمر بفكر أحدهم أنها معاصٍ. وذلك بسبب سلب القلوب نور التمييز والإنكار، على حد ما قيل: إذا كثر الإمساس قل الإحساس. وهذا هو عين الهلاك للأخلاق، فإن بقاء الأمم في استقامة أخلاقها، فإذا ذهبت أخلاقهم ذهبوا، يقول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فمتى زال من الناس الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد زال عنهم الخير، وصاروا من أشر الناس.

ثم قال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. لأن من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فإنه لا بد أن يُؤدَّى ويُمْتَحَن، كما قال النبي ﷺ: «لَقَدْ أُودِيَ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤدَّى أَحَدٌ وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ»^(٢) ولما ذهب إلى الطائف يريد من

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي وابن ماجه وابن حبان من حديث أنس بإسناد صحيح.

ثقيف أن يُؤوِّوه، وينصروه، حتى يبلغ رسالة ربه، فأشَلُّوا عليه سفهاءهم، فأخذوا يضربونه بالحجارة، حتى أدموا عقبه، وهم يقولون: ساحر مجنون. فرجع عنهم كئيِّبًا حزينًا، حتى أتى وادي نخلة فصلى بها، وأخذ يدعو بهذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُوا إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ. أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي؟ إِلَى قَرِيبٍ يَتَجَهَّمَنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلَكَتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أَبَالِي، غَيْرَ أَنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ مِنْ ذَنْبِي. أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ عِقَابُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(١).

ثم قال: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]. أي لا تتكبر عليهم، فإن من تكبر على الناس وضعه الله، والمتكبرون يحشرون يوم القيامة في صور الذين يطؤونهم الناس بأقدامهم، من أجل أنهم يتصورون الناس في أعينهم بمثابة الذر من أجل الكبر.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمَوْطُؤُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ». «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشَرَارِكُمْ؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «هَمُّ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ الْأَحْبَةِ، الْبَاغُونَ لِلْبَرَاءِ الْعَثَرَاتِ»^(٢).

إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك في زي مسكين
هذا الذي حسنت في الناس سيرته وذاك يصلح للدنيا وللدين

ثم قال: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ^(١٩). [لقمان: ١٨-١٩]. فأمره بالاقتصاد في المشي وذلك باستعمال التآني، وتوقي المحذور. وبالخصوص عندما أصبح السير على سيارات الحديد التي ينجم عنها البأس الشديد. وقد تزايد

(١) رواه الطبراني في الكبير وفي الدعاء من حديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة، ومن حديث أبي سعيد الخدري.

ضررها، وتفاقم خطرهما. والغالب في الضرر من الانقلاب والصدم.. إنما يقع من سبيل الاستعجال وعدم التأني، لأنها بسرعتها قد أثرت في القلوب شيئاً من السرعة الزائدة وما أحسن ما قيل:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

والناس يدركون أن كمال عقل الرجل ورزاقته في اعتدال سيره، وعدم استعجاله، كما أنهم يدركون خفة عقل الرجل وطيشان حلمه في سرعة سيره. فهذا دائم التعرض للبلاء على نفسه وعلى الناس. وقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ لَخَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ , وَالْأَنَاءُ». فقال: الحمد الحمدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ».^(١)

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللکم، وحافظوا على فرائض ربکم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري.

في حقوق الزوجة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبالعامل بطاعته تطيب الحياة، وتفيض الخيرات، وتنزل البركات. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص له في الأقوال والأعمال والنيات. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صاحب الآيات والمعجزات، اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه المتصفين بالفضائل والكمالات، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيقول الله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

خلق الله آدم أبا البشر حين خلقه فريداً وحيداً ليس له جليس ولا أنيس، فكان يهيم في الفلوات، ويستوحش في الخلوات، لا يقر له قرار، ولا يأوي إلى أهل ولا دار، فبينما هو كذلك في حالة اضطراب، وفي حال همٍّ وغمٍ واكتئاب، فنام نومة ولم يشعر إلا وقد خلق الله له من ضلعه الأعلى امرأته حواء بشرًا سويًا. فسكن إليها، وأنس بها، واطمأن معها، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الروم: ٢١]. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلِقن من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج، فإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»^(١).

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

التزوج من سُنن المرسلين، وهو ضرورة من ضروريات حياة الآدميين لأنه سبب لإيجاد البنات والبنين، والعُزَّاب هم أراذل الأحياء، وشرار الأموات. جاء ثلاثة نفر إلى باب رسول الله ﷺ يسألون عن عبادة رسول الله ﷺ، فلما أُخبروا بها، كأنهم تقالُّوها. فقالوا: أين نحن من عبادة رسول الله! فقال أحدهم: أما أنا فأقوم الليل ولا أرقد أبداً. وقال الآخر: أما أنا فأصوم النهار ولا أفطر أبداً. وقال الآخر: أما أنا فأتبتل في العبادة وأعتزل النساء. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له، لَكِنْ أَصَلَّى وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١)

فأخبر النبي ﷺ أن التبتل في العبادة، والانقطاع عن الأهل، وعدم التزوج، بأنه ليس من هديه ولا شرعه. وقال: «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَرُوجُهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»^(٢) وَرُوي: «ثَلَاثَةٌ لَا تُؤَخِّرُهَا الصَّلَاةُ إِذَا أَتَتْ وَالْجَنَازَةُ إِذَا حَضَرَتْ وَالْأَيْمُ إِذَا وَجَدَتْ كُفُؤًا»^(٣) فمتى تيسر قران الشخص بزوجة دينية صالحة، فليعلم أنه قد تحصل على سعادة وافرة، فإن الدنيا متاع وخير المتاع الزوجة الصالحة، التي إذا نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله.

فمن واجب هذه النعمة أن يعاشر هذه الزوجة بالمعروف وبالإكرام، والاحترام وحسن الخلق، وطيب الكلام. ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا»^(٤) وقال: «اتقوا الله في الضعيفين: المرأة واليتيم»^(٥)

(١) متفق عليه من حديث أنس.

(٢) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي والحاكم من حديث علي، قال الترمذي: ليس بمتصل. وجزم غيره بضعفه.

(٤) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

(٥) وفي رواية البيهقي في الشعب زيادة: «المرأة الأرملة والصبي اليتيم» من حديث أنس بن مالك قال: كنا

عند رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة... فذكره.

وسأل معاوية بن حيدة النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت» وطاف بيت رسول الله ﷺ نساء يشكين أزواجهن. فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكين من أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»^(١) يقول الحكماء: إن النساء يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام. وما استقص كريم قط. والنبي ﷺ يقول: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»^(٢)

فهؤلاء الأقوام الذين يعاملون نساءهم باللعن والسب، وشتم الآباء والأمهات، والخط من أقدارهن بقذفهن، هم يعتبرون من شرار الناس الذين ساءت طباعهم، وفسدت أوضاعهم، ويتأسى بهم أولادهم في إساءة أخلاقهم.

أما خيار الناس فهم ينزهون أنفسهم وألستهم، ويصونون أحسابهم وأحساب أنسابهم عن هذه المعاملة الفاسدة، والأقوال السافلة، ويعاشرون أهلهم بالإكرام والاحترام وطيب الكلام، ويتمتع بأهله في عيشة هنية، ومعاشرة مرضية، يعامل أهلهم بالوفاق وبحسن الأخلاق. إذا دخل بيته سلم على أهله، والسلام من أسباب المحبة والألفة، وينشر في البيت البركة والرحمة. كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ يَكُونُ بَرَكَهٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»^(٣).

أما الرجل فمتى أبغض زوجته، وأخذ يضارها ويضربها لتفتدي منه بهاها، ويقطع نفقته عنها، وربما كان معها منه ولد ترضعه، أو عيال يعولهم، فيهجرهم. ويقطع إحسانه عنهم. فهذا ظلم وحرام، ولا يفعله سوى الأراذل اللئام. يقول الله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لَّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وفي الحديث: «كَفَى بِالرَّجُلِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»^(٤).

(١) رواه أبو داود من حديث إياس بن عبد الله بن أبي ذباب.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الترمذي وصححه من حديث أنس.

(٤) رواه أبو داود والنسائي والحاكم إلا أنه قال: «من يعول» وقال: صحيح الإسناد.

أما المرأة فمن واجبها إكرام زوجها واحترامه، وألا تُسمِعه من الأقوال إلا ما يجب، وأن تحتنب السب واللعن له، أو لعيالها منه، وأن تحتنب معاشرة الأغيار من الأجانب الذين يسعون بإفسادها وهدم شرفها وشرف بناتها. لأن المرأة مدرسة لأهل بيتها، فإذا أن تكون مدرسة صالحة لنَبَتِ الخير والصلاح في البنين والبنات، أو أنها مدرسة فاسدة، تفسد تربية من تتولاه من البنين والبنات. فالمرأة تأمر عيالها بالوضوء، وبالصلاة عند دخول وقتها، وتربي بناتها تربية حسنة، فتلبسهم الثياب السابعة الساترة التي تستر بها جميع بدنها، وتجنبهم الثياب القصار التي هي لباس الذل والصغار، لباس الخزي والعار، لباس المتشبهات بالكفار، وهو اللباس الذي يبدو منه يد المرأة إلى حد الآباط، ورجلها إلى نصف الساق، ويبدو منه الرأس والرقبة والنحر، فهذا لباس التبرج الذي نهى الله عنه في كتابه المبين، وقد صار محبوباً لدى عشاق التفرنج الذين ضعف تمسكهم بالدين، فكانت المرأة منهم تتزين بالثوب القصير الضيق الذي يصف كل شيء من جسمها، حتى تكون شبه العارية، كما أخبر النبي ﷺ عن نساء أهل النار بأنهن: «كَاسِيَاتٌ عَارِيَّاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ، لَا يَجِدْنَ عَرَفَ الْجَنَّةِ» ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]^(١) يعني ريجها. ويرحم الله نساء الصحابة من المهاجرين والأنصار، لما نزل قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. عمدن إلى مروط كثيفة، فشققنها على رؤوسهن وأبدانهن، فخرجن لا يعرفهن من التستر أحد^(٢).

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة بلفظ: شققن مروطن فاخترمن بها.

(٢٥)

الصلاة في الجماعة

وصفة الصلاة المشروعة

الحمد لله، ونستعين بالله، ونصلي ونسلم على رسول الله. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

أما بعد:

فإن الله سبحانه خلق الخلق لعبادته، وأمرهم بتوحيده وطاعته. أوجب ذلك عليهم في خاصة أنفسهم، وأن يجاهدوا عليه أهلهم وأولادهم.

فرأس الطاعة بعد الشهادتين: الصلاة التي هي عمود الديانة ورأس الأمانة، تهدي إلى الفضائل، وتكف عن الرذائل، تذكر بالله الكريم الأكبر، وتصد عن الفحشاء والمنكر، تفتح باب الرزق، وتيسر الأمر، وتشرح الصدر، وتزيل الهم والغم. وهي من أكبر ما يستعان بها على أمور الحياة، وبسط الخير، وكثرة البركات، وقضاء الحاجات.

وكان الصحابة إذا حزبه أمر من أمور الحياة، أو وقعوا في شدة من الشدات فزعوا إلى الصلاة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. فهي قرة العين للمؤمنين في الحياة. كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءُ وَالطَّيِّبُ وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)

(١) رواه أحمد في مسنده، والنسائي والحاكم والبيهقي في السنن من حديث أنس، وإسناده جيد.

وهي خمس صلوات مفرقة بين سائر الأوقات؛ لئلا تطول مدة الغفلة بين العبد وبين ربه، من حافظ عليها كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة.

وهي أول ما فرض من العبادات، كما أنها آخر ما يُفقد من دين كل إنسان، فليس بعد ذهابها إسلام ولا دين.

وقد وصفها رسول الله ﷺ في تكفيرها للخطايا، بمثابة نهر غمر - أي كثير - يغتسل منه المسلم كل يوم خمس مرات، فهل يبقى من درنه شيء؟ فكَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَاةِ. وقال: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»^(١) سميت صلاة من أجل أنها صلة بين العبد وبين ربه. فالمصلي متصل بربه، موصول من برّه وفضله وكرمه، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ أَمْرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُبُ وَجْهَهُ قَبْلَ وَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ فِي صَلَاتِهِ»^(٢).

ولهذا من نوع الاستفتاح في الصلاة أن يقول: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. فالمصلي موصول من برّه وكرمه وفضله. كما أن التارك للصلاة منقطع عن ربه، ليس من أولياء الله، ولا من حزبه. والواصل موصول، والقاطع مقطوع.

و«من صلى العشاء في جماعة كان في ذمة الله حتى يصبح، ومن صلى الفجر في جماعة، كان في ذمة الله حتى يمسي»^(٣)، وقال: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ كُلَّهُ»^(٤)

أما التارك للصلاة عمداً فإنه قد وقع في الكفر وهو لا يشعر، لما في الصحيح عن جابر أن النبي ﷺ قال: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة، من تركها فقد كفر» وفي حديث بريدة

(١) رواه أحمد في مسنده ومسلم والترمذي من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث الحارث الأشعري.

(٣) رواه ابن ماجه بسند صحيح من حديث سمرة.

(٤) رواه مسلم وأبو داود من حديث عثمان بن عفان.

أنه ﷺ قال: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(١) وكان السلف يسمون الصلاة الميزان، فإذا أرادوا أن ييحثوا عن دين إنسان سألوا عن صلاته. فإن حُدِّثوا بأنه يحافظ على الصلاة علموا بأنه ذو دين، وإن حُدِّثوا بأنه لا حظ له في الصلاة علموا بأنه لا دين له. ومن لا دين له كان جديرًا بكل شر، بعيدًا عن كل خير. وعادم الخير لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه.

فالصلاة بما أنها نعيم المؤمنين، فإنها ثقيلة على المنافقين الذين لا يرجون بفعلها ثوابًا، ولا يخافون بتركها عقابًا. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]. فنفى الله عنهم العقل الصحيح؛ لعدم إجابتهم لنداء الصلاة الذي هو نداء بالفلاح، والفوز والنجاح. وفي الحديث: «من دُعي إلى الفلاح فلم يجب لم يُرد خيرًا ولم يُرد به خير»^(٢) وكان الصحابة يعدون المتخلف عن الصلاة في الجماعة منافقًا، يقولون ذلك ولا يتأثمون، كما في صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: من سره أن يلقي الله غداً مسلماً فليحافظ على هذه الصلوات الخمس في الجماعة، فإنهم من سنن الهدى. وإنكم لو صليتم في بيوتكم كما يصلي المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة عن الجماعة إلا منافق معلوم النفاق.

إن أعظم الناس بركة، وأشرفهم مزية ومنزلة الرجل يكون في المجلس، وعنده جلساؤه وأصحابه وأولاده، فيسمعون النداء بالصلاة، فيقوم إليها فرحًا، ويأمر من عنده بالقيام إلى الصلاة معه، فيؤمُّون مسجداً من مساجد الله لأداء فريضة من فرائض الله، يعلوهم النور والوقار على وجوههم، كل من رآهم ذكر الله عند رؤيتهم، أولئك الميامين على أنفسهم، والميامين على جلسائهم وأولادهم، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

وبضد هؤلاء قوم يجلسون في المجالس وفي المقاهي، وفي النوادي وفي ملاعب الكرة. فيسمعون النداء بالصلاة ثم لا يقومون. ألسنتهم لاغية، وقلوبهم لاهية، قد ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ

(١) رواه الترمذي عن بريدة وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث جندب بن عبد الله.

الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ [المجادلة: ١٩].

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويُسعد الله أقواماً بآقوام

فجاهدوا أنفسكم على فرائض ربكم، وخذوا بيد أولادكم إلى الصلاة في المساجد معكم، فإن من شبَّ على شيء شاب على حبه، ولأنه بأخذ يد الولد إليها، ومجاهدته عليها، يعود حبها ملكة راسخة في قلبه، تحببه إلى ربه، وتقربه من خلقه، وتصلح له أمر دنياه وآخرته؛ لأنها تقيم اعوجاج الولد، وتصلح منه ما فسد، وتذكره بالله الكريم الأكبر، وتصدّه عن الفحشاء والمنكر، فإنكم متى أهملتم تربية أولادكم، فلم تهذبوهم على فعل الصلاة في المساجد معكم، فإنه لا بد أن يتولى تربيتهم الشيطان، فيحبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

إن المصلي ينبغي له أن يستحضر بقلبه بأنه واقف بين يدي ربه، فيخشع له ويخضع، ويضع يده اليمنى على اليسرى على صدره، أو فوق سرته.

إن الصلاة لا تكون صلاة شرعية ولا مقبولة، حتى تقع على نهج ما سنه رسول الله ﷺ في الصلاة. ففي الصحيحين أن رجلاً دخل المسجد فصلى، ثم جاء فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام، ارجع فصل فإنك لم تصل» فعل ذلك ثلاثاً. فقال: والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا فعلمني.

وإنه ينبغي لنا أن نصغي بالأذان، ونفرغ الأذهان، لنستفيد من تعليم رسول الله ﷺ لهذا الأعرابي الجاهل. فقال: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوُضُوءَ» لأن مفتاح الصلاة الطهور. ولا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ، وقد فرض الوضوء مع فرض الصلاة. قال: «ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وَكَبِّرْ» فاستقبال القبلة للصلاة شرط إلا أن يكون في السيارة، أو في طائرة؛ فإنه يصلي حيث توجهت به، مستقبل القبلة أو مستدبرها. ولم يأمره رسول الله ﷺ بأن يقول: نويت أن

أصلي كذا، أو كذا؛ لأن النية قلبية، والتلفظ بها بدعة. ثم قال: «واقراً ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راکعاً» والاطمئنان هو السكون والركود، ويقول: سبحان ربي العظيم، ثلاث مرات، أدنى الكمال. ثم قال: «وارفع حتى تعتدل قائماً» أي حتى يصلب رأسك وجسمك بعد الرفع من الركوع كما في الحديث: «لا صلاة لمن لم يقيم صلبه من الركوع». ثم قال: «ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً» أي حتى تسكن وتركد في سجودك وتقول: سبحان ربي الأعلى، ثلاث مرات، ثم ارفع حتى ترتفع جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً. ثم قال: «ثم افعل ذلك في صلاتك كلها» فهذه هي الصلاة المشروعة، التي تصعد إلى الله ولها نور فتقول: حفظك الله كما حفظتني.

أما الذي يصلي ولا يطمئن في الركوع، ولا في السجود، ولا في سائر أفعال الصلاة، فإن صلاته تُلف كما يُلف الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني. فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللکم، وحافظوا على فرائض ربکم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

فرض الزكاة وفضلها وبركة المال المزكى وحسن عاقبته

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن همزات الشياطين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(١) فهذه هي أركان الإسلام لمن يسأل عن الإسلام، وهي الفرقان بين المسلمين والكفار، والمتقين والفجار، كما أنها محك التمحيص لصحة الإسلام، بها يُعرَف صادق الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان، وكل من تأمل القرآن، يجده مملوءاً بالأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لأن الصلاة عمود دين الإسلام، كما أن الزكاة أمانة الله في مال كل إنسان؛ لأن الله سبحانه قد افترض في أموال الأغنياء بقدر الذي يسع الفقراء، ولن يجهد الفقراء، أو يجوعوا، إلا بقدر ما يمنعه الأغنياء من الحق الواجب لهم في ما لهم. «وقد أمر النبي ﷺ بأن يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة»^(٢).

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر.

ولهذا استباح الصحابة قتال المانعين للزكاة، وعدّوهم مرتدين بمنعها. ولما بلغ عمر بن الخطاب أن قومًا يفضلونه على أبي بكر. قال: أما أني سأخبركم عني وعن أبي بكر: إنه لما مات رسول الله ﷺ ارتدت العرب فمنعت زكاتها؛ شاءها وبغيرها. فاتفق رأينا أصحاب محمد ﷺ أن أتينا إلى أبي بكر الصديق. فقلنا: يا خليفة رسول الله، إن رسول الله ﷺ كان يقاتل الناس بالوحي والملائكة، يمدّه الله بهم، وقد انقطع ذلك اليوم، فالزم بيتك، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب كلهم. قال: أوكلكم على رأي هذا؟ قلنا: نعم. قال: والله لأن أحرّ من السماء فتخطفني الطير، أحب إلي من أن يكون هذا رأي! فصعد المنبر ثم قال: أيها الناس، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. أيها الناس أن قل عددكم وكثر عدوكم ركب الشيطان منكم هذا المركب؟! والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون. قوله الحق، ووعد الصديق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. والله - أيها الناس - لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لجاهدتهم عليه، واستعنت الله عليهم، وهو خير معين. والله - أيها الناس - لو أفردت من جمعكم لسللت سيفي حتى أبلى في سبيل الله بلوى، أو أقتل في سبيل الله قتلاً.

قال عمر: فعلمنا أنه الحق ما تبعناه حتى ضرب الناس له بعطن.

وإنما استباح الصحابة قتال المانعين للزكاة، من أجل أن الفقراء شركاء للأغنياء في القدر المفترض لهم في أموال الأغنياء. فمتى أصر الأغنياء على منعه، وجب على الحاكم جهادهم بانتزاعه منهم، ودفعه إلى فقرائهم، وهذه هي عدالة الإسلام الذي نزل بها الكتاب والسنة، على أن في المال حقًا سوى الزكاة؛ أنه عند حلول حول الزكاة، وطلب الفقراء من الأغنياء حقهم منها، وقالوا: آتونا من مال الله الذي آتاكم؛ فعند ذلك يتبين التاجر الأمين من التاجر الخائن المهين. فالتاجر المؤمن الأمين يحاسب نفسه، ويبادر بأداء زكاته، طيبة بها نفسه، يحتسبها مغنمًا له عند ربه ويقول: اللهم اجعلها مغنمًا ولا تجعلها مغرمًا.

فهو يعلم من واجبات دينه أن هذا المال فضل من الله ساقه إليه، واستخلفه عليه؛ ليمتحن بذلك صحة إيمانه وأمانته ﴿لِيُبْلُوَنِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. فهو يشكر الله على نعمه، والذي فضله بالغناء على كثير من خلقه.

وأداء الزكاة إنها هو العنوان على شكر نعمة الغنى بالمال، لهذا ترى الفقراء يلهجون له بالثناء والدعاء بألستهم أو بقلوبهم، ويقولون: تقبل الله منك ما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت، وجعله لك طهوراً وأجرًا.

أما التاجر الخائن المهيئ؛ فإنه يؤثر محبة ماله على طاعة ربه، ويستبيح أكل زكاته وحرمان فقراء بلده منها، فهو يعدُّها مغرمًا؛ أي يجعلها بمثابة الغرم الثقيل، وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس في آخر الزمان يتخذون الأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، ولهذا يستحب للمؤمن عند دفع زكاته أن يقول: اللهم اجعلها مغنمًا، ولا تجعلها مغرمًا.

سميت الزكاة زكاة من أجل أنها تركي المال، أي تنميه وتطهره وتنزل البركة فيه حتى في يد وارثه، كما أنها تركي إيمان مخرجها من مسمى الشح والبخل، وتطهره. يقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقد أقسم رسول الله ﷺ، أنها ما نقصت الصدقة مالاً، بل تزيده ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]. فلو جربتم لعرفتم، وقد قيل: من ذاق عرف، ومن حرم انحرف ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فبادروا بزكاة المال إن بها	للنفس والمال تطهيرًا وتحسينًا
أتحسبون بأن الله أورثكم	مالاً لتشقوا به جمعًا وتخزينًا
وتصرفوه على مرضاة أنفسكم	وتحرموا منه معترًا ومسكينًا

إنه ما بخل أحد بنفقة واجبة في سبيل الحق، من زكاة وصدقة وصلة، إلا سلطه الشيطان على نفقة ما هو أكثر منها في سبيل الباطل. ثم نعود ونقول: إنه ما أنفق أحد نفقة في سبيل الحق، من

زكاة وصدقة وصلة، إلا أخلفها الله عليه بأضعاف مضاعفة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. فحفظوا أموالكم بالزكاة، فإنها ما بقيت الزكاة في مال لم تُخرج منه إلا أفسدته وأذهبت بركته. جاء رجل إلى النبي ﷺ «فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دُو مَالٍ كَثِيرٍ وَدُو أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَحَاضِرَةٍ فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ أَنْفِقُ وَكَيْفَ أَصْنَعُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « تَخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ فَإِنَّهَا طَهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ وَتَصِلُ أَقْرَبَاءَكَ وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ وَالْجَارِ وَالْمُسْكِينِ »^(١) فأرشدته النبي ﷺ إلى ما ينبغي أن يفعله.

فالمال غاد ورائح، وموروث عن صاحبه، ويبقى من المال شرف الذكر، وعظيم الأجر، فأيا رجل غمره الله بنعمته وفضله بالغناء على كثير من خلقه، ثم يجمد قلبه على حب ماله، وتقبض يده من أداء زكاته ومن الصدقة منه، والصلة لأقاربه، والنفقة في وجوه البر والخير الذي خُلق لأجله؛ إنه لرجل سوء، وتاجر فاجر، قد بدل نعمة الله كفرًا، وأحل بغناه دار البوار ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥]. فحذار حذار أن يقول أحدكم: هذا مالي أوتيته على حذق مني بكسبه حتى كثر ووفر. ولكن ليقُل: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠]. فأداء الزكاة هي العنوان على أداء شكر نعمة الغنى بالمال، كما أنها الدليل والبرهان على أداء الأمانة، وصحة الإيثار. وفي الحديث: «الصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»^(٢) أي تبرهن عن إيمان مُخرجها وكونه أثر طاعة ربه على محبته ماله. وسميت الزكاة صدقة؛ لكونها تصدق وتحقق إيمان مُخرجها، كما أن منع الزكاة هو العنوان على النفاق. يقول الله سبحانه: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ

(١) رواه أحمد من حديث أنس ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري.

وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. أي عن أداء زكاة أموالهم. وقال: ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٦-٧٧].

والزكاة قدر يسير، يترتب عليها أجر كبير، وخلف من الله كثير، وهي في النقود، وفي مال التجارة، ففي كل ألف ريال حال عليها الحول خمسة وعشرون ريالاً.

وهكذا الحساب يجري عليها على هذا المنوال. والأوراق المتعامل بها عند الناس، المسماة بالشيكات، والدولارات، والجنيهات الإسترلينية، هي بمثابة نقود الذهب والفضة، يجب فيها الزكاة على حسب أثمانها في البلد. ومن له وديعة نقود في البنك، أو عند تاجر، وجب عليه أن يخرج زكاتها عند رأس الحول. فالذين يودعون النقود، ثم لا يؤدون زكاتها، فهم آثمون وعاصون. وجدير بهذه النقود التي لا تؤدى زكاتها أن تُتَرَع منها البركة، وأن يحل بها الشؤم والفشل، ويُحَرَم صاحبها من الانتفاع بها، لأنها ما بقيت الزكاة في مال محبوسة فيه إلا أهلكته. وما هلك مال في بر ولا بحر ولا جحود ولا غضب إلا بحبس الزكاة عنه.

والمال المجعول أسهماً في شركة الأسمت، أو شركة الكهرباء، أو شركة الأسمدة، أو الملاحة، أو شركة الأسهم، أو أي شركة من الشركات، فإنه يجب فيه على صاحبه الزكاة عند رأس الحول، بحيث يخرج زكاة أصل المال، أشبه عروض التجارة؛ لأنه لو أراد بيع رأس ماله لباعه من ساعته. وإذا تحصل صاحبه على ربح فإنه يخرج زكاة ربحه عندما يقبضه، لأن ربح التجارة ملحق برأس مال التجارة. وكذلك العقار المعد للإيجار، فقد صار في هذا الزمان من أنفَسِ أموال التجار، حتى إن أحدهم ليؤجر العمارة الواحدة بمائة ألف، أو بخمسين ألفاً، أو أقل أو أكثر في السنة الواحدة.

وما كان شرع الإسلام المبني على مصالح الخاص والعام ليهمل هذا المال الكثير بدون إيجاب حق فيه للفقير. والنبى ﷺ أمر أن تُخْرَج الصدقة، أي الزكاة من الذي نعدّه للبيع، وما أُعد للكرى، فهو بمثابة ما أُعد للبيع والشراء، أشبه الحلي المعد للكرى، فإن فيه الزكاة بإجماع العلماء، ولسنا نقول بإيجاب تامين العقار وإخراج زكاة قيمته، لأن فيه إجحافاً للملاك، وإنما القول القصد

في هذا المقام الهام؛ أنه يجب إخراج الزكاة من غلة العقارات، فمن تحصل على أربعة آلاف أخرج زكاتها مائة ريال، أو تحصل على أربعين ألفاً أخرج زكاتها ألفاً واحداً.

وكذلك الأراضي المشتراة للتجارة، فإن حكمها حكم عروض التجارة، بحيث يُوقع الثمين عليها عند الحول، ويخرج زكاتها، وليس على المسلم زكاة في البيت الذي يسكنه، ولا في السيارة التي يركبها، ولا في السيارة التي يعيش عياله من كسبها، قياساً على العوامل التي أسقط النبي ﷺ الزكاة فيها.

وتجب الزكاة في حلي النساء - أي المصاغة - من الذهب الموجود عند النساء المثریات، اللاتي يتخذنه خزينة لا زينة، فيجب أن تخرج زكاته مصوغاً على حسب قيمته، فمتى كان المصاغات تبلغ أربعة آلاف أخرجت زكاته مائة ريال، أو أربعين ألفاً أخرجت زكاته ألفاً واحداً، ويجري الحساب في الزائد والناقص على حسب ذلك.

أما المصاغات التي تستعملها المرأة في الزينة، وتعيّره غيرها، فقد رجع الفقهاء سقوط الزكاة عنها، وكونه لا زكاة في الحلي الذي تتجمل به المرأة، أو تعيره، لأن زكاته لبسه، وإعارته. والزكاة في النقود وفي التجارة وفي الإبل وفي الغنم هي من أسباب بركة المال ونموه، وحفظه من الآفات، وأكثر ما يجني على المال بالهلاك والتلف، والشؤم والفشل، ونزول الآفات كل هذا من أسباب منع الزكاة، أضف إلى ذلك كونه يعذب به صاحبه ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

نسأل الله سبحانه أن يعمنّا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(٢٧)

عقَابُ المَانِعِينَ لِلزَّكَاةِ

وكونه يجب على الإمام أن ينتزعها منهم طوعاً أو كرهاً

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، ونصلي ونسلم على رسول الله سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله سبحانه قد افترض على عباده المؤمنين وجوب العمل بشرائع الدين الذي من جملتها؛ إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وسائر شرائع الإسلام، فإن هذه الأركان هي بمثابة الفرقان بين المسلمين والكفار، والمتقين والفجار، وبمثابة محك التمحيص لصحة الإيمان، بها يعرف صادق الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان، وأنه عند وجوب حول الزكاة يتبين حقيقة من يطيع ربه في سرائه وضرائه فيما يحب وفيما يكره، فيبادر بأداء زكاته، يحتسبها مغنماً له عند ربه، فيدفعها إلى مستحقها، قائلاً: اللهم اجعلها مغنماً ولا تجعلها مغرمًا. فهو ينفق زكاة ما آتاه الله من فضله، وبه يتبين الفرق بينه وبين من يطيع شهوته وهواه، ودرهمه وديناره، فيدخل بما آتاه الله من فضله، ويستحل زكاته. وفي الحديث: «تَعَسَى عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَى عَبْدُ الدَّرْهِمِ»^(١) فسماه «عبد الدرهم»؛ لكونه يؤثر محبة دراهمه على طاعة ربه، ويصرف جُلَّ عقله،

(١) رواه البخاري والترمذي وابن ماجه، والطبراني في الأوسط، وابن حبان في صحيحه، جميعاً من حديث أبي

وَجُل عمله واهتمامه، لجمع ماله ومنعه، حتى ترك لأجله فرائض ربه، ونسي أمر آخرته، والله سبحانه قد شرع الزكاة وأوجبها لمصلحة الأغنياء، والإحسان إلى الفقراء.

أما الغني، فيكتسب بأداء الزكاة طهارة ماله، والزيادة في بركته ونمائه، كما أنها زيادة في إيمانه. يقول الله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فسمى الله الزكاة صدقة، لتصديق إيمان مُخْرِجها، وكونه أثر طاعة ربه على محبة ماله، كما سهاها الله زكاة، من أجل أنها تزكي المال، أي تنميه، وتنزل البركة فيه، حتى في يد وارثه، وكذلك تزكي إيمان مُخْرِجها من مسمى الشح والبخل، وتطهره، ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. إن كل من يتسمى بالإسلام على الحقيقة؛ فإنه لا بد أن يظهر إسلامه علانية للناس، بحيث يرويه يصلي مع المصلين، ويرويه يصوم مع الصائمين، ويرويه يؤدي زكاة ماله إلى الفقراء والمساكين، فيظهر إسلامه علانية للناس بحيث يشهدون له بموجبه، والناس شهداء الله في أرضه.

أما من يتسمى بالإسلام وهو لا يصلي ولا يصوم، ولا يؤدي زكاة ماله، أو يصلي لكنه لا يؤدي زكاة ماله، فلا شك أن إسلامه مزيف مغشوش لا حقيقة له، إنها هو إسلام باللسان، يكذبه الحس والوجدان، والسنة والقرآن. ومن ادعى ما ليس فيه فَصَحَّتْ شواهد الامتحان. يقول الله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَئِنَّ ءَامِنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٨-٩].

إن الله سبحانه افترض الزكاة في أموال الأغنياء لإخوانهم الفقراء؛ ليمتحن بذلك صحة إيمان المدعين، وَجُودَ الأغنياء الكرماء المحسنين، وبخل الأشقاء النداء المهلئين، وليعلم الكل علم اليقين أن الله خلق الدنيا فجعلها منحة لأقوام، ومحنة على آخرين، وجعل المال سعادة لأقوام، وشقاوة على آخرين، وقد سمى الله المال خيراً لمن أراد به الخير، وهذا الخير كالحل: لرجل أجر، وعلى رجل وزر، وقد قال النبي ﷺ: «إِنْ هَذَا الْمَالُ حُلُوةٌ خَضِرَةٌ، مَنْ أَخَذَهُ مِنْ حِلِّهِ وَأَدَّى مِنْهُ وَاجِبَ حَقِّهِ، فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ، وَيَكُونُ لَهُ حَسَنَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ أَخَذَهُ مِنْ

غير حِلِّه، ومنع منه واجب حقه، كان كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة»^(١).

إن الزكاة قطرة الإسلام، وهي الدليل والبرهان على صحة الإيـان، لأن من صفة المؤمنين؛ ما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١]. ومن صفة المنافقين ما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. ومعنى أي عن أداء زكاة أموالهم، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي نسوا حق الله الواجب في أموالهم، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ ونهى الله المؤمنين أن يكونوا أمثالهم فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. أي أنساهم مصالح أنفسهم الدينية والدينية التي من جملتها أداء الزكاة الواجبة، والتي هي من أسباب الزيادة والنمو، والبركة في مال الشخص وإيـانه، ولهذا يقول العلماء: إن أداء الزكاة هو العنوان على صحة الإيـان، كما أن أكل الزكاة هو العنوان على الخيانة والنفاق، كما ثبت في الحديث؛ أن الناس في آخر الزمان «يتخذون الأمانة مغنماً، والزكاة مغرمًا»^(٢) يتبايعون ولا يكاد أحدهم يؤدي أمانة ربه، أي الزكاة الواجبة في ماله، والزكاة هي بمثابة الأمانة في مال الغني لإخوانه من الفقراء والمساكين. وعند وجوبها في رأس الحول يتبين التاجر المؤمن الأمين من التاجر الخائن المهين، والله يأمرهم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. وفي الحديث: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةٌ لَهُ»^(٣)؛ لأن الله سبحانه قد أوجب في مال الأغنياء بقدر الذي يسع الفقراء، ولن يجوع الفقراء، أو يجهدوا، إلا بقدر ما يمنعه الأغنياء من الحق الذي أوجبه الله عليهم.

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري، بلفظ مقارب.

(٢) رواه البزار من حديث علي بن أبي طالب، وفي رواية بلفظ: «الإمامة مغنماً...».

(٣) رواه الإمام أحمد وابن حبان من حديث أنس، وإسناده قوي. وكذا الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

إنه ما أنفق أحد نفقة في سبيل الحق من زكاة وصدقة وصلة إلا أخلفها الله عليه بما هو أكثر منها أضعافاً مضاعفة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقد أقسم رسول الله ﷺ - وقسمه حق وصدق - أنها ما نقصت الصدقة مالا بل تزيد.

والزكاة تسمى صدقة، وقد جعل الله الزكاة قرينة الصلاة في كثير من الآيات، فقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]. أي هذا هو الدين القويم، والصراط المستقيم، الموصل بصاحبه إلى جنات النعيم. «وقد أمر النبي ﷺ بأن يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة»^(١).

وإنه لما مات رسول الله ﷺ ارتد أكثر العرب عن الإسلام، قائلين: إنه لو كان نبياً لم يمت. وعلى أثر هذه الردة منعوا زكاة أموالهم. يقول بعضهم: إننا لم نؤمر أن نؤدي الزكاة إلا إلى الرسول في حالة حياته، لأجل أن يستغفر لنا، وبعد موته فلا زكاة علينا. فعمت الردة جميع العرب، من أقصاهم إلى أدناهم، إلى حالة أن الصحابة جعلوا لهم حرساً على أفواه السكك خوفاً من توثب الأعراب عليهم. فاشتد الأمر بالصحابة، حتى قال أنس بن مالك: إنه لما مات رسول الله ﷺ كنا كالغنم المنطورة، فما زال أبو بكر يشجعنا حتى كنا كالأسود المتمرة. وإن الردة عمت جميع الناس؛ من عرب الحجاز ونجد واليمن والبحرين وعمان، حتى إنه لم يبق مسجد يصلى فيه إلا مسجد مكة والمدينة، ومسجد عبد القيس بجواثي - أي بلد الأحساء المعروفة - وفي ذلك يقول الشاعر:

والمنبران وفصل القول والخطب
إلا بطيبة والمحجوج ذي الحجب

والمسجد الثالث الشرقي كان لنا
أيام لا منبر للناس نعرفه

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقد حاصر المرتدون قبيلة عبد القيس في بلدهم من أجل تمسكهم بدينهم حتى أرسلوا لهم رسولاً إلى أبي بكر يستنجدونه، ويستمدون منه العون على عدوهم، وقد أنشدوا في كتابهم:

وَفَتِيَانِ الْمَدِينَةِ أَجْمَعِينَا	أَلَا أَبْلَغُ أَبَا بَكْرٍ رَسُولَا
قَعُودٍ فِي جَوَاثِمَا مُحْصَرِينَا	فَهَلْ لَكُمْ إِلَى قَوْمٍ كَرَامِ
دُمَاءِ الْبَدَنِ تَغْشَى النَّازِرِينَا	كَأَنَّ دُمَاءَهُمْ فِي كُلِّ فَجِ
وَجَدْنَا النَّصْرَ لِلْمُتَوَكِّلِينَا	تَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّحْمَنِ إِنَّا

فعند ذلك تجرد الصحابة لقتال المرتدين، ليردوهم إلى الدين. فأرسلهم أبو بكر فرقاً، وقد اتسعت الفتنة، وعظم الخطب، فكان مع مسيلمة الكذاب جنود كأمثال الجبال، وادعت سجاح النبوة، فكان معها من الجنود مثل ذلك. وكان أكبر من تولى قتالهم هو سيف الله خالد بن الوليد، فبالغ في قتال مسيلمة الكذاب وجنوده، حتى قتل جمع كثير من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه المعركة، ومن جملتهم سبعون رجلاً من القراء الذين يحفظون القرآن، فقتلوا في المعركة في مكان يسمى العيينة - بالقرب من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية - ففزع الصحابة من قتل القراء، فخافوا أن يذهب القرآن، أو يذهب شيء منه، فأمر أبو بكر بجمعه بعد مشاورة بينه وبين عمر وبين الصحابة، فاتفق رأيهم على أن جمعه هو عين الصواب والمصلحة، فولوا رئاسة جمعه زيد بن ثابت رضي الله عنه.

ثم إن الصحابة ﷺ أنجزوا قتالهم مع المرتدين حتى ردوهم إلى الدين، وألزموهم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم ساروا إلى بلاد عبد القيس - بهجر وعمان - ومنهم قوم ساروا إلى اليمن لمناجزة الأسود العنسي - وهو نظير مسيلمة في الكفر والردة، وكثرة الجنود - فنصرهم الله عليهم، وعاد للدين جدته ونشاطه.

والأصل في هذا كله أن العرب من أهل الحجاز ونجد ومن حولهم لم يدخلوا في الإسلام إلا عام تسعة من الهجرة، أي قبل موت رسول الله ﷺ بسنة واحدة، فلم يتمكن الإسلام من قلوبهم، ولم تنقد للعمل به جوارحهم، بل كانوا فيه على طرف، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ

مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ
خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ [الحج: ١١]. فهذا هو السبب الذي جعل
هذه الفتنة تتمكن منهم وتنتشر بينهم. والإسلام بمثابة البيت المحكم بالبناء والإتقان، فمتى
هُدِمَ منه جانب تداعى بقيته بالهدم والانهيار.

وهكذا تدارك الصحابة لقتال المانعين للزكاة؛ لكونهم يعتقدون عدم وجوبها عليهم. ولا
شك أن هذا الاعتقاد كُفِّرَ يخرج صاحبه عن ملة الإسلام.

ثم إن الزكاة حق للفقراء والمساكين، أوجه الله في مال الأغنياء المكثرين، فمتى أصر
الأغنياء على منعه وجب على الحاكم جهادهم حتى ينتزعه منهم، ويؤديه إلى المستحقين له؛ ممن
سأهم الله في كتابه، وذلك بدون هوادة ولا مودة. ولهذا قال أبو بكر: «وَاللَّهِ لَا قَاتِلَ مَنْ فَرَّقَ
بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ»^(١).

إن كسب المال من حله، ثم الجود بأداء واجب حقه، يعد من مفاخر الدنيا، وإنه لنعم
الذخرى للأخرى، فقد ذهب أهل الدثور - أي الأغنياء - بالأجور والدرجات العلى بفضل ما
أنفقوا من أموالهم، ونعم المال الصالح للرجل الصالح.

وقد سمى الله المال خيراً لمن أراد به الخير، وهذا الخير كالخيل: لرجل أجر، وعلى رجل
وزر، فهو سعادة لأقوام، وشقاء على آخرين. فبعض الناس يكون ماله عليه عذاباً في الدنيا،
وعقاباً في الآخرة، يقول الله سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]. فمن رزقه الله من
هذا المال رزقاً حسناً، فليبادر بزكاة ماله، ولينفق منه سرّاً وعلناً، حتى يكون أسعد الناس بماله،
فإن مال الإنسان ما قدم لآخرته، ومال الوارث ما خلف.

إن من واجب المسلم عند حلول وقت الزكاة؛ أن يحاسب نفسه، ويراقب ربه، ويبادر بأداء
زكاة ماله طيبة بها نفسه، فإنه من المعلوم عند الخاص والعام، أن المال قد فاض في هذا الزمان،

(١) متفق عليه، ورواه أبو داود والنسائي والترمذي والإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه.

بصفة لا يعهد نظيرها في سالف الأزمان، حيث فتح الله لهم كنوز الأرض وخيراتهما، ومع كثرة الجمع قد اشتد الناس في المنع، حتى صار الناس يتبايعون بالملايين التي يملكها الكثيرون، ومع كثرة هذا المال؛ لا نكاد نسمع بمن يؤدي الزكاة، مع كونها من الأعمال الظاهرة التي لا تخفى على الناس، والزكاة قرينة الصلاة في كثير من الآيات، غير أنها ظهرت الصلاة ففعلوها، وبطنت الزكاة فأكلوها.

وإن المال غاد ورائح، ويبقى من المال شرف الذكر وعظيم الأجر، أو سوء الذكر وعظيم الوزر، وقد جعل الله الإنسان مستخلفاً على هذا المال، ومسؤولاً عنه: من أين أخذه؟ وفيم أنفقه؟ والله تعالى يقول: ﴿عَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ لَا يَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَكْثَرُ الْأُمَّةِ ۗ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا هَٰؤُلَاءِ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ وَالَّذِينَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُمْ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُم مِّنْ غَيْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُرِيقُ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ۝١٦﴾ [الحديد: ٧]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ۚ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ [التغابن: ١٦].

(٢٨)

قوله سبحانه:

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]

الحمد لله الذي خلق الخلق ليعبدوه، وركب فيهم العقول ليعرفوه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ليشكروه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من يخاف ربه ويرجوه، وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله، اللهم صل على نبيك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه الذين آزره ونصروه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَعَاتَيْنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

إن هذا القرآن بلاغ للناس ولينذروا به، ففيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا. وهذه القصة سقت مساق العظة والعبرة لينذر بها من كان حياً ويحق القول على الكافرين، سقت في بيان سيرة قارون وفساد سريره، وبيان كثرة ماله وفساد أعماله، وكيف حقت عليه كلمة العذاب بغيه وطغيانه.

فأخبر الله سبحانه **﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾** قيل: إنه ابن عمه، وقيل: إنه ابن خالته. وكان - فيما زعموا - صالحًا في بداية عمره، ويسمى المنور لجمال وجهه، فلما كثر ماله نافق وطغى، وارتد وبغى **﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾**.

وصدق الله العظيم: **﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۚ﴾** [العلق: ٦-٨].

جاءه نبي الله موسى برسالة من ربه يدعوهُ إلى دينه بالحكمة وبالموعظة الحسنة ففر ونفر، وعصى واستكبر، وكان له جنود وأتباع، وصاحب المال مطاع، فحاول قارون الفتك بنبي الله موسى، وأظهر البغي عليه ليقطع دابره حسداً له على نعمة رسالة ربه. والبغي مصرعه وخيم، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيه.

قضى الله أن البغي يصرع أهله وأن على الباغي تدور الدوائر

يقول الله تعالى: **﴿فَلَمَّا أَتَجَّهْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَتُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [يونس: ٢٣]. يعني أن بغي الباغي تعود سوء عاقبته عليه في الدنيا قبل الآخرة، بمعنى أنها تعتريه العقوبة، ويسلط عليه من ينتقم منه عقوبة له. حتى لو بغى جبل على جبل لتدكدك الباغي.

وفي الحديث: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَوْ أَحَقُّ مِنْ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مِثْلَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(١) والبغي أحياناً يكون بالأقوال؛ كأن يستطيل عليه بسبه وذمه ليزله بين الناس، وأحياناً يكون بالأفعال؛ كأن يستطيل عليه بضربه أو قتله، أو أخذ ماله، أو إفساد زوجته عليه، ونحو ذلك من فنون الأذى والعدوان.

وفي الصحيح^(٢) أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ».

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. والحاكم وقال: صحيح الإسناد؛ من حديث أبي بكر.

(٢) في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار.

ثم قال: ﴿وَعَاتَيْنَاهُ مِّنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوتُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]. فأخبر الله سبحانه عن قارون بأنه مع كفره وعصيانه وبغيه وطغيانه، أن الله قد أرخى له العنان في فنون البغي والعدوان، وأعطاه من كنوز الأموال على اختلاف الأنواع والألوان، ما يعجز العصبه الأقوياء عن حمل مفاتيحه سواء قلنا: إن المفاتيح من حديد أو من خشب أو من جلود، وحسبنا تنويه القرآن بعظمتها مما يدل على عظمة المخزون بها، وهو استدراج من الله له في سعة الرزق وبسطته، لأن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب.

وإذا رأيت الله يسدي نعمة على الشخص؛ والشخص مُصِرٌّ على معصية ربه، فاعلم أنها هو استدراج من الله له. يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۖ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

ولما رأى الناصحون الصالحون من قوم موسى ما فعله قارون من الطغور والطغيان، ومجاوزة الحد في البغي والعدوان، أخذوا في وعظه ونصحه، لأن بقاء الأمم من قديم الزمان وحديثه، بقاء الناصحين المصلحين الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولأن إنكار المنكرات هو مما يقلل فشوه وانتشاره.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَّا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۖ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

ولهذا قالوا في نصيحتهم وإرشادهم: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. فالفرح المذموم هو الذي يفضي بصاحبه إلى الأشر والبطر، والفجور والغرور، وغالبًا ما ينشأ عن الزهو بالدنيا وزينتها.

وكان النبي ﷺ إذا رأى شيئاً من زهرة الدنيا وزينتها فأعجبه قال: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(١) وقال: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»^(٢) وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

ثم قالوا: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [الفصص: ٧٧]. يعني أن من وسع الله عليه بالغنى بالمال، فإن من واجبه أن يتزود من دنياه لآخرته، فإن مال الإنسان ما قدم، وفي الحديث: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»^(٣) وما سوى ذلك فذهاب وتاركه للورثة، والدنيا مزرعة الآخرة، تُزْرَعُ فيها الأعمال الصالحة. من خرج منها فقيراً من الحسنات ورد على الآخرة فقيراً وساءت له مصيراً.

أما من وسع الله عليه بالغنى بالمال، فجعله أكبر همه، وصرف إليه جُلَّ عقله، وجُلَّ عمله، وجُلَّ اهتمامه، وترك لأجله فرائض ربه، ونسي أمر آخرته؛ فهذا بالحقيقة فقير لا يُؤْجَرُ على فقره، قد خسر دنياه وآخرته، أتاها شيطانه فخوفه روعة زمانه، وقلة ماله، فغَلَّ يده، ومنع ما عنده، ولم يزل ذلك دأبه، حتى يخرج من الدنيا مذووماً مدحوراً، لا خيراً قدمه، ولا إثمًا سلم منه، فهو عبد درهمه وديناره، وفي الحديث: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ»^(٤). وسيندم حيث لا ينفعه الندم حين يقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩]. وحين يقول: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٤١﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ﴿٤٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ ﴿٤٦﴾﴾ [الفجر: ٢٤-٢٦]. وأنه ما بين أن يثاب الإنسان على الطاعة والإحسان، أو يعاقب على الإساءة والعصيان، إلا أن يقال: فلان قد مات. وما أقرب الحياة من الممات. وكل ما هو آت آت.

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد الساعدي ورواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك.

(٢) متفق عليه، ورواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة، زاد مسلم في روايته: «وَكَاذُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ».

(٣) أخرجه الطيالسي من حديث عبد الله بن الشخير.

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

ثم قالوا في تمام نصيحهم وإرشادهم: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. لما وعظوه ونصحوه بما ينفعه في أمر آخرته، عادوا فنصحوه بما ينفعه في أمر دنياه فقالوا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. قيل: معناه تزود من دنياك لآخرتك. وقيل: لا تنس نصيبك أي من الكسب والسعي وسائر أسباب الغنى، لأن دين الإسلام دين سعي وكد وكسب، يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، ومصالح الروح والجسد، يمدح القائمين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. ونعم المال الصالح للرجل الصالح.

فالإسلام يأمر بكسب الأموال وحفظها، والتوسع في فنون التجارات من وجوه حلها. وفي الحديث: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ»^(١) ولما سئل النبي ﷺ عن أفضل الكسب قال: «عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ»^(٢) وروي: «طَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ»^(٣) والله يحب المؤمن المحترف، ويبغض الفارغ البطال.

وكان بعض الأنبياء معدودين من الأغنياء كإبراهيم ويوسف وسليمان عليهم السلام، وبعض الأنبياء يتكسبون بالحرف والصنائع، والنبي ﷺ كان قبل النبوة يسافر بالمال إلى الشام. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يَتَجَرَّوْنَ يَبْعُونَ وَيَشْتَرُونَ، وَيَبْنُونَ وَيَغْرَسُونَ، وَيَسَافِرُونَ للتجارة في البر والبحر، ولكنهم إذا ناههم أمر من أمور الله، أو حضرت فريضة من فرائض الله، كفريضة الصلاة، وفريضة الزكاة بادروا بأدائها إلى الله ولم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، حتى يؤدوه إلى الله.

فليس من الدين أن يتخلى الإنسان عن المال، وعن السعي والكسب للعيال، ويلزم زاوية من زوايا المسجد الحرام، أو مسجد المدينة يتبتل فيه للعبادة، وينقطع عن البيع والشراء،

(١) رواه الترمذي والدارمي والدراطيني من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في الأوسط من حديث رافع بن خديج.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن مسعود.

والأخذ والعطاء. كما يفعله الرهبان وبعض الدراويش، فقد جاء أناس من الصحابة إلى النبي ﷺ يستأذنونهم في أن يبيعوا عقارهم وما لهم، ويشتروا بثمنها سلاحاً وخيلاً يجاهدون عليها في سبيل الله. فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك وقال: «**أَمْسِكُوا عَلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، وَلَا تَفْسِدُوهَا**»^(١) وأراد بعض الصحابة أن يتصدق بهاله كله فرد رسول الله ﷺ صدقته؛ لأن المال ترس المؤمن في آخر الزمان، ولا يستغنى عنه في حال من الأحوال، وأن الكريم على الإخوان ذو المال. وكل ما تسمعون في القرآن، أو في الحديث من ذم الدنيا، أو ذم المال؛ فإنما يقصد به ذم أفعال بني آدم السيئة في المال لا المال نفسه، لأن الطاعة هي همة التقي، ولا يضره لو تعلق جميع جوارحه بحب الدنيا؛ لكون المسلم يشتغل في الدنيا بجوارحه، وقلبه متعلق بالعمل لآخرته، فيحصل الحسنتين، ويفوز بالسعادتين، فتكون أعماله بارة، وأرزاق الله عليه دارة. **اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** [الزمر: ١٨].

إن قارون قد مضى وانقضى، وعوقب بما تسمعون، فما كان جوابه لهؤلاء الناصحين الصالحين إلا أن قال: **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي** [القصص: ٧٨]. أي على حذق ومعرفة بجمع المال وكسبه، حتى كثر ووفر، ولم يقل: **هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** [النمل: ٤٠]. وجحود النعمة مؤذن بزوالها. يقول الله تعالى: **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** [٧] [إبراهيم: ٧]. ولهذا ذمه الله بقوله: **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** [٧٨] [القصص: ٧٨].

إن كل ما ورد في ذم قارون وعقابه على كثرة ماله، وفساد أعماله، فإنه منطبق بالدلالة والمعنى على كل من اتصف بصفاته، وعمل بمثل أعماله، لأن الاعتبار في القرآن هو بعموم لفظه لا بخصوص سببه، فهو يتمشى على حد:

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر.

إياك أعني واسمعي يا جاره وخير الناس من وعظ بغيره

فهذا الوصف ينطبق على كل تاجر وسع الله عليه من صنوف نعمه، وفضله بالغنى على كثير من خلقه، ثم يحمّد قلبه على حب ماله، وتنقبض يده من أداء زكاته، ومن الصدقة منه، والصلة لأقاربه، والنفقة في وجوه البر والخير الذي خلّق لأجله، فمن كانت هذه صفته فإنه أخو قارون في كثرة ماله وفساد أعماله.

فبالله قل لي: كيف كان عاقبة أمره؟ أجيبك بأن الله سبحانه أمر الأرض أن تحسف به وبهاله، قال الله تعالى: ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٨١-٨٢]. خسف الله الأرض بقارون وبهاله، وما الخسف ببعيد عن أمثاله من التجار الذين جحدوا نعمة الله عليهم، ومنعوا زكاة أموالهم، ونسوا أمر آخرتهم، تسمع بعشرات الملايين، أو مئات الملايين، أو ألوف الملايين عند أحدهم، ولكنك لا تسمع بمن يؤدي الزكاة منهم.

ثم سرت عدوى منع الزكاة من بعضهم إلى بعض، فهؤلاء إن لم يخسف بهم بالأبدان، فإنه قد يخسف منهم بنور الإيمان، ومن المعلوم أن الخسف بالإيمان أضر من الخسف بالأبدان، فيبقى سيئ الحال، جموعاً متنوعاً، ييغض الناس ويغيضونه، ولهذا ختم الله هذه الآيات بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

نسأل الله سبحانه أن يعمنا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

الخلق الحسن وكونه ينحصر في

فِعْل ما يَجْمَلُه وَيَزِينُه واجْتِنَاب ما يَدْنُسُه وَيَشِينُه

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده

ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ»^(١)

فأخبر النبي ﷺ أن الناس متفاوتون في الأخلاق، كما أنهم متفاوتون في الأرزاق، فما أعطي أحد عطاء أفضل من خلق حسن يدلّه على الصلاح والتقوى، ويردعه عن السفه والفساد والردى. والمتحلون بمحاسن الأخلاق؛ هم أفضل الناس على الإطلاق، كما في الحديث أن النبي ﷺ قال «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. ألا أنبئكم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء العثرات»^(٢) فحسن الخلق يمن

(١) رواه أحمد من حديث ابن مسعود.

(٢) رواه الطبراني من حديث أبي هريرة بلفظ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقاً، الْمُوْطَّؤُونَ أَكْنَافاً، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ الْمَشَاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْرَقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْمُتَلَتِّمُونَ لِلْبِرَاءِ الْعَنْتَ، الْعَيْبُ».

يحببه للناس، وسوء الخلق شؤم يبغضه الناس، وقد قالت أم سلمة: يا رسول الله، المرأة منا تتزوج بعدد أزواج، وتدخل هي وأزواجها الجنة، فمع من تكون يا رسول الله؟ فقال: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهَا تُخَيَّرُ فَتَخْتَارُ أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا. يَا أُمَّ سَلَمَةَ ذَهَبَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١) وأوصى النبي ﷺ معاذًا فقال: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٢).

والخلق الحسن ينحصر في فعل ما يجمله ويزينه، واجتناب ما يدنسّه ويشينه، أو يقال: إنه ينحصر في فعل الفرائض والفضائل، واجتناب منكرات الأخلاق والرذائل، وأكثر الناس حينما يسمع أحدهم بحسن الخلق يظنه مقصودًا، أو مقصودًا ببشاشة الوجه، وطيب الكلام. وهذا نوع من مكارم الأخلاق بلا شك، لكن الخلق الحسن هو أعم وأشمل من هذا كله. والله يقول لنبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم ٤]. ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن، يتأدب بآدابه، ويأتمر بأوامره، وينتهي عن نواهيه، ثم قرأت ﴿حُذِرِ الْغَفْوُ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. فأمره ربه بأن يعطي من حرمة، وأن يصل من قطعه، وأن يعفو عمن ظلمه. ومن حسن خلقه أنه يصل الرحم، ويحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الدهر. فمن حسن الخلق بر الوالدين، وصلة الأرحام، والتودد إليهم بوسائل الإكرام والاحترام، وأن يصاحبهم في الدنيا بالمعروف والإحسان، حتى يودع في قلوبهم محبته، والدعاء له، والثناء عليه.

وقد سئل النبي ﷺ عن أكرم الناس فقال: «أَكْرَمُ النَّاسِ اتَّقَاهُمْ لِلرَّبِّ، وَأَوْصَلَهُمُ لِلرَّحْمِ، وَأَمْرَهُمُ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(٣). فصلة الأرحام كما أنها من محاسن الأخلاق، فإنها أيضًا من الأسباب التي يوسع الله بها في الأرزاق، ويبارك بها في الأعمار، كما في الصحيح: أن

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

(٢) رواه الترمذي من حديث أبي ذر ومعاذ بن جبل وقال: حديث حسن.

(٣) رواه أبو الشيخ في كتاب الثواب والبيهقي في الزهد الكبير وغيره من حديث درة بنت أبي لهب.

النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبَسِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي آثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ»^(١) فالواصل موصول، والقاطع مقطوع، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها.

ومن حسن الخلق الإحسان إلى الجيران بإيصال النفع إليهم، والعطف عليهم، وقضاء حوائجهم، ومعاشرتهم بطيب الوفاق، وكرم الأخلاق ففي الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»^(٢). ومن حسن الخلق إفشاء السلام، على الخاص والعام، بأن تسلم على من عرفت ومن لم تعرف؛ لأن من محاسن الإسلام إفشاء السلام وإطعام الطعام، فمن حقوق المسلم على المسلم: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَسَمِّتَهُ وَإِذَا مَرِضَ فَعُدَّهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»^(٣). «وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»^(٤).

ومن حسن الخلق أن تسلم على أهل بيتك إذا دخلت عليهم. وهذه سنة مشهورة، وقد أصبحت بين الناس مهجورة. وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلٌ خَرَجَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَجُلٌ دَخَلَ الْمَسْجِدَ لِلصَّلَاةِ وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلَامٍ»^(٥) وقال: «إِنْ لِلْإِسْلَامِ صَوَى وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا تَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُسَلِّمَ عَلَى مَنْ لَقِيتَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتُسَلِّمَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ»^(٦) إلى آخر ما ذكر، وقد قال

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي شريح العدوي.

(٣) رواه الترمذي من أبي هريرة.

(٤) متفق عليه من حديث أبي أيوب الأنصاري.

(٥) رواه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي أمامة وقال الحاكم: صحيح وأقره.

(٦) أخرجه البزار في مسنده من حديث ابن عمر.

النبي ﷺ لأنس: «يَا أَنَسُ، إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَلِّمْ عَلَى أَهْلِكَ تَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»^(١) فأخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن السلام على أهل البيت من الأسباب التي ينزل الله بها البركة على أهله. وهذا السلام يقضي بالمحبة والانسجام بين صاحب البيت وأهله، كما تقضي بسعة الرزق، ونزول البركة في البيت.

وإن ثمرة الاستماع الاتباع، وقد مدح الله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وإن مما أنصح به كون المسلم المستمع يوطن نفسه على العمل بخير ما يسمعه من الحسنة، فيرمي بالسلام على أهله إذا دخل بيته، حتى يرى أثر بركتها عليه وعلى أهل بيته، وحتى يتعلمها منه أهله وأولاده.

أما الرجل الذي إذا دخل بيته أخذ يسب ويلعن كل من لقيه من أهله وعياله، فهذا البيت جدير بأن يحل به الشؤم، وتنتزع منه البركة، وتغشاه الشياطين.

ومن حسن الخلق معاشرة الزوجة بالإكرام والاحترام، وبشاشة الوجه وطيب الكلام، ففي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(٢) وأما ما يفعله بعض الذواقين إذا استجد أحدهم نكاح امرأة فوقعت منه بموقع الخطوة والمحبة، هجر المرأة القديمة، وقطع صلته بها، ونفقته عليها، وعلى عياله منها، وتركها مذبذبة معلقة، لا هي ذات زوج ولا مطلقة، ونسي ما وصى الله به بقوله: «وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ» [البقرة: ٢٣٧]. أي: المعاشرة السابقة، وهذا ينافي مكارم الأخلاق، ومعالي الشيم.

ومن حسن الخلق، معاشرة الناس بالحفاوة والوفاء، وبالصدق والأمانة، فيفي بوعده إذا وعد، ويصدق في حديثه إذا حدث، ويؤدي الأمانة إذا اتّمن، وإذا دخل مع أخيه المسلم في عقد بيع وشراء ولم يؤد ثمنه فليعلم أنه قد دخل معه في عقد وفي عهد وأمانة، فمن واجبه أن

(١) رواه الترمذي من حديث أنس بن مالك وقال: حديث صحيح.

(٢) رواه الترمذي من حديث عائشة بإسناد صحيح.

يؤدي الحق الذي عليه بدون تعليل ولا تمليل، وفاء بوعده، وأداء لأمانته، فإن مطل الغني ظلم. يحل عرضه وعقوبته، والتعفف عن حقوق الناس يعد غاية في الشرف وحسن الخلق. أما ظلم الناس وانتهاك حدودهم، وأكل حقوقهم، فإنه غاية في مساوئ الأخلاق.

ومن حسن الخلق، استعمال النظافة في الجسم وفي الثياب وفي المنزل؛ لأن الله جميل يحب الجمال، طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة والله إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه، وللنظافة أثرها المترتب عليها من صحة الجسم ونموه، واستقامة بنيته. والناس يعرفون الرجل النظيف بحسن بزته، وجمال هيئته وثيابه، كما يعرفون المرأة الظريفة بنظافة منزلها وعيالها، ولما رأى النبي ﷺ رجلاً عليه ثياب وسخة أعرض عنه كالكاره له وقال: «هلا يجد هذا من يغسل له ثوبه»^(١) ومن كلام الإمام الشافعي رحمه الله: من نقى ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله. ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

حسن ثيابك ما استطعت فإنها زين الرجال بها تعز وتكرم
ودع التخشن في الثياب تواضعاً فالله يعلم ما تكن وتكتم

ومن حسن الخلق لمن يسير في الطريق أن يستعمل التآني والتؤدة، وعدم السرعة والعجلة؛ لينقذ نفسه من الهلاك، ويسلم الناس من شره. يقول الله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْصُصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]. فأمر الله بالقصد في السير، أي الاعتدال وعدم الاستعجال. خصوصاً في حالة استعمال الناس لمراكب الحديد، التي ينجم عنها الضر والبأس الشديد. فكم أزال السرعة من نعمة، وكم جلبت من نقمة؟ ولا يجني جان إلا على نفسه، وكل امرئ بما كسب رهين. إن العقلاء يدركون خفة عقل الشخص بخفة سيره، ويدركون رزانة عقله في اعتدال سيره، ويقولون: إن خفة الشخص على قدر عقله. وقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْجِلْمُ وَالْأَنَاءُ». فقال: الحمد لله

(١) رواه أبو داود من حديث جابر.

الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله ورسوله^(١).

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

ومن حسن الخلق مصاحبة الأخيار، والتباعد عن مجالسة السفهاء وأهل الفساد والأشرار؛ لأن الأخلاق تتعادي، والطباع تتناقل. والمرء على دين خليله وجليسه. واعتبروا الناس بأخذانهم. وشبه الشيء منجذب إليه، فكم من رجل حسن الخلق، نزيه العرض، نقي الشرف، سليم العقيدة، اصطحب مع سفهاء الأحلام، وضعفاء العقول والأديان، فأفسدوا فضائله، وأوقعوه في الرذائل، وغيروا عقيدته، فساءت طباعه، وفسدت أوضاعه، وانتشر عنه الذكر الشائن والسمعة السيئة. ومن لا يكرم نفسه لا يكرم. ومن يهن الله فما له من مكرم.

إن الأجسام أشباح، وإن الأخلاق هي الأرواح؛ لأن الله سبحانه لا ينظر إلى صور الناس وأموالهم، وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم، الناشئة عن أخلاقهم. وبقاء الأمم ببقاء أخلاقهم، فإذا ذهبت أخلاقهم ذهبوا. وكان النبي ﷺ يستعيز بالله من منكرات الأخلاق والأعمال والأقوال ويقول: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لَأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ اصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(٢).

ومن مساوئ الأخلاق التي استعاذ النبي ﷺ منها أن يترك الإنسان فرائض الطاعات، كالصلاة في المساجد والجماعات، ويشذ منفردًا بالصلاة في بيته، وقد لا يصلي كما هو الغالب على تارك الجماعة.

ومن منكرات الأخلاق الإصرار على الزنا واللواط، وشرب المسكرات، لاسيما الخمر التي هي أم الخبائث، ومفتاح الشرور، والداعية إلى أعمال الفجور. تقصر الأعمار، وتولد في

(١) رواه مسلم من حديث ابن عباس.

(٢) رواه مسلم، والبيهقي في شعب الإيمان والسنن الصغرى، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، وأبو داود والترمذي والنسائي، وأحمد في مسنده، والدارقطني، رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

الجسم أنواع المضار. ولا يزال الشخص يمشي مع الناس بعفاف وشرف وحسن خلق، إلى أن يشرب الخمر، ويدب السكر في رأسه، فعند ذلك ينسلخ من الفضائل، ويسقط في الرذائل وتحل الكآبة والمسوخ على وجهه، وتحيم الوحشة على أهل بيته، لكونه قد أزال عنه نعمة العقل الذي شرفه الله بها، وألحق نفسه بالمجانين. وكيف يرضى بجنون من عقل. ولهذا سميت أم الحبائث. ومن منكرات الأخلاق، كون الإنسان يطلق لسانه بالشتيم وباللعن دائماً، فيلعن الناس عند أدنى غضب، وربما لعن زوجته وولده، فينشر شؤم اللعنة في بيته، ويتعلمها منه أولاده وبناته، فيتقاذفون باللعن فيما بينهم، لكون الوالد مدرسة لأولاده في الخير والشر، ولعن المؤمن كقتله، ومن لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه.

ومن منكرات الأخلاق، كون المرأة المسلمة تمشي بين الرجال متكشفة، تبدي يديها إلى العضد، ورجليها إلى نصف الساق، قد ألقت عن نفسها جلباب الحياء والستر والشرف، وحسن الخلق، وتحلقت بأخلاق التفرنج والتبرج، وفسقت عن أمر ربها. ومن منكرات الأخلاق، كون المسلم يتحل بساعة الذهب، وبخاتم الذهب وأزرار الذهب. ومن المعلوم في شرع الإسلام أن الذهب حرام على الذكور، وحلال للنساء، لحاجتهن للتجمل به. أما الرجل فجعله في رجولته.

ومن منكرات الأخلاق، كون بعض المتغطرسين يرخي ثوبه وعباءته المسماة بالبشت، بحيث يسحب في الأرض عن يمينه وشماله ومن خلفه، تعاضماً في نفسه. والنبى ﷺ قال: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ لِبَاسَهُ خِيَلًا»^(١) فرفع اللباس من الثوب والبشت إلى حد الكعب هو أتقى للرب، وأبقى للبشت والثوب، مع العلم أن اللباس الطويل هو بمثابة الحمل الثقيل. ومن تعاضم في نفسه، واختال في مشيته، ألقى الله في قلوب الناس مذلتة. كما أن من تواضع لله مع قدرته، رفع الله منزلته وأوقع في قلوب الناس محبته.

(١) رواه مالك والبخاري من حديث ابن عمر بلفظ: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر إليه الله يوم القيامة».

إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك في زي مسكين

هذا الذي حسنت في الناس سيرته وذاك يصلح للدنيا وللدين

نسأل الله سبحانه أن يعمنّا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا

برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره، وحسن عبادته.

(٣٠)

فضل النظافة وكونها من الإيمان

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، ومن همزات الشياطين. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. اللهم صل على نبيك ورسولك، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله بعث نبيه محمداً بدين كامل، وشرع شامل، يجمع بين مصالح الروح والجسد، وبين مصالح الدنيا والدين. لا خير إلا دل عليه، وهدى الناس إليه، ولا شر إلا نهى عنه، وحذرهم منه، فيما يتعلق بخاصة الإنسان في نفسه، وفيما يتعلق بمجتمع الناس؛ لأن الدين مبني على جلب المصالح وتكثيرها، ودفع المفاسد وتقليلها، يهدي الناس إلى التي هي أصلح لهم وأصح لأبدانهم وبلداتهم. من ذلك النظافة، فقد يتسامح الناس بأمرها، ويتساهلون في شأنها، وهي من أمر دينهم، بل هي خصلة من خصال الإيمان، فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق. والنبي ﷺ قال: «إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»^(١) وقال: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ فَتَنَظَّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ»^(٢) يعني طرقتهم.

إن الإسلام دين الكمال والنظام، دين النزاهة والنظافة للبيوت والطرق والأجسام. ولم يشرع الرسول ﷺ لأئمة النظافة إلا من أجل ما يترتب عليها من المصلحة الراجحة، والمنفعة

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ولكن بلفظ: «وتميط الأذى».

(٢) أخرجه مسلم بلفظ: «إن الله جميل يحب الجمال» من حديث عبد الله بن مسعود.

الواضحة. ولهذا شدد النبي ﷺ القول فيمن آذى المسلمين في طرقهم، وقال: «مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ فِي طُرُقِهِمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ»^(١).

إن الناس متكافلون ومتكاتفون في الأمر بالنظافة، في خاصة طرقهم ومجتمعهم، ودوائر أعمالهم. وفي الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «إِنْ رَجُلًا قَطَعَ غَصْنَ شَجَرَةٍ يُؤْذِي النَّاسَ فِي الطَّرِيقِ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ، فَغُفِرَ لَهُ»^(٢).

ومن الصدقة أن تنحي الأذى عن الطريق، إن الأمم المتمدنة وغيرهم قد اعتنوا كل الاعتناء بالنظافة في أجسامهم وثيابهم وطرقهم، لا لأجل أنها سنة، لكن من أجل أنها صحة لأبدانهم وصحة لبلدانهم، لكون القيام والقذى والأذى متى ألقي في الطريق فإنه يحدث أضرارًا وأمراضًا وبيئة، بسبب ما يحمله الهواء ثم يوزعه على الناس، فيعم ضرره، والوقاية خير من العلاج. وغالب ما تقع العدوى عن مثل هذا. كما أن النظافة تبعد العدوى عن البدن والبلد. إننا متى عملنا بتعاليم دين الإسلام في النظافة، فإنه يصير عملنا سنة في ديننا، وصحة في أبداننا وبلدنا، فنؤجر على ذلك بالحسنتين: حسنة الدنيا، وحسنة الآخرة.

إن الطرق ليست بملك لشخص أو أشخاص، بحيث يتصرف فيها بما يؤذي الناس، فيلقي فيها القمام والأذى، ويستبقي فيها الطين والحصى، ويتصرف فيها كيف يشاء، على حسب رغبته وحاجته الشخصية بما يؤذي الناس ويضرهم. وربما انتقص من الطريق فأدخل في ملكه ما لا حق له فيه. وقد لعن رسول الله ﷺ من غير منار الأرض، أي مراسيمها ولو حدث شيء من الأضرار في الأنفس أو الأموال، بسبب ما يضعه هذا الشخص في الطريق، فإن ضمانها يتوجه عليه بالغة ما بلغت، لاعتبار أنه متعد بتصرفه في الطريق، أشبه الغاصب.

إن النظافة لم تكن واجبة على أمة من الأمم إلا على أمة الإسلام! فإن النظافة واجبة علينا في مواضع من عبادتنا، من ذلك: الوضوء المشروع الذي يتضمن غسل أعضائه الظاهرة عند كل

(١) رواه الطبراني من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري وإسناده حسن.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

صلاة. وسمي وضوءاً من أجل الوضوء والنظافة. فهو عبادة دينية ونظافة بدنية، ويترتب عليه تساقط الخطايا مع تساقط قطر الماء، كما أوجب سبحانه غسل الجنابة من أجل ذلك. وكما أمر بأخذ الزينة عند كل صلاة فقال: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. أي عند كل صلاة. وبذلك نعرف أن هذه النظافة واجبة علينا في ديننا لمصلحة وصحة تعود على أبداننا.

إن أهل الإسلام قد قصرُوا بواجبهم في عدم عملهم بأمر دينهم، حيث سعد بمحاسن النظافة غيرهم، و «اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(١) طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة. إن النظافة كما أنها من الشرف والظرف فإنها أيضاً من المحاسن والفضائل، فاستعمال النظافة في الجسم وفي الثياب وفي المنزل وفي الطرق يحبها الله، فإن الله جميل يحب الجمال، نظيف يحب النظافة، طيب يحب الطيب. وللنظافة أثرها المترتب عليها من صحة الجسم ونموه واستقامة بنيته، والناس يعرفون الرجل النظيف الطريف بحسن بزته وجمال هيئته وثيابه، وهذا أمر ملموس ومحسوس في النفوس، حتى إن الإنسان إذا استجد ثوباً جديداً، أو لبس ثوباً غسلاً نظيفاً، فإنه يجد السرور في نفسه، كما أن الناس يعرفون المرأة النظيفة الطريفة بنظافة منزلها وعيالها، وابتعاد القمامة والأذى عن وجه بيتها.

وكان النبي ﷺ إذا رأى شيئاً من الأوساخ عرف أثر الكراهة على وجهه، كما روى أبو داود عن جابر أن النبي ﷺ رأى رجلاً وعليه ثياب وسخة فأعرض عنه، كالكاره له، فقال: «هَلَا يَجِدُ هَذَا مِنْ يَغْسِلُ لَهُ ثَوْبَهُ؟»^(٢). إن بعض الناس يتساهلون ويتساحون بالنظافة في أنفسهم وفي منازلهم وطرقهم، اعتماداً بزعمهم على التواضع في أنفسهم. وهذا لا يدخل في مسمى التواضع، فإن التواضع محله القلب، وألا يتكبر على الناس بفعل المخالفة المذمومة، من سحب الثوب

(١) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط من حديث جابر بن عبد الله.

أو العبادة بالأرض تكبراً، وازدراء بالناس، فهذا هو المذموم شرعاً. «وقد قال رجل للنبي ﷺ: إني أحب أن يكون ثوبي حسناً، ونعلي حسناً، فهل هذا من الكبر؟ قال: «لَا إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمَظُ النَّاسِ»»^(١) ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: من نقى ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. وقد قيل:

حسن ثيابك ما استطعت فإنها زين الرجال بها تعز وتكرم
ودع التخشن في الثياب تواضعاً فالله يعلم ما تكن وتكتم

إن النظافة في المنازل وفي الطرق والأجسام، لها مكانة عالية من دين الإسلام. وحسبك أنها معدودة من خصال الإيمان، وأن إزالة الأذى عن الطريق صدقة، وأن من آذى المسلمين في طرقهم فقد استوجب لعنتهم. كل هذه نصوص صحيحة صريحة في المعنى، وهي على كل أحد بحسبه.

ومن السنة التي هي من النظافة؛ تقليم الأظافر، وحلق العانة، ونتف الإبط. فما يفعله بعض النساء من كون إحداهن توفر أظافرها ولا تقصها، حتى تكون مشوهة كأظافر السبع، فهذا مكروه. وما تحت الظفر الزائد فإنه يكون مجتمعاً للأوساخ الضارة، وعلى الأولياء ألا يرضوا بذلك، لكون المصلحة مشتركة، والناس متكافلون ومتكاتفون، وهي تدخل في عموم قوله تعالى: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» [المائدة: ٢]. وكان النبي ﷺ يستعمل الجميل من الثياب، ويجب الطيب، حتى إذا سلك طريقاً عرف أنه سلك هذا الطريق بقاء أثر الرائحة فيه وقال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢) إن النظافة قد فرضت فرضاً محتماً في دين الإسلام، فأوجب الله سبحانه الوضوء في كل يوم خمس مرات. والوضوء مأخوذ من الوضاء

(١) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) رواه أحمد في مسنده والنسائي والحاكم والبيهقي من حديث أنس وإسناده جيد.

وهي النظافة، فهو يكسب الأعضاء النظافة، كما يكسبها النشاط والقوة، ويبعد عنها الكسل والنوم عند أداء هذا الفرض. وكما في الحديث: «غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ»^(١) وأن يمس من طيب أهله، فبعض العلماء حمّله على الوجوب، وبعضهم على الاستحباب المتأكد، وعلى كلا القولين، فإنه ينبغي للمؤمن أن يحتسب للجمعة بالاغتسال والنظافة والطيب، لكون الجمعة عيد الأسبوع. إن جبريل عليه السلام لما نزل على النبي ﷺ نزل عليه في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه من القوم أحد. فسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فقال: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(٢) ومن تعليم الدين تعليم أدب اللباس والنظافة واستعمال الثياب الجديدة.

وقد اعتنت البلدان المتحضرة بهذا العمل أشد الاعتناء، وعقدت يوماً في السنة للتذكير بفضل النظافة والقيام بواجبها، وعرض فضائلها، للحث والتحريض على العمل بها، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

(١) رواه مالك وأحمد في مسنده وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه مسلم من حديث عمر رضي الله عنه.

جواز الأدوية المباحة والتطعيم

الحمد لله الكريم المنان، ذي الجلال والإكرام، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من قال ربي الله ثم استقام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الأنام. اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام.

أما بعد:

فقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ إِحْرَاضٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزُ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ "لَوْ" تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». فهذا الحديث يعد من النصيحة الصحيحة، والموعظة الصريحة؛ لأن النبي ﷺ بعث بجوامع الكلم، فكان يجمع الحكم الكثيرة في الكلمات القليلة.

فقوله: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»؛ لأن المؤمن القوي هو الذي يأخذ بوسائل الحزم، وفعل أولي العزم؛ فيستعمل من الأمور أقواها، ويسلك من الطرق أتقها، فينفع نفسه، وينفع أهله، وينفع سائر الناس. ولهذا قال: «واستعين بالله ولا تعجز». فأمره بأن يستعين بالله في أموره كلها، وأن يحارب العجز؛ لأن العجز أضر ما ابتلي به الشخص. وكان النبي ﷺ يستعيز بالله من الهم والحزن، ومن العجز والكسل. وإذا اقترن العجز بالتواني نتج من بينها الخيبة والحرمان.

وأحزم الحزم سوء الظن بالناس

العجز ضر وما بالحزم من ضرر

لا تترك الحزم في أمر تحاذره فإن أمنت فما بالحزم من باس

فمن أنواع العجز: الإعراض عن استعمال الأدوية المجربة؛ لرفع البلاء، ودفع الوباء. وإن الله سبحانه خلق الناس، وخلق لهم جميع ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس والأدوية، وغير ذلك. فكل الأدوية والعقاقير التي يستعملها الأطباء للوقاية أو لرفع البلاء أو دفعه؛ هي في الحقيقة من مخلوقات الله التي أنبتها في أرضه؛ رحمة منه بعباده، وإحساناً منه لهم، بإيصال نفعها. وخص كل نوع منها بنوع من المرض يزاوله ويشفيه. وركب في الإنسان العقل والسمع والبصر ليتم بذلك استعداده لتناول منافعه ومصلحه، واستعمالها في وقاية صحته، وحفظ بنيته.

وكان من هدي النبي ﷺ فعل التداوي في نفسه والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه؛ لأنه من دينه وشرعه. ويقول: «تداووا يا عباد الله، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً غير داء واحد وهو المهرم»^(١).

وفي رواية أخرى: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً - أي ما أصاب أحدًا بداء إلا قدر له دواء - علمه من علمه وجهله من جهله».

وقيل للنبي ﷺ: «يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقئها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «لا، بل هي من قدر الله»»^(٢). «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ»^(٣) فتضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإن الله بحكمته ورحمته جعل لكل داء يحل بالناس دواء يبرئه، بحيث يرفعه ويدفعه. وإن هذا لا ينافي التوكل على الله.

(١) رواه أحمد في مسنده وأصحاب السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم من حديث ابن مسعود وإسناده صحيح.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک من حديث حكيم بن حزام، وابن ماجه من حديث أبي خزامة.

(٣) رواه مسلم، والحاكم في المستدرک، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في السنن وشعب الإيمان، والنسائي في الكبرى، والطبراني في المعجم الكبير.

كما أن الإنسان إذا اشتد عطشه دفع داء العطش بالماء، ودفع داء الجوع بالأكل، ودفع داء البرد بالثياب والملاحف والخفاف، فهذا مثله. والوقاية خير من العلاج. والدفع أيسر من الرفع. والشفاء قبل الإشفاء.

فاستعمال الأدوية المباحة والوقاية النافعة هي من تمام تحقيق التوحيد؛ لأن كل ما شرعه رسول الله ﷺ وأمر به فإنه من الدين الذي يجب اتباعه، والعمل به، كيف والرسول ﷺ يقول: «يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا أَنْزَلَ مِنْ دَاءٍ إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»^(١) ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الطعن في الدواء قدح في الشرع، والإعراض عن الأسباب نقص في العقل.

وعاجز الرأي مضياك لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

مثال ذلك كون الإنسان يصاب بالتخمة فمن الحزم إزالتها بالأدوية الكريهة، أو المسهلة لإخراج الفضلات؛ لأن الإنسان في الدنيا كما قيل:

نحنن في دار بليات نندفع آفات بآفات

ولأن الدواء الكريه المر في حالة نفعه وحسن عاقبته يعتبر حلواً، كما أن الأكل الحلو الضار، يعتبر مرّاً في مضرته وسوء عاقبته. وقد قيل:

وخذ مرّاً تصادف منه نفعاً ولا تعدل إلى حلو يضر

فإن المر حين يسر حلو وإن الحلو حين يضر مر

فهذا التطعيم عن الأمراض الوبئة قد جربته الأمم على اختلاف أديانهم وأوطانهم، ووجدوا له من التأثير في الوقاية من الأمراض القتالة، وفي الشفاء به ما يشهد الواقع بصحته، ولا طبيب إلا ذو تجربة. لهذا نجد بعض الناس يتقاعس - توكلًا منه بزعمه - عن استعمال هذه الأدوية التي هي التطعيم ونحوه، توكلًا منهم بزعمهم على الله، ولم يشعروا بأن تركهم للأسباب عجز ينافي التوكل على الله، وإنما المتوكل الصحيح، هو الذي يستعمل أسباب الوقاية، ثم يتوكل على ربه، كما في الحديث: أن رجلاً قال: «يا رسول الله ناقتي أعقلها وأتوكل، أم أطلقها

(١) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

وأتوكل؟ فقال: «بل اعقلها وتوكل»^(١).

قول النبي ﷺ: «تَدَاوُوا وَلَا تَدَاوُوا بِحَرَامٍ»^(٢) «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً»^(٣) فكل هذا فيه شحذ للهمم، وتنشيط للأمم في طلب الدواء، والتفتيش عليه في مظانه عند الأطباء. ولما عاد النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص بمكة وقد اشتد به المرض. قال: «ادعوا له الحارث بن كلة»^(٤) فصنع له دواء فاستعمله فبرئ بإذن الله؛ لأن الدواء أمان للصحة وقت المهلة. فقول بعض العوام من الجهال إن كان الله قدر علي المرض فإن العلاج لن يدفعه، هو قول باطل، وحجة داحضة، نظير حجة المشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. فإن المرض يقع بقدر الله، والدواء الذي يرفعه ويعالج به هو من قدر الله، والمؤمن يدفع قدر الله بقدر الله. ويفر من قدر الله إلى قدر الله، وهذا رسول رب العالمين ﷺ الذي هو كما وصفه ربه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. يأمر باتقاء اسباب البلاء والمباعدة عن مواقع الوباء، مع قوة توكله على الله، ويقول في الحديث الصحيح: «لَا يُورَدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»^(٥) ويقول: «فَرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ»^(٦) ولما قدم رجل مجذوم يريد أن يهاجر منعه رسول الله ﷺ من دخول البلد. وقال: «ارْجِعْ فَقَدْ بَايَعْنَاكَ»^(٧). وجاء قوم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، والترمذي من حديث أنس بن مالك، وابن حبان في صحيحه من حديث عمرو بن أمية.

(٢) رواه أبو داود والبيهقي من حديث أبي الدرداء.

(٣) رواه البخاري وابن خزيمة في صحيحه من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه أبو داود من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٥) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة.

(٦) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٧) رواه مسلم من حديث الشريد بن سويد.

الله إن لنا بلدًا هي ريفنا ومصيفنا، ولكننا إذا نزلناها ضعفت أجسامنا، وقل عددنا. فقال رسول الله ﷺ: «اتركوها ذميمة فَإِنَّ مِنَ الْقَرْفِ التَّلَفَ»^(١). فنهى رسول الله ﷺ عن سكنى هذه القرية الوبيئة، وأخبر أن مقاربة الوباء عين الهلاك والتلف. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتقون أسباب البلاء، ويتباعدون عن مواقع الوباء، مع قوة توكلهم على الله.

ولما سافروا صحبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الشام، واقتربوا من البلد، تلقاهم أبو عبيدة بن الجراح وأخبرهم أن الوباء وقع بالبلد، فنزل عمر بالناس، وقال: يا ابن عباس ادع لي المهاجرين قال: فدعوتهم له؛ فاستشارهم. أيقدم البلد أم يرجع بأصحاب رسول الله ﷺ فاختلفوا عليه: فمنهم من قال توكل على الله واقدم البلد. ومنهم من قال: ارجع بأصحاب رسول الله ﷺ. ثم قال: ادع لي الأنصار. فدعوتهم له. فاتفقت كلمتهم على أن قالوا: نرى أن ترجع بأصحاب رسول الله ﷺ ولا تقدم بهم على الوباء. فأمر منادياً ينادي: إني مصبح على ظهر فتأهبوا للرجوع. فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله يا عمر؟ قال: نعم؛ نفر من قدر الله إلى قدر الله^(٢). فهذا دليل على أن الصحابة كانوا يستعملون الأسباب والوسائل التي تحفظ صحتهم، وتقيهم من الوقوع في الوباء، مع قوة توكلهم على ربهم، واعتقادهم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لهذا صار من الواجب علينا أن ننصح المسلمين في استحباب استعمال الأدوية، والتطعيم عند دعاء الحاجة إليها؛ لأنها من أسباب حفظ صحتهم، وصحة أهلهم وعيالهم، كما جربوا التطعيم في دفع الجدري عن أولادهم. وإن المعرض عن استعمال هذه الأدوية المجربة يعتبر ناقص العقل، ضعيف الرأي، مضياً لفرصته، تاركاً للعمل بآداب دينه، ونصائح نبيه؛ لأن الدين والدعوة إليه ليس مقصوراً على الصلاة والصيام؛ ولكنه شامل لكل ما ثبت عن الله ورسوله ﷺ من الأمر والنهي، والحكمة.

(١) رواه أبو داود من حديث فروة بن مسيك.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس.

ومتى استعمل الإنسان ما يلزمه من وسائل الحزم، والأسباب اللازمة، فمتى غلبه أمر فلن يعود على نفسه باللائمة؛ لأن نجاح الأمور بيد الله. وهذا معنى قول النبي ﷺ: «استعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»^(١).

لكن هنا أشياء تعلقت بها قلوب بعض الضعفة وهي تضر ولا تنفع، مثل تشاؤمهم بشهر صفر، أو تشاؤمهم بيوم الأربعاء، فلا يسافرون فيه، ويزعمون أنه يوم نحس مستمر، أو يتشاؤمون بما بين العيدين، فلا يتزوجون فيه، فهذا التشاؤم والاعتقاد إنما نشأ من الجاهلية الأولى، وهو من الطيرة التي هي من الشرك، والطيرة على من تطير وإلا فإن هذه الأيام لا تفعل شيئاً من الشر في أنفسها! بل هي كسائر أيام السنة التي ينزل فيها الخير والنصر ويستجاب فيها الدعاء. وكذلك ما يفعله بعض سخفة العقول من تعليق الجوامع على أجسامهم، وعلى أولادهم ودوابهم، يزعمون أنها تدفع عنهم الجان وعين الإنسان، وهذا يدخل في الشرك. فإن من علق شيئاً فقد أشرك. وفي الحديث: «مَنْ عَلَّقَ شَيْئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ»^(٢) وقد دعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ»^(٣) لهذا يقع التسلط من الشياطين على الذين يعلقون الجوامع، وتسمى الحروز والعزائم والتمايم. ولهذا ورد في الحديث: «من قطع تيممة - أي جامعة من إنسان - كان كعدل رقبة» لكونه أنقذه من عبودية الشيطان»^(٤). والمؤمن يلتجئ إلى ربه، ويتوكل عليه، ويكفيه أن يقول: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَآمَةٍ»^(٥) ونحو ذلك من الأوراد الشرعية.

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه النسائي من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد جيد، والحاكم من حديث عقبة بن عامر، وقال: صحيح الإسناد.

(٤) رواه ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير.

(٥) رواه البخاري من حديث ابن عباس.

وأما الرقية بالآيات القرآنية، والأوراد النبوية، فإنه لا بأس بها. وقد رقى النبي ﷺ وركي، وكان إذا جاءه المريض قال: **بسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك، من كل عين حاسد، ومن كل شيطان مارد، الله يشفيك**»^(١).

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللکم، وحافظوا على فرائض ربكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ».

(٣٢)

تفسير سورة الجمعة

الحمد لله الذي خلق الخلق ليعبدوه. وركب فيهم العقول ليعرفوه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنه ليشكروه. وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة خلص يخاف ربه ويرجوه، وأشهد أن محمدًا نبيه ورسوله. اللهم صل عليه، وعلى آله وأصحابه الذين آزره ونصروه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن الله سبحانه قد افترض على عباده المؤمنين وجوب العمل بشرائع الدين، ومن أكدها الصلوات الخمس المفروضة؛ التي هي عمود الديانة، ورأس الأمانة، تهدي إلى الفضائل، وتكف عن الرذائل، تذكر بالله الكريم الأكبر، وتصد عن الفحشاء والمنكر. وأكدها الجمعة التي هي عيد الأسبوع، والتي هي أفضل من عيد الأضحى وعيد الفطر. والجمعة هي أفضل يوم طلعت عليه الشمس.

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ». وقد قال النبي ﷺ على أعواد منبره: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ»^(١) رواه مسلم من حديث ابن عمر وأبي هريرة، والختم: هو: الغلق على القلب بحيث لا يدخله الهدى ولا يتخلص منه الشقاء.

(١) رواه مسلم عن الحكم بن مينا أن عبد الله بن عمر وأبا هريرة حدثاه أنها سمعاه من رسول الله ﷺ.

وكان من هدي النبي ﷺ أنه يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين، وربما قرأ فيهما بسبح والغاشية، وكان على الإجمال يحب قراءة المسبحات؛ لفضل ما اشتملت عليه من الأحكام والمواعظ العظام. والله تعالى يقول: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]. وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١]. إن معنى التسييح هو التنزيه والتقدیس لله سبحانه. ولهذا أكثر سبحانه من ذكره.

والتسييح، هو أثقل ما يجعل في ميزان العبد يوم القيامة؛ لحديث: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١) وصلت إليكم معشر الأمة رسالة من أبيكم إبراهيم مع نبيكم محمد ﷺ، فروى الترمذي من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرَأُ أَمْتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ، وَغِرَاسُهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(٢).

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

الأميون هم العرب أطلق عليهم اسم الأمية من أجل أنهم لا يكتبون ولا يقرؤون، وليس عندهم بمكة مدارس، ولا كتب، أشبهوا الأعراب المتنقلة. وقد سمي الله نبيه أمياً من أجل أنه لا يكتب، ولا يقرأ المكتوب. فقال سبحانه: ﴿...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي من حديث ابن مسعود، وقال: حديث حسن. والقيعان جمع قاع وهو المكان الواسع المستوي من الأرض.

وأمية الرسول هي معجزة من معجزات نبوته، وليست من سنته. وإنما خص الله نبيه بالأمية، صيانة وحماية للوحي الذي جاء به، لئلا تحتف به الظنون الخاطئة، والأوهام الكاذبة، فيقولوا: تعلمه من كذا، أو كتبه من كتاب كذا، يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩]. وقد قيل: كفاك بالعلم في الأمي معجزة. وهذه الأمية بما أنها معجزة من معجزات نبوته، فقد جاء بمحاربة الأمية وتقليلها.

ولهذا أول ما أنزل الله من وحيه قوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق: ١-٤].

فقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي يعرفون نسبه وصدقه وأمانته. ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ ويفسرهما لهم، ويسألونه عما أشكل عليهم منها، يقول ابن مسعود: كنا إذا تعلمنا عشر آيات لم نتجاوزهن حتى نتعلم معانيهن والعمل بهن^(١).

وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي بالمحافظة على الفرائض والفضائل واجتناب منكرات الأخلاق والردائل؛ لأن هذه هي التي تزكي النفوس وتطهرها، وتنشر في العالمين فخرها وشرف ذكرها.

و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩-١٠]. أي قد أفلح من زكى نفسه بالطاعات، والمحافظة على الصلوات، في الجمع والجماعات، وقد أفلح من زكى نفسه بأداء الزكاة، وقد أفلح من زكى نفسه بصلة القربات، وبسط اليد بالصدقات، والإحسان إلى المساكين والأيتام، وذوي الحاجات، والتفريع على المكرويين والمنكوبين من ذوي الهيئات، وقد أفلح من زكى نفسه بالصدق والأمانة، وأداء الحقوق إلى أهلها، والتعفف عن الظلم، وعن الهال الحرام؛ لأن هذه الأعمال هي التي تزكي الإنسان، وتنشر في العالمين فخره وشرف ذكره.

(١) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار من حديث عبد الله بن مسعود.

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فكن طالباً للنفس أعلى المراتب

كما أن المنكرات وشرب المسكرات، وترك فرائض الطاعات، والتخلق بالكذب والخيانة، ومنع الحقوق الواجبة، وأكل المال الحرام؛ كل هذه تدنس النفوس وتدسيها، وتنتشر في العالمين أشنع ذكرها، ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ثم قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالكتاب؛ القرآن، والحكمة؛ السنة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي أن الناس قبل الإسلام، وقبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، كانوا في جهالة جهلاء، وضلالة عمياء، يقتلون أولادهم خشية الفقر، ويقتلون بناتهم خشية العار، يعبدون الأشجار والأحجار والقبور؛ كالات والعزى، وكانوا مستذلين بين كسرى وقيصر، قد سادهم الغرباء في أرضهم، وأذهم الأجانب في عقر دارهم، لم يستقلوا استقلالاً تاماً إلا بالإسلام، ولم تعرفهم الأمم، وتحدث بصولتهم، وتحشى دولتهم إلا بالإسلام. وبعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام.

فالإسلام أنشأ العرب نشأة مستأنفة؛ خرجوا من جزيرتهم والقرآن بأيديهم يفتحون به ويسودون، فهو السبب الأعظم الذي به نهضوا، وفتحوا وسادوا وشادوا، وبلغوا المبالغ كلها من المجد والرقى، وتحولوا بهديته من البداوة إلى الحضارة، ومن الجفاء والغلظة إلى اللين والرحمة، ومن العداوة والقسوة إلى الأخوة والمودة، ومن الفرقة والاختلاف إلى الوحدة والاتلاف، ومن الجفاء والجهل والأمية إلى العلم والحضارة والمدنية واستبدلوا بأرواحهم الجافية الجاهلية أرواحاً كريمة دينية صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز وعلم، ومنعة وعرفان.

وقد أنجزهم الله ما وعدهم به في القرآن في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٥-٥٦].

وصدق الله وعده فكانوا هم ملوك الأمصار بعد أن كانوا عالة في القرى والقفار، يعز على أحدهم شبع جوعته، وستر عورته، كما في صحيح مسلم عن عتبة ابن غزوان أنه قال: لقد رأيته وأنا سابع سبعة من أصحاب النبي ﷺ، مالنا طعام نأكله إلا ورق الشجر، وإني التقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقاص، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا وهو أمير على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا، وعند الله حقيرًا.

وقال قتادة - وهو الشاهد المشاهد لحالم - قال: إن العرب قبل الإسلام، وقبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، كانوا أذل الناس ذلًا، وأشقاهم عيشًا، وأجوعهم بطونًا، وأعراهم ظهورًا، وأبينهم ضلالًا، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم من حاضر أهل الأرض شر منزلة منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس، فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يجب الشكر.

وقد بشرهم النبي ﷺ بهذا الفتح قبل وقوعه كما في صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان في بيت أم حرام بنت ملحان وقال: «لقد عرض علي أناس من أمتي يركبون ثبج هذا البحر، ملوك على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة». قالت أم حرام: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم». فغزت مع زوجها عبادة بن الصامت. فسقطت عن دابتها، فماتت رحمته الله.

ثم أخبر أن هذا الخير الذي فضلهم به، وهذا الهدى والنور الذي جاء به رسول الله ﷺ، ليس هو مخصوصًا بالأول دون الآخر، فقال سبحانه: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٣]. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤]. فهذا الفضل، وهذا الخير هو مشترك بين الصحابة وبين من بعدهم؛ كل على حسب عمله، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه. مع العلم أن الفضل للمتقدم، وللصحابة مزية بصحبته لرسول الله ﷺ وجهادهم معه، لا يساميهم فيها أحد، كما في الصحيحين عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - لا أدري

أذكر مرتين أو ثلاثاً - ثم يجيء قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن». وفي صحيح الترمذي أن النبي ﷺ قال: «ومثل هذه الأمة؛ مثل المطر، كما يوجد الخير في أول المطر؛ فإنه قد يوجد في آخره». وأخبر سبحانه: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ هم الغرباء في زمانهم، النزاع من القبائل، قوم صالحون، قليل في قوم سوء كثير، يصلحون إذا فسد الناس، ويصلحون ما أفسد الناس من السنة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «الْمُتَمَسِّكُ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي لَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ»^(١).

ثم قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. فمعنى ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾: أي كلفوا العمل بها فلم يعملوا بها. وهذا الخطاب ليس مختصاً باليهود، وإنما هو عام لجميع الناس. فمعناه بالضبط: مثل الذين حملوا القرآن؛ أي كلفوا العمل به فلم يعملوا به؛ كمثل الحمار يحمل أسفاراً أي يحمل كتباً فوق ظهره، لا يدري ما فيها، ولا ينتفع بها؛ لأن الاعتبار في القرآن هو بعموم لفظه، لا بخصوص سببه، فهو يتمشى في خطابه على حد:

إياك أعني واسمعي يا جاره

نظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُثِيقُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]. فمعناه بالضبط: يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن. وقد قال بعض السلف: إذا قال الله يا بني إسرائيل؛ فإن بني إسرائيل قد مضوا! وإنما يعني أنتم.

إن الذي يستمع للخطبة ولا ينتفع بها، ولا يعمل بها؛ فإن مثله كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره كتباً لا يدري ما فيها. وفي حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير من حديث ابن عباس والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بلفظ «فلة أجر شهيد».

وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَهُوَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، من تكلم والإمام يخطب؛ فهو كمثل الحمار يحمل أسفارًا، ومن قال لصاحبه: أَنْصِتْ فَقَدْ لَغَا، ومن لغا فلا جمعة له»^(١) إن من يستمع إلى الخطيب وهو يقول: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وهو يتركها أو يسمعه يقول: ﴿وَعَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. وهو يأكلها، أو يسمعه يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وهو يأكل ويشرب في نهار رمضان، أو يسمع قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]. وهو يراي بكل ماله، ويرى أن الحلال ما حل بيده، أو يسمع الخطيب يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. وهو يدمن على شربها صباحًا ومساءً إنه بمثابة من يقول: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء: ٤٦]. ومعلوم أن فائدة الاستماع الاتباع. وقد مدح الله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. ومتى كان يستمع هذه المواعظ من القرآن والسنة من الخطيب ولا يتبعها؛ فإن مثله كمثل الحمار الذي يحمل كتبًا فوق ظهره ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥].

زوامل للأخبار لا علم عندهم بمقننها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

إن الجمعة واجبة على كل مسلم في جماعة، إلا على أربعة: مملوك، وامرأة، وصبي، ومريض. كما ثبت بذلك الحديث، وسميت الجمعة جمعة لاجتماع الناس لها؛ لأنها عيد الأسبوع. وهي أفضل من عيد الفطر والأضحى ولهذا حرم الفقهاء تعداد الجمع إلا لضرورة تقدر بقدرها. فأمر الله بالسعي إليها، وأخبرهم بأن حضورها والمحافظة عليها خير لهم من الدنيا وما فيها؛ لأن

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، والهيتمي في مجمع الزوائد من حديث ابن عباس.

الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما. فيجب السعي إليها على من بينه وبين المسجد قدر فرسخ، وهو ما يقدر بمسير ساعة بالأقدام، وديبب الأجمال بالأحمال.

ثم قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. أي متى فرغتم من صلاة الجمعة التي تركتم لها البيع والشراء، فانتشروا في الأرض، وبيعوا واشتروا، وابنوا واغرسوا، واشتغلوا في سائر الحرف المباحة.

ولهذا كان عراك بن مالك - أحد التابعين - إذا فرغ من صلاة الجمعة، أمسك بعضادة باب المسجد فقال: اللهم أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك كما وعدتني، إنك خير الرازقين.

نسأل الله سبحانه أن يعمننا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره، وحسن عبادته.

فضل رَجَب وشعبان

الحمد لله العفو الغفور، الرؤوف الشكور، الذي وفق من أراد هدايته لمحاسن الأمور، ومكاسب الأجور، فعملوا في حياتهم أعمالاً صالحة لوفاتهم، يرجون بها تجارة لن تبور، وأشهد أن لا إله إلا الله، بيده مواقيت الأعمار ومقادير الأمور، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى كل عمل مبرور، اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن الشهور والأعوام، والليالي والأيام؛ كلها مواقيت الأعمال، ومقادير الآجال، فهي تنقضي جميعاً، وتمضي سريعاً، والذي أوجدها وخصها بالفضائل وأودعها هو باق لا يزول، ودائم لا يحول، وهو في كل الحالات إله واحد، ولأعمال عباده رقيب مشاهد، يقلب عباده بفنون الخدم، ليسبغ عليهم فواضل النعم، ويعاملهم بغاية الجود والكرم.

فما يبدو يوم من الأيام، ولا شهر من الشهور، إلا والله فيه على عباده وظيفة من وظائف طاعته، والله فيه لطيفة من لطائف نفحاته؛ يصيب به من يشاء من عباده، فالسعيد من اغتنم ممر الأيام والليالي والساعات، وتقرب إلى الله فيها بوظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن فيها من النار وما فيها من اللفحات وفي الحديث «اُطْلُبُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ، وَتَعَرَّضُوا نَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَسَلُّوا اللَّهَ أَنْ يَسْتَرَّ عَوْرَاتِكُمْ، وَأَنْ يُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ»^(١). والله سبحانه لم يجعل لعمل

(١) رواه ابن أبي الدنيا أبو بكر في كتاب الفرج بعد الشدة والحكيم في نوادره والبيهقي وأبو نعيم في الحلية كلهم من حديث أنس بن مالك.

المؤمن منتهى إلا الموت يقول الله سبحانه: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال، كالصلاة والزكاة والصدقات والصيام، وسائر أفعال البر والإحسان؛ لأن كل عمر يخليه المرء من طاعة الله فقد خسره، وكل ساعة يغفل فيها عن ذكر الله تكون عليه حسرة ورتة، وخيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وساء عمله، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى، وأسد ففرك، وإن لا تفعل ملأت قلبك شغلاً، ولم أسد ففرك»^(١) ومعنى تفرغ لعبادتي أي العبادة التي أوجب الله عليك. فلا تشتغل عنها بأهل ولا مال، وفي القرآن المنزل ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان.

ويسأل بعض الناس عن صيام رجب هل هو مشروع أو مكروه؟ فالجواب: أنه مهما فعل الإنسان من الطاعة والإحسان فإنه يجده مدخراً له عند ربه في كفة حسناته، والتعبد بالصيام فيه فضل كبير، ورجب هو من الأشهر الحرم المحترمة عند الله، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ النهي عن صيامه، بل ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان يكثر من صيام شعبان، ويقول: «إِنَّهُ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ»^(٢) فدل الحديث على أن الناس يصومون من رجب بعضه، ولم ينكر النبي ﷺ عليهم. وأما قول الفقهاء ويكره أفراد رجب بالصوم، فيعنون بذلك كونه يفرد رجب بصومه كله؛ لأنه ليس من هدي النبي ﷺ أنه يصوم شهراً كاملاً غير رمضان. وقالوا: إنه من عادة الجاهلية. أما الذي له عادة أنه يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، أو يصوم من رجب شيئاً من الأيام، فإنه لا بأس بذلك، ويؤجر على صيامه في رجب، كما يؤجر على صيامه في غيره من سائر الشهور، ومهما صام الإنسان بنية لله، فإن الله يأجره على صيامه بالأجر الجزيل، كما في

(١) رواه الحاكم من حديث معقل بن يسار وقال: صحيح الإسناد.

(٢) من حديث رواه أحمد والطبراني من حديث أنس بن مالك. ورواه النسائي من حديث أسامة ابن زيد.

الحديث أن النبي ﷺ قال: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ»^(١) أَيضًا تقول أم سلمة: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لَا يَفْطُرُ. وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لَا يَصُومُ. وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ»^(٢) ويقول: «إِنْ هَذَا الشَّهْرُ يَغْفِلُ النَّاسُ فِيهِ؛ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ».

والصيام بما أنه طاعة للرحمن، وعلامة على صحة الإيمان، فإنه من أسباب الصحة للأبدان كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «صوموا تصحوا»^(٣) وروي: «أَنْ لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصَّوْمُ»^(٤) ومن المشاهد المحسوس أن الذين يتطوعون بالصيام، أنهم من أنعم الناس بالآ وأصحبهم أجسامًا، وأطولهم أعمارًا، وأقدرهم على معاناة الأشغال الشاقة؛ لأن الله يعطيهم على الطاعة قوة ونشاطًا ولأن للطاعة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في الجسم، ومحبة في قلوب الناس. يقول الله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتْنَعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [هود: ٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي ﷺ بثلاث خصال: أن أصلي ركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام، وأن أصوم من كل شهر ثلاثة أيام. فمن وفقه الله للعمل بهذه الخصال الثلاث؛ التي من جملتها صيام ثلاثة أيام من كل شهر، سواء كان من أوله، أو من وسطه، كالأيام البيض، أو من آخره؛ لأن اليوم بعشرة أيام بموجب التضعيف. فصوموا يومًا شديدًا حره حر يوم النشور، وصلوا في ظلمة الليل لظلمة القبور، وتصدقوا بصدقة السر لشر يوم عسير.

(١) من حديث رواه الترمذي من حديث معاذ وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة.

(٣) رواه الطبراني من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة.

ولأن النوافل من الصلاة والصيام يكمل بها خلل الفرائض إن لم يكن صاحبها أتمها؛ لأن الله سبحانه أول ما ينظر في أعمال العبد يوم القيامة في صلاته، فإن كملت فقد أفلح ونجح، وإن نقصت قال الله: «انظروا ما كان لعبدي من تطوع فكملا به فريضته»^(١) وكذلك سائر الأعمال تجري على هذا المنوال. ولأنها من الأسباب التي تحبب الرب إلى العبد لحديث: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»^(٢)

ولهذا قال: أن أصلي ركعتي الضحى، وهما خير من الدنيا وما فيها، وفي الإنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً مطلوب منه أن يتصدق عن كل مفصل بصدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، وتأتي الرجل فتحمله على دابته أو سيارته صدقة، أو ترفع له متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، ويجزي عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى، فهي بمثابة الصدقة عن سائر هذه الأعضاء وقد صلى النبي ﷺ في بيت أم هانئ يوم الفتح ثماني ركعات وذلك ضحى، ولهذا يستحب فعلها في البيت؛ لأنها من الأسباب التي تدخل في البيت البركة وسعة الرزق، وتحف أهل البيت الملائكة، وتغشاهم الرحمة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ فِي بُيُوتِكُمْ خَيْرًا وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»^(٣) أي تهجرونها من فعل نوافل الصلاة فيها، وعلى كل حال فإنه لا أفضل من مسلم يعمر في الإسلام لتسبيحة أو تهليلة أو صدقة أو صلاة ركعة أو صيام يوم... وهنا حديث يسمعه بعض الناس وهو قوله: «إِذَا انْتَصَفَ شَعْبَانُ فَلَا تَصُومُوا إِلَّا فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ» رواه أهل السنن. لكن الأئمة ضعفوا هذا الحديث، وحكموا ببطلانه، وأنه يجوز للإنسان أن يصوم ما

(١) رواه أهل السنن أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، والإمام أحمد في مسنده، والطبراني في الأوسط، وأبو يعلى في مسنده، جميعاً من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٣) متفق عليه عن ابن عمر بدون لفظ: «إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ فِي بُيُوتِكُمْ خَيْرًا».

شاء بعد منتصف الشهر إلا أنه لا يجوز أن يصوم يوم الشك لقول النبي ﷺ: «**لَا تَقْدَمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ، أَوْ يَوْمَيْنِ**»^(١) ومثله الحديث الوارد في فضل النصف من شعبان، وأنه يكتب فيه الآجال، ويغفر فيه لأكثر من شعر غنم كلب؛ فإنه حديث باطل لا صحة له، والتجمع في هذا اليوم لقصد فضله بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ومثله التجمع في سبع وعشرين من رجب؛ لزعمهم أنه وقت الإسراء والمعراج؛ فإن هذا غير صحيح ولا ثابت، فإنه لم يحفظ بطريق النقل الصحيح الشهر الذي أسري برسول الله ﷺ، فيه فهذا التجمع في وقته يعتبر من البدع، أشبه التجمع للمولد، فكلها من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان فاتبعوا ولا تبتدعوا.

وإن الموتى في قبورهم يتمنون الزيادة في أعمالهم، ويتمنون أنهم أحياء مثلكم ليعملوا أعمالاً صالحة، وقد حيل بينهم وبين العمل، وغلقت منهم الرهون. يقول أحدهم: ﴿...رَبِّ **أَرْجِعُونِ**﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. فهم يتمنون العمل ولا يقدرُونَ عليه، وأنتم تقدرُونَ على العمل ولا تعملُونَ، وأنتم الآن في شهر شعبان، فمن كان عليه شيء من رمضان فليبادر بقضائه ثم يبيت العزم لصيام رمضان، فإن الإنسان بخير ما نوى الخير. كما أن من أتى فراشه ومن نيته أن يقوم من الليل، فغلبه النوم، فإنه يكتب له قيام ليلة، ويكون نومه عليه صدقة. وكان النبي ﷺ إذا غلبه النوم عن قيام ليلة، صلى من النهار ثمان ركعات.

أسأل الله أن يعمننا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره، وشكره وحسن عبادته.

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣٤)

الذكرى لآخر شعبان

والاستعداد بالعمل لدخول شهر رمضان

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة من قال ربّي الله ثم استقام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سيد الأنام، اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام.

أما بعد: فيا أيها المستمعون الكرام، إنكم الآن في آخر شهر شعبان وعمّا قليل يستهل عليكم شهر رمضان الذي هو غرة الزمان، ومتجر أهل الإيمان، خصه الله بإنزال القرآن، وأوجب فيه على المؤمنين الصيام، وجعل صومه أحد أركان الإسلام الذي ما تم دين إلا به ولا استقام.

فمن جحد وجوبه فهو كافر بإجماع علماء الإسلام. ومن أفطر يوماً منه عمداً من غير عذر لم يقضه عنه صوم سائر الزمان، قال ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن: ثلاث أسس عليهن الإسلام: الشهادتان، والصلاة، والصيام.

ومن خصائص شهر شعبان هو أن رسول الله ﷺ كان يكثر الصيام فيه فيقول: «إِنَّهُ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ»^(١) أما ما ورد في فضله، وأنه تكتب فيه الآجال، وكذا ما ورد في ليلة النصف منه، وأنه يغفر فيها لأكثر من عدد شعر غنم كلب، وأن النبي ﷺ أحيّا ليلة النصف بالصلاة، فكل هذا من الكذب على الرسول باتفاق علماء الحديث. وأما حديث إذا انتصف

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، والنسائي، والبيهقي في شعب الإيمان، جميعاً من حديث أسامة بن زيد.

شعبان فلا تصوموا إلا فيما افترض عليكم فقد صح عن علماء الحديث عدم صحة هذا الحديث، وأنه يجوز أن يصوم من آخر شعبان كما يصوم من أوله لا فرق في ذلك؛ غير أنه لا يتقدم رمضان بصوم يوم قبله أو يومين، فإن هذا يوم الشك الذي نهى رسول الله ﷺ عن صومه.

أقبل شهر رمضان فرحب به المؤمنون، وكرهه الزنادقة الملحدون. فالمؤمنون في رمضان في صلاة وصيام، وتلاوة قرآن، ويسط يد بالصدقة والإحسان، فهم في نهارهم صائمون صابرون، وفي ليلهم طاعمون شاكرون، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم المتقون. أما الملحدون فإنهم يستحلون فيه الإفطار، وتمد لهم الموائد بالنهار، قد جمعوا بين ضلال مع إصرار، وكفر مع استكبار، لا ندم يعقبه ولا استغفار ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢-٣]. إنه ينبغي لنا قبل استهلال رمضان أن نحاسب أنفسنا، وأن نتوب إلى الله من سيئات أعمالنا، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والله يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه، والتائب من ذنبه، المحافظ على فرائض ربه؛ ينتظر الرحمة والفوز بالجنة. والمصر على معصيته، المتكبر عن طاعة ربه، ينتظر حلول العقاب والنقمة. وكل عامل سيقدم على عمله ولن يخرج من الدنيا حتى يبشر بحسن عمله، أو سوء عمله، وإنما الأعمال بخواتيمها. وخير الناس من طال عمره وحسن عمله. وشر الناس من طال عمره وساء عمله.

إن صيام رمضان عبادة دينية، ورياضة بدنية، وتأديب للشهوة البهيمية، أوجبه وشرعه من يعلم ما في ضمنه من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأنه من أسباب سعادتهم الدينية والبدنية؛ لأن شرائع الإسلام منزلة على جلب المصالح، ودفع المضار، فلا يوجب الله شيئاً من الواجبات كالصلاة والزكاة والصيام إلا ومصلحته راجحة، ومنفعته واضحة، ولا يحرم شيئاً من المحرمات، كالربا والزنا وشرب الخمر، إلا ومضرته واضحة، ومفسدته راجحة.

ومن حكمة الصوم أن الله شرعه لتظهر به عبودية العبد للرب، في سرائه وضرائه، فيطيع ربه فيما يحب، وفيما يكره، فيمسك صائماً صابراً عن مطعمه ومشربه، في سبيل رضا ربه ومحبوه،

والله يقول: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ»^(١). فالمسلم لو ضرب على أن يستبجح الفطر في نهار رمضان، لما استباح الفطر أبدًا؛ لكون إيمانه يمنعه عن إحباط أعماله وهذا هو العنوان على صحة الإيمان؛ لأن الإيمان الصحيح هو أعظم وازع إلى أفعال الطاعات، وأعظم رادع عن موافقة المنكرات.

لن ترجع الأنفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر

ومن حكمة الصيام أن الله جعله بمثابة الفرقان بين المسلمين والكفار، والملتقين والفجار، فهو بمثابة محك التمييز لصحة الإيمان، به يعرف صادق الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فيفرح بذكره، ويندفع إلى القيام بفرضه ونفله؛ من صلاته وصيامه وزكاته، وسائر واجباته، منشراحًا بذلك صدره طيبة به نفسه.

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت في مرادها الأجسام

يقول الله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]. فحكمة الرب تأبى أن يدع الناس على حسب ما يدعون بألسنتهم، بحيث يقول أحدهم أنا مسلم، أنا مؤمن، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، بدون أن يختبر صحة دعواهم بالأعمال التي افترضها الله عليهم، فإن قاموا بما أوجب الله عليهم فقد صح إيمانهم، وصدق قولهم فعلهم، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣]. أي اختبرنا الأمم من قبلهم، بالشرائع والفرائض؛ كفريضة الصلاة، وفريضة الزكاة، والصيام ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [العنكبوت: ٣]. أي في دعوى إيمانهم، فقاموا بواجبات دينهم من صلاتهم، وزكاتهم، وصيامهم ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]. أي الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]. ولم تنقد للعمل به جوارحهم، وصار حظهم من

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الإسلام؛ هو محض التسمي به، والانتساب إلى أهله بدون عمل به، ولا انقياد لحكمه، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٨-٩]. فقد أخبر الله بأنه امتحن بالشرائع من كان قبلنا من الأمم، ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٧]. من ذلك فريضة الصيام، فقد فرض على من كان قبلنا صيام خمسين يومًا؛ لكنهم يميزون للقسيسين والرهبان بأن يغيروا من شريعة الرب ما يشاؤون وما يشتهون. فلما رأى القسيسون أن الصيام تطول مدته عليهم، ويحول بينهم وبين ما يشتهون، أخذوا يسقطون منه عشرة، فعشرة، حتى أسقطوه بالكلية، وجعلوا الصيام عن مجرد كل ذي روح، وجعلوا صومهم في خاصة الربيع، لهذا لعنهم الله في كتابه على تغيير شرائعه، وتبديل فرائضه، فقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]. فعلمنا من فحوى هذه الآية أن المحافظة على فرائض الله أنها حظ من الله يخص به من يشاء من عباده.

وهذا الذم ينطبق على كل من فسق عن أمر ربه، وترك فرائضه واستحل محارمه، كهؤلاء الذين أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، وخرقوا سياج الشرائع، واستخفوا بحرمات الدين، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، ويتسمى أحدهم بالإسلام، بمعنى الجنسية لا بالتزام أحكامه الشرعية، وقد أخبر النبي ﷺ أن للإسلام صوًى ومناًراً كمنار الطريق يعرف به صاحبه. وروى الإمام أحمد من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب». ومعنى كون الإسلام علانية أن المسلم على الحقيقة لا بد أن يظهر إسلامه علانية للناس؛ بحيث يرونه يصلي مع المصلين، ويصوم مع الصائمين، ويؤدي زكاة ماله إلى الفقراء والمساكين، فيظهر إسلامه علانية للناس، بحيث يشهدون له بموجبه، والناس شهداء الله في أرضه.

أما من يتسمى بالإسلام، وهو لا يصلي ولا يصوم، ولا يؤدي الزكاة الواجبة في ماله، فلا شك أن إسلامه لا حقيقة له، وإنما هو إسلام باللسان، يكذبه الحس والوجدان، والسنة والقرآن، ومن ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

فاعملوا بإسلامكم تعرفوا به، وادعوا الناس إليه تكونوا من خير أهله. فإنه لا إسلام بدون عمل. لهذا نقول إنه لا يستحل ترك الصلاة والفطر في نهار رمضان عمدًا من غير عذر سوى مرتد كافر بدين الإسلام. ترونه يمشي مع الناس في صورة إنسان، لكنه يعيش بأخلاق أخس حيوان. فهو شر من الكلب والخنزير، قد عصى رب العالمين، واتبع غير سبيل المؤمنين، ولم يأمر سبحانه بقتل التارك لدينه من أمثاله إلا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد بهم أخلاقه فإن الأخلاق تتعاضد والطباع تتناقل.

والمرء على دين خليله وجليسه، واعتبروا الناس بأخداثهم. قُتِلَ هذا الملحِد ما أكفره، أمره ربه بالصلاة فتركها، وأمره بالزكاة فأكلها، وأمره بالصيام فأكل وشرب في نهار رمضان. ومع هذا الكفر المتظاهر البواح، نراه يتسمى بالإسلام، قد جمع بين ضلال مع إصرار، وكفر مع استكبار، لا ندم يعقبه، ولا استغفار ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ [الحجر: ٢-٣].

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللکم، وحافظوا على فرائض ربکم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

الذكرى الجامعة لفوائد الصيام

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وامتن علينا ببلوغ شهر الصيام والقيام، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من قال ربي الله ثم استقام، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام.

أما بعد:

فيا أيها المستمعون الكرام؛ فإنني أبارك لكم في شهر رمضان، وأسأل الله أن يجعله مستهلاً علينا وعليكم بالأمن والإيمان، والسلامة والسلام، والتوفيق لصالح الأعمال، إن شهر رمضان هو غرة الزمان، ومتجر أهل الإيمان، خصه الله بإنزال القرآن، وأوجب فيه على المسلمين الصيام، وجعل صومه أحد أركان الإسلام، الذي ما تم دين إلا به ولا استقام، ومن جحد وجوبه فإنه كافر بإجماع علماء الإسلام.

فهو شهر جد واجتهاد، ومزرعة للعباد، وتطهير للقلوب من الفساد، وقمع لشهوة الشره والعناد، فمن زرع فيه خيراً، حمد عاقبة أمره وقت الحصاد، وقد أقسم رسول الله ﷺ، وقسمه حق وصدق، أنه ما مر بالمسلمين شهر هو خير لهم من رمضان؛ لأن أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار.

شهر تفتح فيه أبواب الجنان، وتغلق فيه أبواب النيران؛ وذلك بسبب توسع الناس في العبادات، وتسابقهم إلى الصلوات، وتنافسهم في الأعمال الصالحات، التي من جملتها بسط الأيدي بالصدقات، وصلة القربات، والإحسان إلى المساكين والأيتام وذوي الحاجات، والإكثار من الدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن، وتكثير أيدي المفطرين من الصوام على الطعام.

وهذه الخلال جدير بأن يفتح لفاعلها أبواب الجنان، وتغلق عنه أبواب النيران. ولهذا كان رسول الله ﷺ أجود ما يكون في رمضان، فيتضاعف جوده بالعتاء والصدقة والإحسان، قدرًا زائدًا على سائر الزمان؛ لأن الله يختص برحمته من يشاء، فيفضل إنسانًا على إنسان، وزمانًا على زمان، ومكانًا على مكان، وقد خص الله بالتفضيل شهر رمضان، يغشاكم الله فيه، فينزل الرحمة، ويحط الخطيئة، ويستجيب الدعاء، ينظر الله إلى تنافسكم فيه، فيباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، فإن المحروم من حرم فيه رحمة الله عز وجل، ولهذا كان رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان، ويقول: «أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر كتب الله عليكم صيامه. شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعًا، من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير، كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة، كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه. وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة. وشهر المواساة، وشهر يزداد فيه في رزق المؤمن. من فطر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء»^(١). ولأجل هذه الفضائل جرى تبادل التهاني بين المؤمنين في دخوله، بحيث يهنئ بعضهم بعضًا ببلوغه؛ لأن بلوغه نعمة عظيمة في حق من أطاع الله واتقاه، إذ لا أفضل من مؤمن يعمر في الإسلام، للتزود من الصلاة والصيام وصالح الأعمال. والموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم بصدقة أو صلاة أو صيام، ويتمنون لو أنهم أحياء مثلكم؛ ليعملوا أعمالاً صالحة، يقول المفرط منهم: ﴿...رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. فلا يجابون إلى ما طلبوا، فقد حيل بينهم وبين العمل، وغلقت منهم الرهون، والدنيا مزرعة الآخرة، تزرع فيها الأعمال الصالحة. من خرج منها فقيرًا من الحسنات والأعمال الصالحات، ورد على الآخرة فقيرًا وساءت مصيرًا.

إن الله سبحانه افترض على عباده المؤمنين صوم رمضان، ولم يشرع الله الصيام إلا لمصلحة تعود على الناس من صحة أبدانهم، وزيادة إيمانهم؛ لأن شرائع الإسلام منزلة على جلب

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه من حديث سلمان.

المصالح ودفع المضار، فلا يوجب الله شيئاً من الواجبات كالصلاة والزكاة والصيام، إلا ومصلحته راجحة، ومنفعته واضحة، ولا يحرم شيئاً من المحرمات، كالربا والزنا وشرب الخمر، إلا ومضرته واضحة، ومفسدته راجحة، وقد شرع الله الصيام لأنه من أسباب الصحة للأجسام، بحيث يعقب البدن الصحة، أشبه الحمية التي يحفظ بها الإنسان صحته؛ لأن في البدن فضولاً سيالة تنشف بالصوم، فتقوى العضلات، ويشتهي الطعام باشتياق؛ أشبه تضمير الخيل للسباق. وفي الحديث: «**صوموا تصحوا**»^(١) وقال: «**إِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ رَّكَاءَةٌ، وَرَّكَاءَةُ الْجَسَدِ الصَّوْمُ**»^(٢) أي أنه يزكي البدن وينقيه.

ومن المشاهد المحسوس أن الذين يتنفلون بالصيام، أنهم من أصح الناس أجساماً، وأطول الناس أعماراً؛ لأن للطاعة ضياء في الوجه، وقوة في الجسم، ثم إن الصلاة والصيام وسائر شرائع الإسلام هي بمثابة الفرقان بين المسلمين والكفار، والمتقين والفجار، وبمثابة محك التمحيص لصحة الإيمان، بها يعرف صادق الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان، ذلك بأن الله سبحانه لم يكن ليذر الناس على حسب ما يدعونهم بالأسنتهم، حتى يميز الخبيث من الطيب بأعمالهم. يقول الله تعالى: «**أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**»^(٣) [العنكبوت: ٢]. أي لا يختبرون، ولا يمتحنون على صحة ما يدعون «**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**» [العنكبوت: ٣]. أي اختبرنا الأمم قبلكم بالفرائض والحدود والمحرمات، «**فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا**» [العنكبوت: ٣]. في دعوى إيمانهم حيث قاموا بواجباتهم من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم، «**وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**» [العنكبوت: ٣]. الذين قالوا: «**ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**» [المائدة: ٤١]. ولم تنقد للعمل به جوارحهم وكان حظهم من الإيمان هو محض التسمي والانتساب إليه بدون عمل به، ولا انقياد لحكمه، وهذه الصفة تنطبق على كثير من الناس في هذا

(١) رواه الطبراني من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة.

الزمان، يتسمون بالإسلام، وهم منه بعداء، ويتحلون حبه وهم له أعداء، يقول أحدهم أنا مسلم، أنا مؤمن أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله. وهم لا يصلون ولا يصومون، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق ويستحل بعضهم الفطر في نهار رمضان عمداً من غير عذر، ومن المعلوم من دين الإسلام، أنه لا يستحل الفطر في نهار رمضان عمداً بدون عذر إلا مرتد كافر بدين الإسلام، ترونه يمشي مع الناس في صورة إنسان، لكنه يعيش بروح أخس حيوان، فهو شر من الكلب والخنزير. قد عصى رب العالمين، واتبع غير سبيل المؤمنين، ولم يأمر الله على لسان نبيه بقتل التارك لدينه، إلا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد به أخلاقهم، فإن الأخلاق تتعادي، والطباع تتناقل، والمرء على دين خليله وجليسه، ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ [الحجر: ٢-٣].

دخل شهر رمضان، وفرح به المؤمنون، وكرهه الزنادقة الملحدون، فالمؤمنون لا يزالون في صلاة وصيام وتلاوة قرآن، وبسط أيد بالصدقة والإحسان، فهم في نهارهم صائمون صابرون، وفي ليلهم طاعمون شاكرون، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤].

ومن أحكام الصيام الفقهية: أنه يجب الصوم على كل مسلم بالغ عاقل ويؤمر به الصبي إذا طاقه.

أما مختل الشعور، عديم المعرفة فإنه لا يجب عليه صيام ولا إطعام.

أما كبير السن الذي تجاوز ثمانين سنة والصوم يشق عليه فوق المشقة المعتادة فإنه يجوز له الفطر، ويخرج عن كل يوم إطعام مسكين أي كيلو من الأرز أو قدر قيمته لما روى البخاري عن ابن عباس قال: رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً. أما المريض الذي يتناول الأدوية في المستشفى فإنه يفطر ويقضي أياماً أخرى. أما الذي مرضه مزمن كداء الصدر الذي يسمونه داء السل، ويقول الطبيب إن الصوم يزيد في مرضه، ويؤخر من برئه، فإنه يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً كما ذكرنا.

ومن أكل أو شرب ناسيًّا فليتم صومه، ولا قضاء عليه، ومن أكل أو شرب ظانًّا أنه ليل فتيّن أن الصبح طالع، فصيامه صحيح ولا قضاء عليه. ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «عَفِيَ لَأُمْتِي عَنِ الْخَطَا وَالنَّسْيَانِ»^(١) ومن استيقظ آخر الليل وعليه جنابة ويخشى إن اغتسل أن يفوته السحور فإنه يتسحر ولو لم يغتسل إلا بعد طلوع الفجر، لما في البخاري عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يصبح جنبًا من جماع ثم يغتسل ويصوم ولا يقضي.

والمرأة إذا انقطع عنها دم الحيض بالليل ورأت النقاء أي البياض فإنه يجب عليها أن تنوي الصيام وتصوم كما يصوم الناس، ولو لم تغتسل إلا بعد طلوع الفجر، أو إلا بعد طلوع الشمس، وصيامها صحيح، ثم إن الاغتسال عن الحيض هو مثل الاغتسال عن الجنابة على حد سواء، فلا يجب عليها أن تنقض شعر رأسها، وإنما تروي أصوله بالماء فقط، وكذلك النفساء، متى انقطع عنها دم النفاس لعشرة أيام من الولادة، أو العشرين يومًا، فإنه يجب عليها من حين ينقطع عنها الدم أن تبادر إلى الاغتسال، ثم إلى فعل الصلاة والصيام، من غير تأخير، فإن الله يحب التوابين، ويجب المتطهرين.

أما ما يفعله بعض النساء من كون إحداهن ينقطع عنها دم النفاس، أو دم الحيض، ثم تبقى اليومين والثلاثة لا تغتسل ولا تصلي ولا تصوم وفي كلها تقول: أخشى أن يعود عليّ الدم. فهذا خطأ وتفريط منها في العبادة. فمن واجب المسلمة متى انقطع عنها الدم أن تبادر إلى الاغتسال في الحال ثم إلى فعل الصلاة والصيام من غير تأخير. والمرأة من نساء البوادي متى كانت في البر، وانقطع عنها دم الحيض، أو دم النفاس، وليس عندها ماء لتغتسل به، فإنه يجب عليها أن تضرب الصعيد أي التراب بيديها تنوي بذلك رفع الحدث عنها، ثم تصوم وتصلي، لقول النبي ﷺ: «الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ الْمُسْلِمِ - أي والمسلمة - وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ سِنِينَ، فَإِذَا

(١) رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر والطبراني من حديث ابن عباس. قال الحاكم: صحيح بنصه: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». ولا بن ماجه من حديث ابن عباس: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وقيل فيه: أنه حسن لذاته صحيح لغيره.

وَجَدَ الْمَاءَ فَلَيْتَقَى اللَّهَ وَلِيَمْسَهُ بَشَرَتَهُ»^(١) والمرأة إذا اغتسلت من الحيض والنفاس ثم رأت شيئاً من الصفرة أو الكدرة، فلا تبالي به بل تصوم وتصلي، لما في البخاري عن أم عطية قالت: كنا لا نعد الكدرة ولا الصفرة بعد الظهر شيئاً. وإذا رأت المرأة دم الحيض بعد غروب الشمس؛ أي بعد الفطر وشكت فيه هل حدث معها قبل غروب الشمس أو بعدها. فإن صيامها ذلك اليوم صحيح ولا تقضيه؛ إذ هو اليقين، والشك لا يرفع اليقين، وإذا رأت الحامل شيئاً من الدم فلا تترك له الصوم ولا الصلاة. بل تصوم وتصلي وصيامها صحيح؛ لأن هذا الدم ليس بحيض وإنما هو دم فساد يشبه الدم الخارج من الرعاف، أو من الجرح.

ثم إن تناول السحور وقت السحر سنة وفضيلة، وقد ساه رسول الله ﷺ بالغداء المبارك وقال: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ»^(٢). وقال: «فَصَلُّ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةَ السَّحْرِ»^(٣). وقال: «تَسَحَّرُوا وَنَعَمَ السَّحُورُ التَّمَرُ»^(٤) وقال: «تَسَحَّرُوا وَلَوْ بِجُرْعَةٍ مِنْ مَاءٍ»^(٥). وقال: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَهً»^(٦). وقال: «تَسَحَّرُوا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ الْغَدَاءُ الْمُبَارَكُ»^(٧). فأرشد النبي ﷺ أمته إلى فضيلة السحور ولو بأقل شيء ليتقوا به على الصيام، وحتى يتعودوا التيقظ آخر الليل لذكر الله والدعاء والاستغفار والصلاة وتلاوة القرآن؛

(١) رواه الترمذي والإمام أحمد في مسنده، والبزار في مسنده، جميعاً من حديث أبي ذر.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر ابن الخطاب ورواه أحمد بإسناد قوي من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو بن العاص.

(٤) رواه الطبراني من حديث السائب بن يزيد.

(٥) أخرجه أبو يعلى من حديث أنس، وهو ضعيف لضعف عبد الواحد الباهلي. ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر.

(٦) متفق عليه وأخرجه أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري. والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة ومن حديث ابن مسعود.

(٧) أخرجه الطبراني من حديث عتبة. وفي السند ضعف.

لأن الله تعالى يقول: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»^(١).

فأحب رسول الله ﷺ لأمته أن يستيقظوا في هذا الوقت المبارك، حتى يكون منهم من يصلي، ومنهم من يدعو، ومنهم من يستغفر، ومنهم من يتلو القرآن، وحتى لا يكونوا من الغافلين. فسماه السحور المبارك من أجل ذلك. ومن أجل أن الله وملائكته يصلون على المتسحرين. وهذه فضيلة عظيمة، ويتبعها ما هو أفضل منها، وهو شهود المتسحرين لصلاة الفجر في جماعة، والذي ورد في فضله أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ كُلِّهَا»^(٢) وقال: «مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ حَتَّى يُمِسي»^(٣) أما الرجل الأكل والنوم، الذي يملأ بطنه بعد العشاء من الطعام ولحوم الأنعام، ثم ينام عليه بعد العشاء، ويجعله سحوراً، ولعله لا يستيقظ إلا بعد طلوع الشمس، أو إلا وقت الضحى، فهذه خصلة ذميمة وعادة لثيمة، وكم فات رقاد الضحى من غنيمة، فإن التقلل من الأكل أو التيقظ وقت السحر فضيلة. كما أن كثرة الأكل، وكثرة النوم رذيلة.

وفي وقت السحر تنزل الرحمة، وتقسم الغنيمة على القائمين، فما يطلع الفجر إلا وقد حاز القائمون الغنيمة، وحمدوا عند الصباح السرى، وما عند أهل الغفلة والنوم خبر مما جرى.

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة.

(٢) رواه مسلم، والإمام أحمد، وابن حبان في صحيحه من حديث عثمان بن عفان.

(٣) رواه الطبراني من حديث والد أبي مالك الأشجعي وإسناده حسن ولكن بلفظ: «من صلى الفجر فهو في

ذمة الله وحسابه على الله».

والنبي ﷺ قال: «لَا يَمْنَعَنَّكُمْ مِنْ سَحُورِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيرُ فِي الْأَفْقِ، إِنْ بِلَالاً يُؤْذِنُ بَلِيلٌ، لِيُقِظَ نَائِمُكُمْ، وَيُرَدَّ غَائِبُكُمْ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤْذِنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ»^(١) وكان أعمى لا يؤذن حتى يقال له: أصبحت، أصبحت.

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللکم، وحافظوا على فرائض ربکم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

* * *

(١) رواه مسلم من حديث سمرة بن جندب بلفظ آخر.

(٣٦)

الذكرى الثانية من رمضان

الحمد لله الذي خلق الخلق ليعبدوه، وركب فيهم العقول ليعرفوه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ليشكروه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من يخاف ربه ويرجوه، وأشهد أن محمدًا نبيه ورسوله. اللهم صل على نبيك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه الذين آزره ونصروه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون الكرام أحييكم بتحية الإسلام، وأبارك لكم في بلوغ شهر الصيام والقيام، وأسأل الله سبحانه أن يجعله مستهلاً علينا وعليكم بالأمن والإيمان، والتوفيق لصالح الأعمال. إن شهر رمضان موسم عظيم، وشهر شريف كريم، هو غرة الزمان ومتجر أهل الإيمان، خصه الله بإنزال القرآن، وأوجب فيه على المؤمنين الصيام، وجعل صومه أحد أركان الإسلام الذي ما تم دين إلا به ولا استقام. فمن جحد وجوبه فإنه كافر بإجماع علماء الإسلام، «ومن أفطروا منه عمداً من غير عذر لم يقضه عنه صوم سائر الزمان»^(١).

قال ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن: ثلاث أسس عليهم الإسلام؛ الشهادتان والصلاة

والصيام.

(١) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً من حديث أبي هريرة.

استهل هذا الشهر ففرح به المؤمنون، وكرهه الزنادقة الملحدون. فالمؤمنون لا يزالون فيه في صلاة وصيام، ودعاء واستغفار وتلاوة قرآن، وبسط اليد بالصدقة والصلة والإحسان. فهم في نهاره صائمون صابرون، وفي ليلهم طاعمون شاكرون. أولئك هم المؤمنون حقًا. أما المنافقون فإنهم يستحلون فيه الإفطار، وتمد لهم فيه الموائد بالنهار، وقد جمعوا بين ضلال مع إصرار، وكفر مع استكبار، لا ندم يعقبه ولا استغفار. ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ٤٠ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٤١﴾ [الحجر: ٢-٣]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ٤٨﴾ [المرسلات: ٤٨].

وقد أقسم رسول الله عليه الصلاة والسلام، أنه ما مرّ بالمسلمين شهر خير لهم من رمضان. يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة، ويحط الخطيئة، ويستجيب الدعاء. ينظر الله إلى تنافسكم في الخيرات، وتسابقكم إلى الصلاة والأعمال الصالحات، وبسط أيديكم بالصدقات، فيباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، فإن المحروم من حرم فيه رحمة الله عز وجل.

والصوم عبادة دينية، ورياضة بدنية، وتأديب للشهوة الإنسانية لتعود الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عما حرم الله. وكان رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان، ويقول: «إنه قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر كتب الله عليكم صيامه، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعًا. من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه.

وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزداد فيه في رزق المؤمن. من فطر فيه صائمًا كان له مثل أجره، من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء»^(١).

ولأجل هذه الفضائل جرى تبادل التهاني بين المؤمنين في دخوله، بحيث يهنئ بعضهم بعضًا ببلوغه؛ لأن بلوغه نعمة عظيمة، ومنحة جسيمة في حق من أطاع الله واتقاه، إذ لا أفضل

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه من حديث سلمان.

من مؤمن يعمر في الإسلام للتزود من الصلاة والصيام وصالح الأعمال، والموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم.

ويتمنون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا أعمالاً صالحة. يقول المفطر منهم: ﴿...رَبِّ أَرْجِعُونِ

﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. فلا يجابون إلى ما سألوا قد حيل بينهم وبين العمل، وغلقت منهم الرهون، فهم يتمنون العمل ولا يقدرُونَ عليه. وأنتم تقدرون على العمل ولا تعملون.

والدنيا مزرعة الآخرة، تزرع فيها الأعمال الصالحات، من خرج منها فقيراً من الحسنة والأعمال الصالحات ورد على الآخرة فقيراً وساءت له مصيراً.

وشهر رمضان أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار. تفتح فيه أبواب الجنان، وتغلق فيه أبواب النيران، وذلك بسبب توسع الناس في العبادات وتنافسهم في الأعمال الصالحات التي من جملتها الإكثار من الصلوات والصدقات، وصلة القربات والإحسان إلى المساكين والأيتام وذوي الحاجات، ثم الإكثار من الذكر والدعاء، والاستغفار وتلاوة القرآن وتكثير أيدي المفطرين من الصوم على الطعام.

فهذه الخلال جدير بأن يفتح لفاعلها أبواب الجنان، وتغلق عنه أبواب النيران، وأن يتسع بسببها الرزق في رمضان. وكان رسول الله أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن فيتضاعف جوده بالعطاء، والصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن قدراً زائداً على الزمان؛ لأن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء فيفضل إنساناً على إنسان، ومكاناً على مكان، وزماناً على زمان. وقد خص الله بالفضل شهر رمضان، على سائر شهور العام. فهو شهر جد واجتهاد، ومزرعة للعباد، وتطهير للقلوب من الفساد، وقمع لشهوة الشره والعناد، فمن زرع فيه خيراً حمد عاقبة أمره وقت الحصاد، وفي الصحيحين: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وهذا التكفير، إنما يراد به صغائر الذنوب في قول الجمهور، أما كبائر الذنوب مثل الربا والزنا وشرب الخمر وقتل النفس وأكل أموال الناس، فهذه لا يكفرها الصيام ولا الصلاة ولا الحج، وإنما تكفر بالتوبة بشرطها ورد المظالم إلى أهلها.

لهذا يجب على المسلم أن يصوم صومه عن كل ما يفسده أو ينقص ثوابه لكون الصيام قرباناً تقربونه إلى الله. يدع الصائم شهوته من مطعمه ومشربه، لقصد رضا ربه ومحبه والله تعالى يقول: «الصَّوْمَ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ»^(١).

ثم إن الصيام شعار وعنوان للمؤمنين، يمتازون به عن القوم الكافرين، فهو الفرقان بين المسلمين والكفار، والمتقين والفجار، كما أنه محك التمييز للأمانة وصحة الإيمان. فلو ضرب المسلم على أن يستبيح الفطر لما استباح الفطر أبداً؛ لأن دينه سينهاه عن إحباط أعماله وإبطال صيامه، ونحمد الله أن هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ثم إنه ليس الصيام عن مجرد الطعام والشراب قط، إنما الصيام عن اللغو والرفث، ومن لم يدع قول الزور والعمل به، والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه. فإذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن السب واللعن، والغيبة والنميمة والكذب؛ لأن الصوم جنة، يستجن به المسلم عن الإجرام والآثام، وردىء الكلام، وظلم الأنام، فإن سابه أحد أو شتمه أحد، وجب أن يلجم لسانه بلباس التقوى، وأن يتمسك من الورع بالعروة الوثقى، وليقل: إني صائم، كبحاً لنفسه عن التشفي والانتقام، وردعاً لخصمه عن الجريان في هذا الميدان، ومن كان الصوم له جنة في الدنيا عن الآثام، كان له جنة عن النار؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

ومن أحكام الصيام الفقهية: أنه يجب الصوم على كل مسلم بالغ عاقل، ويؤمر به الصبي إذا طاقه للتمرين على العبادة. وقد رخص لكبير السن من رجل وامرأة بأن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

أما مختل الشعور، عديم المعرفة، فإنه لا صيام عليه ولا إطعام، لكونه مرفوعاً عنه القلم. أما المريض الذي يزيد الصوم في مرضه، أو يؤخر من برئه، فإنه يفطر مع العزم على القضاء؛ لأن الله يحب أن تؤتى رخصه. أما إذا كان مرضه مزمنًا، أي ملازمًا له كمرض السل، أو القرحة داخل البطن، ويقول الأطباء إن الصوم يزيد في مرضه، أو يؤخر من برئه؛ فإنه يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينًا، وقدرُوا الإطعام بمد من الطعام، وإن أطعم المسكين من طعامه أكلة تامة فقد أدى الواجب.

ومن أكل أو شرب ناسيًا فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه، ولا قضاء عليه، وإن استيقظ فأكل وشرب ظانًا أن الفجر لم يطلع، ثم تبين أن الفجر طالع فصومه صحيح ولا قضاء عليه أشبه الناسي. والنبي ﷺ قال: «عَفِيَ لَأُمِّي الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(١).

ومن استيقظ آخر الليل وعليه جنابة، ويخشى إن اشتغل بالغسل أن يطلع عليه الفجر ويفوته السحور، فإنه يجوز له أن يتسحر ويؤخر الغسل إلى بعد طلوع الفجر، لما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ كان يصبح جنبًا من جماع ثم يغتسل ويصوم ولا يقضي، فعل ذلك للتشريع. ومن غلبه القيء فخرج بغير اختياره فصيامه صحيح. ويجوز للصائم أن يستاك أول النهار وآخره لما في البخاري عن عامر بن ربيعة قال: رأيت النبي ﷺ لا أعد ولا أحصي يستاك وهو صائم. والسواك مطهرة للفم، مرضاة للرب. وبمعناه غسل الأسنان بالمعجون، فإنه يجوز، وليحذر من دخوله إلى جوفه.

ومثله شم الطيب ومسّه، فإنه جائز ولا يجرح صومه. ومن احتاج إلى ضرب إبرة في ظهره، أو في عضده، أو فخذة فإنه يجوز، وصيامه صحيح؛ لأن الصحابة كانوا يضعون الأدوية في الجروح والشجاج ولا يرونها مفطرة، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية.

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى من حديث ابن عمر، والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس، والطبراني في الكبير والأوسط والصغير، وابن حبان في صحيحه، والدارقطني، وابن ماجه، جميعًا من حديث ابن عباس.

والمرأة إذا انقطع عنها دم الحيض بالليل، ورأت أمارة النقاء، فإنه يجب عليها أن تنوي الصيام وتصوم ولو لم تغتسل إلا بعد طلوع الفجر، أو بعد طلوع الشمس، وصيامها صحيح؛ لأنه لا يشترط للصوم الطهارة من الحدث، وإنما يشترط لصحته انقطاع دم الحيض فقط. ويجب عليها المبادرة بالاغتسال من حين ينقطع عنها الدم فتغتسل كما تغتسل للجنابة، ولا يلزمها أن تنقض شعر رأسها، بل يكفيها أن تروي أصوله بالماء؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وكذلك النساء، متى انقطع عنها دم النفاس بعد عشرة أيام من الولادة، أو بعد عشرين يوماً فإنه يجب عليها المبادرة بالاغتسال للصوم والصلاة، من حين ينقطع عنها الدم، لا اعتبار أنها طاهرة من الطهارات. وأما ما يفعله بعض النساء من كون إحداهن ينقطع عنها دم الحيض، أو دم النفاس، ثم تمكث اليوم واليومين لا تغتسل ولا تصوم ولا تصلي وفي كلها تقول أخشى أن يعاودني الدم فإن هذا خطأ وتفريط منها في عبادة ربها.

فمن واجب المسلمة أن تبادر إلى الاغتسال من حين ينقطع عنها الدم، ثم تصوم وتصلي، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. أما المرأة من نساء البوادي فإنه متى انقطع عنها دم الحيض أو دم النفاس وليس عندها ماء تغتسل به تضرب التراب بيديها وتمسح به الوجه واليدين، تنوي بذلك الطهارة عن الحدث، وتعتبر طاهرة، ثم تصوم وتصلي، وتمس المصحف أو تقرأ القرآن، وتفعل كل ما يفعله النساء الطاهرات إلى أن تجد الماء فتغتسل به.

لقول النبي ﷺ: «الصَّعِيدُ وَضُوءُ الْمُسْلِمِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ الْمَاءَ عَشْرَ سِنِينَ. فَإِذَا وَجَدَ الْمَاءَ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَمْسَسْهُ بَشْرَتَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ»^(١) أي يغتسل به.

وإذا رأت شيئاً بعد الغسل من الصفرة، أو الكدرة فإنها لا تبالي بذلك، بل تمضي في صومها وصلاتها، لما روى البخاري عن أم عطية قالت: كنا لا نعد الكدرة ولا الصفرة بعد الطهر شيئاً. ومتى صامت المرأة ثم أفطرت بعد غروب الشمس، وبعد فطرها رأت شيئاً من دم الحيض ولم

(١) رواه البزار من حديث أبي هريرة وإسناده صحيح.

تدر هل حدث عليها قبل غروب الشمس أو بعدها فإن صيامها ذلك اليوم صحيح، ولا قضاء عليها؛ لأن الشك لا يرفع اليقين. والأصل الطهارة، والدم الخارج من الحامل ليس بحيض بل هو دم فساد يشبه دم الرعاف، فلا تترك من أجله الصوم ولا الصلاة، بل تصلى وتصوم وصومها صحيح.

والنبي ﷺ قال: «لا يمتنعكم من سحوركم أذان بلال، ولا الفجر المستطير في الأفق، إن بلالاً يؤذن بالليل؛ ليوظ نائمكم، ويرد غائبكم. فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم» وكان أعمى لا يؤذن حتى يقال له: أصبحت. أصبحت»^(١).

وقال: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا وَعَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ شَاءَ أَمِ ابْنِي»^(٢).

والله تعالى يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

أسأل الله سبحانه أن يعمننا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين.

* * *

(١) أخرجه مسلم بلفظ آخر من حديث عبد الله بن عمر وبعضه من حديث سمرة بن جندب.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

(٣٧)

الذكرى الثالثة من رمضان

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبالعمل بطاعته تطيب الحياة، وتفيض بالخيرات، وتنزل البركات، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة نرجو بها النجاة والفوز بالجنات، وأشهد أن محمداً رسول الله صاحب الآيات والمعجزات. اللهم صل على نبيك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤].

نادى الله عباده باسم الإيمان؛ بعدما هاجروا إلى المدينة ورسخ الإيمان في قلوبهم، وانقادت للعمل به جوارحهم؛ ولهذا تأخر فرض صيام رمضان إلى السنة الثانية من الهجرة، لاستعدادهم بكمال قوة الإيمان، لكون الإيمان هو أعظم وازع إلى أفعال الطاعات، وأعظم رادع عن مواقف المنكرات، ومتى قوي الإيمان في القلب؛ نشطت الأعضاء على أداء الأعمال الشاقة، حتى تعود في نفسه سروراً ولذة.

وهذا معنى قول النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في مرادها الأجسام

وفي صحيح مسلم عن العباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً رسلاً».

وهذه الصيغة أي: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لا توجد إلا في السور المدنيات، وقد قال بعض السلف: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأصغ لها سمعك، فإنها خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه.

والصيام هو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع في نهار رمضان بنية خالصة لله. وهو عبادة دينية، ورياضة بدنية، وتأديب للشهوة الإنسانية، كي تتعود الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عما حرم الله، فهو محض تمحيص للقوى التي حقيقتها أداء ما افترض الله، وترك ما حرم الله.

وأخبر سبحانه أنه كما فرضه علينا فقد فرضه على من كان قبلنا من الأمم، غير أنه يختلف صومنا عن صومهم في العدد والزمان، يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [البائدة: ٤٨]. ثم قال: ﴿أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي قلائل. وهذه الأيام؛ هي رأس مال الإنسان، وموضع ربحه أو خسارانه. وإذا مات الإنسان وقد أنهى عمراً طويلاً في الحياة؛ فإن كان من أهل الخير والمحافظين على الصيام والصلاة بشر بالخير. فيقال له: كم لبثت؟ فيقول: لبثت يوماً أو بعض يوم. فيقال له: نعم ما تجرت في يوم أو بعض يوم.

ويؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الجبارين المتكبرين، الذين أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فيقال له: كم لبثت في الدنيا؟ فيقول: لبثت يوماً أو بعض يوم. فيقال له: بئس ما تجرت في يوم أو بعض يوم.

أيها المستمعون الكرام إن الدنيا مزرعة الآخرة، وإن كل عامل سيقدم على عمله، وإنه لن يخرج من الدنيا حتى يبشر بحسن عمله أو سوء عمله، وإن شهر رمضان شهر جد واجتهاد ومزرعة للعباد، وتطهير للقلوب من الفساد، قمع لشهوة الشر والعناد، فمن زرع فيه خيراً حمد عاقبة أمره وقت الحصاد.

وقد ثبت مضاعفة ثواب الصدقة والأعمال الصالحة في رمضان، ففي صحيح الترمذي عن أنس قال: سئل النبي ﷺ أي الصدقة أفضل؟ قال: «**صدقة في رمضان**». لأن من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير، كان كمن أدى فريضة فيما سواه؛ لهذا كان رسول الله ﷺ أجود ما يكون في رمضان، فيتضاعف جوده بالعطاء والصدقة والدعاء وتلاوة القرآن، وكان الصحابة والسلف الصالح الكرام، تبسط أيديهم بالصدقة والإحسان رجاء مضاعفة ثوابها في رمضان.

ومنهم من يجعله وقتاً لإخراج زكاة المال؛ لقصد أن يتقوى بها من يعطاها من الصوام. والزكاة هي قنطرة الإسلام، وهي الدليل والبرهان على صحة الإيمان، وإنما سميت زكاة من أجل أنها تزكي المال، أي تنميه، وتنزل البركة فيه، حتى في يد وارثه.

كما سميت صدقة من أجل أنها تصدق إيمان مخرجها، وكونه أثر طاعة ربه على محبة ماله. فإما معشر التجار إن الله سبحانه قد أنعم عليكم بنعمة الغنى بالمال، وإن المال كاسمه مبال، إذ دوام الحال من المحال. وقد سمي الله المال خيراً لمن أراد الله به الخير، وهذا الخير كالخيل؛ لرجل أجر وعلى رجل وزر. فمن رزقه الله من هذا المال رزقاً حسناً؛ فليبادر بأداء زكاته، ولينفق منه سرّاً وعلناً حتى يكون أسعد الناس بماله في حال حياته وبعد وفاته. فإن مال الإنسان ما قدم، وما نقصت الزكاة ماله، بل تزيده ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

ومن سنن رمضان صلاة التراويح، فقد سنّها رسول الله ﷺ قولاً منه وفعلاً. وما شاع على ألسنة بعض الناس، وفي بعض كتب المتأخرين، من قولهم إن التراويح بدعة حسنة، فهذا لا أصل له، فليس في الإسلام بدعة حسنة بل كل بدعة سيئة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، والنبي ﷺ قال: «**إن الله افترض عليكم صيام رمضان، وسننت لكم قيامه، فمن قام رمضان إيماناً واحتساباً يقيناً كان كفارة لما مضى**»^(١).

(١) رواه النسائي والبيهقي في شعب الإيمان من حديث عبد الرحمن بن عوف بإسناد حسن.

وسميت تراويح من أجل أن الناس يطيلون القيام والركوع والسجود فيها، وكانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، ويستريحون بين كل أربع ركعات، ولا ينصرفون إلا في فروع الفجر.

وفي البخاري أن رسول الله ﷺ صلى ذات ليلة في المسجد، فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة حتى غص المسجد بالناس، فلم يخرج إليهم فلما أصبح قال: «قَدْ رَأَيْتُ الَّذِي صَنَعْتُمْ وَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ إِلَّا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ»^(١).

وقد زال هذا المحذور الذي خشيهِ رسول الله ﷺ بموته، وبقي الاستحباب على حاله. فتعتبر صلاة التراويح جماعة أنها سنة سنّها رسول الله ﷺ لأُمَّته. ويدل له حديث: «مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ»^(٢).

فكان الناس زمن النبي ﷺ، وزمن أبي بكر، وصدرًا من خلافة عمر، يصلون أوزاعًا متفرقين، يصلي الرجل بالرجلين والثلاثة، ويصلي بالرهط ويصلي الرجل وحده، فقال عمر: أما إني لو جمعت هؤلاء على إمام واحد لكان أمثل. ثم عزم فجمع الرجال على أبي بن كعب، والنساء على تميم الداري. واستمر الأمر على هذه الحالة، فخرج عمر ليلة ورأى الناس يصلون مجتمعين فأعجبه ما رأى فقال: نعمت البدعة^(٣).

وليس معنى قول عمر رضي الله عنه: نعمت البدعة. أنه الذي ابتدع صلاة التراويح جماعة، فقد صلاها رسول الله ﷺ جماعة ثلاث ليال واعتذر عن مواصلة عمله؛ خشية أن تفرض على الناس. وإنما أراد بقوله: نعمت البدعة. يعني: تنظيم الناس للاجتماع لها؛ حيث ضم سائر الجماعات والأفراد لصلاة التراويح على إمام واحد.

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة.

(٢) متفق عليه من حديث أبي ذر.

(٣) أخرجه مالك من حديث عمر بن الخطاب.

والتراويح هي من قيام الليل، وليست محصورة بعدد، فبعضهم يصليها بأربعين، وبعضهم بست وثلاثين، وبعضهم يصليها بعشرين، وبعضهم يصليها بثمان، ويوتر بثلاث. وفي البخاري عن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يوتر بثلاث.

ولنعلم أن لب الصلاة الخشوع، وأن صلاة بلا خشوع كجسد بلا روح. وقد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون؛ لأن الله يطلب من عباده تحسين العمل لا كثرة العمل ليلوكم أيكم أحسن عملاً.

فما يفعله أكثر الناس في صلاة التراويح من السرعة الزائدة، وعدم الخشوع والطمأنينة في الركوع والسجود، فإنه خطأ، فإن صلاة ركعتين بخشوع وخضوع، في القيام والسجود والركوع، أفضل من أربع ركعات، وست ركعات بلا خشوع.

ويصليها الرجل مع الجماعة، أو في بيته. وتصليها المرأة مع الجماعة، أو في بيتها وهو أفضل.

والتراويح بما أنها من قيام الليل المرغب فيه؛ فإنها أيضاً من أسباب صحة الجسم، والعافية من السقم، فقد مر النبي ﷺ على أبي هريرة وهو يشكو بطنه، فرجفه برجله. ثم قال له: «قُمْ فَصَلِّ»^(١) وروى الترمذي عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَقُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَتَكْفِيرٌ لِلْسَّيِّئَاتِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ».

وذلك أن الصائم يأتي إلى الفطور وهو بحالة الجوع، وشدة الشهوة، فيأكل ويشرب إلى غاية الشبع ونهاية الامتلاء. ومن لوازم هذا الشبع والامتلاء استرخاء الأعضاء، وسريان الفتور فيها، فيستولي عليه الضعف، فكان في أشد الحاجة إلى التخفيف والتهضيم، وإعادة النشاط؛ لهذا شرع الله على لسان نبيه صلاة التراويح؛ التي لا يزال فيها بين قيام وقعود، وركوع وسجود، حتى

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

ينصرف منها، وقد استعاد نشاطه، ودب فيه روح السرور والهناء والغبطة، فيتحلل عنه مضرة ذلك الامتلاء، وتبقى فيه منفعته، وهذه من حكم الشريعة التي جعلها بمثابة الشفاء من سائر الأدواء وأن العبادات الشرعية تجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، وبين مصالح الروح والجسد.

ثم إن تناول السحور وقت السحر سنة. وقد سماه رسول الله ﷺ بالغداء المبارك وقال: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ»^(١). وقال: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»^(٢). وقال: «تَسَحَّرُوا، فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»^(٣) وقال: «تَسَحَّرُوا وَنِعَمَ السُّحُورُ التَّمَرُ»^(٤). وقال: «تَسَحَّرُوا وَلَوْ بِجُرْعَةٍ مِنْ مَاءٍ»^(٥). فأرشد النبي ﷺ أمته إلى تناول السحور ورغبهم فيه ولو بأقل شيء ليستعينوا بالسحور على الصيام، ثم يتعودوا القيام من آخر الليل لذكر الله والصلاة والاستغفار؛ لأن الله سبحانه ينزل آخر الليل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ فأحب رسول الله ﷺ من أمته بأن يستيقظوا في هذا الوقت المبارك؛ حتى يكون منهم من يذكر الله، ومنهم من يستغفر، ومنهم من يصلي، ومنهم من يدعو، ومنهم من يتلو القرآن، وحتى لا يكونوا من الغافلين.

فسماه السحور المبارك من أجل ما يترتب عليه من الفضائل، ومن أجل أن الله وملائكته يصلون على المتسحرين، وحسبك بها من فضيلة. ويتبعها ما هو أفضل منها، وهو شهود المتسحرين لصلاة الفجر في الجماعة، الذي ورد فيه حديث: «وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ

(١) أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه النسائي من حديث عمرو بن العاص.

(٣) متفق عليه، ورواه أحمد والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك. ورواه النسائي من حديث أبي هريرة ومن حديث ابن مسعود ورواه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث السائب بن يزيد.

(٥) رواه أبو يعلى من حديث أنس، وهو ضعيف.

كَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ كُلِّهِ»^(١). وقال: «من صلى الفجر في جماعة كان في ذمة الله وحسابه على الله»^(٢) وهذا كله من فضائل التيقظ للسحر.

أما الرجل الأكل والنوم؛ الذي يملأ بطنه من أصناف الطعام ولحوم الأنعام، ثم ينام عليه بعد العشاء، ولعله لا يستيقظ إلا بعد طلوع الشمس، أو إلا وقت الضحى، فلا شك أن هذه خلة ذميمة، وعادة ليئمة، فكم فاته بركاده الضحى من غنيمة.

إن التقلل من العشاء، والتيقظ وقت السحور فضيلة، فقد قيل: نم مبكراً، وقم مبكراً ترى الصحة أحسن ما ترى. وفي وقت السحر تنزل الرحمة، وتقسم الغنيمة، فما يطلع الفجر إلا وقد حاز القائمون الغنيمة، وحمدوا عند الصباح السرى. وما عند أهل الغفلة والنوم خبر مما جرى.

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فارباً بنفسك أن ترعى مع الهمل

أسأل الله سبحانه، أن يعمننا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(١) رواه أحمد في مسنده، ومسلم من حديث عثمان.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه وللحديث رواية في مسلم من حديث

جندب بن عند الله بلفظ: «من صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء».

(٣٨)

الذكرى الرابعة في العشر الأخيرة من رمضان

وبيان زكاة الفطر

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبالعامل بطاعته تطيب الحياة، وتفيض الخيرات، وتنزل البركات، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن الله سبحانه خلق الخلق لعبادته، وأمرهم بتوحيده وطاعته، أوجب ذلك عليهم في خاصة أنفسهم، وأن يجاهدوا عليه أهلهم وأولادهم، فأوجب سبحانه على عباده الصلوات الخمس؛ مفرقة في أوقاتها المعروفة، وجعلها عمود دينهم، ورأس إيمانهم وأمانتهم. وفرض عليهم زكاة أموالهم؛ طهرة تطهرهم، وجعلها بمثابة الدليل والبرهان على صحة إيمانهم وأمانتهم.

وكما فرض صوم شهر رمضان؛ لتمحيص تقواهم، وتكفير ذنوبهم، وليتبين به حقيقة من يطيع ربه في سرائه وضرائه فيما يحب وفيما يكره، فيصبح صائمًا صابرًا عن مطعمه ومشربه لقصد رضا ربه ومحبوه.

والله تعالى يقول: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ»^(١).

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وهذه الشرائع هي أم الفرائض والفضائل والناحية عن منكرات الأخلاق والرذائل، تهذب الأخلاق، وتطهر الأعراق، وتزيل الكفر والشقاق والنفاق، وتطبع في القلب محبة الرب. كما أنها بمثابة الفرقان بين المسلمين والكفار، والملتقين والفجار، وبمثابة محك التمييز لصحة الإيمان، بها يعرف صادق الإسلام من أهل الكفر والفسوق والعصيان، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

ذلك بأن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، فيفضل إنساناً على إنسان، ومكاناً على مكان، وزماناً على زمان، وقد خص الله بالتفضيل شهر رمضان حيث أنزل فيه القرآن، وأوجب فيه على المؤمنين الصيام، وجعله شهر جد واجتهاد، ومزرعة العباد، وتطهيراً للقلوب من الفساد، وقمعاً لشهوة الشره والعناد، فمن زرع فيه خيراً حمد عاقبة أمره وقت الحصاد. شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار.

وقد قوضت الآن منه الخيام، وتقلصت منه الليالي والأيام، وإنه لنعم الشاهد بما عملتموه، والحافظ لما أودعتموه، إنه لأعمالكم بمثابة الخزائن المحصونة، والصناديق المصونة، وستدعون يوم القيامة لفتحها، يوم تجد كل نفس ما لها وما عليها، والرب ينادي عليها: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).

«صعد النبي ﷺ المنبر فقال: «آمين، آمين، آمين» قالوا: علام أمنت يا رسول الله؟ فقال: «جاءني جبريل عليه السلام قال: يا محمد، رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، فأدخله الله النار فأبعده فيها، قل: آمين. قلت: آمين»^(٢) فهذا الرجل الذي دخل عليه شهر

(١) رواه مسلم من حديث أبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل.

(٢) الحديث بتمامه رواه الحاكم من حديث كعب بن عجرة وقال عنه: صحيح الإسناد ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث الحسن بن مالك عن أبيه عن جده، ورواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما واللفظ له برواية من حديث أبي هريرة.

رمضان؛ شهر النفحات، شهر إقالة العثرات، شهر مضاعفة الحسنات، شهر تكفير السيئات، ثم خرج ولم يحظ منه لا بمغفرة ولا برحمة ولا بإقالة عثرة ولا بقبول توبة، إنه لرجل سوء، قد سد باب الخير والرحمة عن نفسه حتى لم يبق للصالح منه موضع، ولا لحب الخير من قلبه منزع، قد رضي لنفسه بأن يخسر حين يربح الناس، وأن يقعد ويرقد حين يصلي الناس، وأن يأكل ويشرب حين يصوم الناس، وإن هذا والله هو الغاية في الإفلاس والإبلاس، ولا يرضى به سوى من سفه نفسه من الناس، كهؤلاء الإباحيين الملحدين الذين لا يتقيدون بالدين، الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وخرقوا سياج الشرائع، واستخفوا بحرمات الدين، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، ويدعي أحدهم الإسلام بمعنى الجنسية؛ لا بالتزام أحكامه الشرعية، فتراه لا يصلي ولا يصوم.

وقد قلنا غير مرة إنه لا يستحل ترك الصلاة والزكاة والصيام عمداً من غير عذر، سوى مرتد عن دين الإسلام، ترونه يمشي مع الناس في صورة إنسان، لكنه يعيش بأخلاق أحسن حيوان؛ فهو شر من الكلب والخنزير، قد ساءت طباعه، وفسدت أوضاعه، فعصى رب العالمين، واتبع غير سبيل المؤمنين، ولم يأمر الله على لسان نبيه بقتل المرتد التارك لدينه إلا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد بهم أخلاقهم، فإن الأخلاق تتعادي، والطباع تتناقل، والمرء على دين خليله وجليسه.

قتل هذا الإنسان ما أكفره، أمره ربه بالصلاة فتركها، وأمره بالزكاة فأكلها، وأمره بالصيام فأكل وشرب في نهار رمضان، ومع هذا الكفر المتظاهر البواح، فإنه يتسمى بالإسلام، قد جمع بين ضلال مع إصرار، وكفر مع استكبار، لا ندم يعقبه ولا استغفار، ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ٥١ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٥٢﴾ [الحجر: ٥١-٥٢]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ٥٨ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٥٩﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

وقد أنزل الله على المؤمنين في كتابه المبين التعزية والتسلية عن هؤلاء المرتدين. فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا

يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ [آل عمران: ١٧٦-١٧٧]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿١٥٥﴾﴾ [محمد: ٢٥].

إنه ما ظهر الإلحاد والزندقة في بلد، فكفر أهلها بالشرعية الإسلامية وتركوا الصلاة، والصيام الفرضية، وسائر الطاعات المرضية، إلا فتح عليهم من الشر كل باب، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٣]. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

هذا وإن باب التوبة مفتوح ما دام الأجل مفسوح، والعمر بآخره، وملاك الأمر خواتمه.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٩]. ف«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»^(١). وفي العشر من آخر هذا الشهر ترجى ليلة القدر حيث العمل فيها خير من العمل في ألف شهر، وقد نوه القرآن بفضلها، وحث النبي ﷺ على طلبها فقال في الحديث الصحيح: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٢).

وكان النبي ﷺ يخلط العشرين الأول من رمضان بنوم وقيام؛ فإذا دخلت العشر الأخيرة أحيا ليله، وأيقظ أهله، وهجر فراشه، واجتهد في العبادة.

وكان يوقظ أهله، ويترك باب علي وفاطمة، ويقول: «ألا تقومان فتصليان»^(٣) ثم يتلو: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَلَقَبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

وكان يعتكف في العشر الأخيرة حرصاً على طلبها، واعتكف أصحابه معه. والاعتكاف هو لزوم مسجد بنية لله لقطع أشغاله وتفرغ باله، وخلوه لمناجاة ربه، وذكره وشكره ودعائه.

(١) رواه أحمد في مسنده ومسلم والترمذي من حديث أبي هريرة.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه من حديث علي.

واعلموا رحمكم الله أن الله أوجب عليكم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، من أداها قبل صلاة العيد فهي زكاة مشروعة. ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات. وليست من الفطرة في شيء.

ويجوز إخراجها قبل العيد بيوم أو يومين، وهي زكاة بدن، تجب على الصغير والكبير، ولا تجب على الحمل في البطن.

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «كُنَّا نُعْطِيهَا فِي زَمَانِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ»، وفي رواية: «أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ»^(١).

وإنما خص هذه الأصناف بالذكر، لكونها غالب ما يقتاتون في زمنهم، وفي بلدهم، فالحضر من سكان المدينة غالب قوتهم التمر والبر والشعير والزبيب، حتى إن البر النقي يعد من القليل، وقد توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين وسقاً من شعير.

أما الأعراب فغالب قوتهم الأقط واللبن، فخص هذه الأصناف بالذكر من أجل كونها غالب قوتهم، والنقود قليلة الوجود. ولا ينفي عدم الاجتزاء بغير هذه الأصناف مما لم يذكر في الحديث.

فمن كان قوتهم الأرز، جاز أن يفطروا بالأرز، أو كان قوتهم الذرة أو الدخن جاز أن يفطروا بذلك. إذ هي من أوسط ما تطعمون أهليكم، لكون الحكمة فيها، هو إغناء الفقراء الشحاذين عن تكفف الناس بسؤالهم يوم العيد. لحديث «أَغْنُوهُمْ عَنِ الطَّوَافِ فِي هَذَا الْيَوْمِ»^(٢).

ومن العلماء من يقول بجواز إخراج القيمة في الفطرة نقوداً؛ دراهم أو ما يقوم مقامهما في العملة، إذا كانت أنفع للفقراء. وهذا هو ظاهر مذهب أبي حنيفة، واختيار شيخ الإسلام ابن

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من حديث عبد الله بن عمر.

تيمية لكون المقصود من زكاة الفطر سد حاجة الفقراء عن سؤال الناس يوم العيد، وهو محقق في القيمة. وقد أصبح أكثر الفقراء في البلدان المثرية يسخطون الطعام بالكلية ولا يقبلونه؛ لكونه لا يقوم بسد حاجتهم، ولا بحاجة من يعولونه من أهلهم وأولادهم، من نفقتهم وكسوتهم ليوم العيد. وإنما يطلبون الفطرة دراهم؛ ليشتروا بها حاجتهم وحاجة عيالهم، فمن أجل هذه الأسباب أفتينا الناس بجواز إخراج الفطرة دراهم بدلاً من الطعام، وقدر قيمة فطرة الشخص الواحد ستة ريالات قطرية لاعتبار هذا الزمان والمكان، بحيث أن كيلو الأرز يباع في السوق بريالين، والعالي بريالين ونصف، وهو غالب قوت البلد. وقدر فطرة الشخص كيلوان ونصف. فمن أخرج هذا القدر عن كل شخص ممن يعوله، فقد برئت ذمته من عهد فطرته. ومع القول بهذا فإننا لا ننكر بجواز التفطير بالطعام من التمر أو الأرز. ولا يجوز إيداعها عند أحد لانتظار فقير يقدم إلى البلد، ولا يجوز أن تدفع إلى غني، ولا إلى قوي متكسب، ولا يجوز أن يستخدم بها أجير، ويجوز أن تدفع فطر الجماعة إلى فقير واحد، كما يجوز أن تقسم فطرة الشخص الواحد بين فقيرين أو ثلاثة.

والفقير متى تحصل على فطر من الناس وجب عليه أن يفطر بها عن نفسه، وعن سائر من يعوله؛ لكونه قد ملكها ملكاً تاماً. فجاز أن يفطر بها ومن أدركه العيد في هذه البلاد، وأهله وعياله في بلد آخر أخرج فطرة أهله مع فطرته في البلد الذي أدركه العيد فيه. والله تعالى يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ﴾ [الأعلى: ١٤-١٧].

نسأل الله أن يعمننا وإياكم بعفوه، وأن يسبغ علينا وعليكم واسع فضله وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(٣٩)

التذكير بعيد الفطر

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين على أمور الدنيا والدين، ونحمده ونشكره ونكبره أن جعلنا مسلمين، ثم يكبر تسعًا متوالية ويقول: الله أكبر كلما هل هلال وأبدر، الله أكبر كلما صلى مصل وكبر، الله أكبر كلما صام صائم وأفطر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

الحمد لله الذي شرع لعباده طريقة العبادة، ويسر وأنار قلوب أوليائه بنور طاعاته وبصر، ونقاهم بصالح أعمالهم من دون الذنوب وطهر، وجعل لهم بكمال صومهم عيدًا يعود في كل سنة ويتكرر، أحمدته وهو المستحق لأن يحمد ويشكر، وأشهد أن لا إله إلا الله خلق فقدر، وشرع فيسر، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صاحب اللواء والكوثر، نبي الله، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع هذا قام على قدمه الشريف حتى تفطر، وجاهد في الله حق جهاده فما توانى ولا تأخر، اللهم صل على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها الناس اتقوا الله وأطيعوه، وامثلوا أمر ربكم ولا تعصوه، فإن أطعتموه لم يصلكم شيء تكرهونه، وإن عصيتموه عاقبكم بما لا تطيقونه، واعلموا رحمكم الله أنكم خرجتم إلى هذا المكان السعيد لقصد أداء صلاة العيد، تأسيًا بنببيكم عليه الصلاة والسلام، وإظهارًا لشكر نعمة إتمام الصيام، والهداية إلى الإسلام، وإن يومكم هذا يدعى يوم الجوائز، وهو أن كل إنسان لأجر عمله حائز، لأن سعيكم شتى، فمنكم من حظه القبول والغفران، ومنكم من حظه الخيبة

والحرمان. فأما المحافظون على فرائض الطاعات، والمجتنبون للمنكرات، فعملهم مبرور، وسعيهم مشكور، وعيدهم عيد الفرح والسرور، قد حصلوا الحسنتين وفازوا بالفرحتين، فللصائم فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، فهنئاً لهم، تقبل الله منهم.

أما التاركون لفرائض الطاعات، المرتكبون للمنكرات، وشرب المسكرات، فعيدهم عيد الخيبة والندامة، وغضب الرب عليهم يوم القيامة، ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۖ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ۚ أُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ ۖ ثُمَّ أُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ ۖ أَيْحَسِبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۚ﴾ [القيامة: ٣١-٣٦].

«قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ : قَدْ أَبْدَلَكُمْ اللَّهُ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ»^(١) هما عيداً أهل الإسلام، فلاجله شرع إظهار التجمل والزينة فيهما، والجهر بالتكبير في ليلتيهما، وعند الخروج إليهما، إشهاراً لشرفيهما. وإكباراً لأمرهما ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

عباد الله: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه.

والدين - هو هذا السمع السهل الموصل بمن تمسك به إلى سعادة الدنيا والآخرة - رأسه الإسلام، وعموده الصلاة، وبقية أركانه الصيام والزكاة والحج. فالإسلام ليس هو محض التسمي به باللسان، والانتساب إليه بالعنوان، ولكنه ما قر في القلب، وصدفته الأعمال، وقد جعل الله الصلاة والزكاة والصيام بمثابة محك التمييز لصحة الإيمان، بها يعرف صادق

(١) أخرجه النسائي من حديث أنس بن مالك.

الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان، كما أنها الفرقان بين المسلمين والكفار، والمتقين والفجار؛ لأن الإسلام علانية، والإيمان في القلب.

فالمسلم حقاً هو من يصلي مع المصلين، ويصوم مع الصائمين، ويؤدي زكاة ماله إلى الفقراء والمساكين، فيظهر إسلامه علانية للناس، بحيث يشهدون له بموجبه، والناس شهداء الله في أرضه، وهذه الشرائع تهذب الأخلاق، وتطيب الأعراق، وتزيل الكفر والشقاق والنفاق؛ لأنها تنزيل الحكيم العليم، شرعها من يعلم ما في ضمنها من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأنها هي أسباب سعادتهم الدنية والدنيوية؛ لأن الله سبحانه لا يوجب شيئاً من العبادات، كالصلاة والزكاة والصيام، إلا ومصلحته راجحة، ومنفعته واضحة، ولا يحرم شيئاً من المحرمات، كالزنا والربا والقمار وشرب الخمر، إلا ومضرته واضحة، ومفسدته راجحة. فالتكاتف على العمل بشرائع الإسلام، هو الذي يوحد المسلمين ويؤلف بين قلوبهم، ويصلح ذات بينهم، ويجعلهم مستعدين للنصر على عدوهم.

دين من قام به ساد، وسعدت به البلاد والعباد، ومن ضيعه سقط في الذل والهوان والفساد

﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

دين يحترم الدماء والأموال، ويقول: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»^(١) ويقول:

«لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ»^(٢). أي بموجب الرضا التام، وفي محكم

القرآن، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ

أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

دين صالح لكل زمان ومكان، قد نظم أحوال الناس في حياتهم أحسن نظام، فلو أن الناس

آمنوا بتعاليمه، وانقادوا لحكمه وتنظيمه، ووقفوا عند حدوده ومراسيمه، لصاروا به سعداء؛ لأنه

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني والدارقطني من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه.

﴿يَهْدِي لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ خِلَافٌ مُّبِينٌ﴾ [الإسراء: ٩]. ولما تدفقت جحافل الصحابة المظفرة على بلاد الأكاسرة، وعلم رستم قائد الفرس الأعلى أنها الهزيمة لا محالة، أرسل إلى سعد بن أبي وقاص، أن أخبرونا بما تريدون منا، وما الغرض الذي أقدمكم على بلادنا؟ فكان جوابهم الذي لم يختلف، أن قالوا: نريد أن نخرج الناس من عبادة المخلوق إلى عبادة الله وحده، وأن نخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعتها، وأن نخرجهم من جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فهذا صنيع سلفكم الكرام من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، قد جاهدوا فيه بالحجة والبيان، والسيف والسنان، حتى اتسعت حضارة الإسلام اتساعاً عظيماً لا يماثل ولا يضاهي ولا يضام، فاختطوا المدن، وأنشأوا المساجد، وأشادوا المكارم والمفاخر، ونشروا العلوم والمعارف، وأزالوا المنكرات والخبائث، فأوجدوا حضارة نضرة، جمعت بين الدين والدنيا، أسسوا قواعدهم بالطاعة فدامت بقوة الاستطاعة، وغرسوا فيها الأعمال البارة، فأنتجت بالخيرات الدارة. أمدهم الله بالمال والبنين، وجعلهم أكثر أهل الأرض نفيراً.

وإنما ضعف المسلمون في هذه القرون الأخيرة، وساءت حالهم، وأنقص الأعداء أكثر بلدانهم، وذلك حينما ضعف عملهم بالإسلام، وساء اعتقادهم فيه، وصار فيهم منافقون يدعون إلى نبذه، وإلى عدم التقيد بحدوده وحكمه، ويدعون إلى تحكيم القوانين بدله، فعظم الخطب، واتسع الخرق، واشتدت غربة الدين.

ثم إنه نجم في هذه الأزمنة دعايات مبتدعة، كلها تحوم حول تنقص الإسلام، وعدم التسمي به، والانتساب إليه، وهي دعوة البعثية، ودعوة الشيوعية الاشتراكية، ودعوة القومية العربية. ولكل واحدة أنصار وأعوان، فتقطعت وحدة الإسلام إرباً وأوصالاً، وصاروا شيعاً وأحزاباً، ففشى من بينهم الفوضى والشقاق، وقامت الفتن على قدم وساق، يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم أموال بعض، بحجة الاشتراكية المبتدعة، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهذا العذاب الواقع بهم من التلاحم والتطاحن بينهم، فإنه والله لن يرفع عنهم حتى يراجعوا دينهم الكفيل بنجاح علاج عللهم، وإصلاح مجتمعاتهم. ومن نصائح نبيكم لكم، أنه ما نقض قوم عهد

الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم شديداً. ولن ننسى في هذا المقام مقالة ذلك الإمام - أي مالك بن أنس - عليه الرحمة والرضوان، قال: والله لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

وفي الختام فإنه ما من بلد يفسو فيها الإلحاد والزندقة، فيكفر أهلها بالشريعة الإسلامية، ويتركون الصلاة والصيام الفرضية، وسائر الطاعات المرضية، ويستبيحون الجهر بالمنكرات، وشرب المسكرات الوبيئة، إلا فتح عليهم من الشر كل باب، وصب عليهم ربك سوط عذاب ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

فأفيقوا من رقدتكم، وتوبوا من زللکم، وحافظوا على فرائض ربكم، وتمسكوا بدينكم، قبل ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

(٤٠)

نوع ثانٍ في التذكير بعيد الفطر

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، ونحمده ونشكره ونكبره أن جعلنا مسلمين. ثم يكبر تسعًا نسقًا، ويقول: الله أكبر كلما هل هلال وأبدر. الله أكبر كلما صلى مصل وكبر. الله أكبر كلما صام صائم وأفطر. الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

الحمد لله الذي شرع لعباده طريق العبادة ويسر، وأنار قلوب أوليائه بنور طاعته وبصر، وجعل لهم بكمال صومهم عيدًا يعود في كل سنة ويتكرر. أحمده وهو المستحق لأن يحمد ويشكر، وأشهد أن لا إله إلا الله، خلق فقدر، وشرع ويسر، وأشهد أن محمدًا نبيه ورسوله، صاحب اللواء والكوثر. اللهم صل على نبيك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه الذين أذهب الله عنهم الشرك وطهر، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها الناس اتقوا الله وأطيعوه، وامثلوا أمر ربكم ولا تعصوه، فإن أطعتموه لم يصل إليكم شيء تكرهونه، وإن عصيتموه عاقبكم بما لا تطيقونه، واعلموا رحمكم الله، أنكم خرجتم إلى هذا الصعيد لقصد أداء صلاة العيد، تأسيساً بنبينا عليه الصلاة والسلام، وإظهاراً لشكر إتمام الصيام، والهداية إلى الإسلام. وإن يومكم هذا يدعى يوم الجوائز، وهو أن كل إنسان لأجر عمله حائز؛ لأن سعيكم شتى، فمنكم من حظه القبول والغفران، ومنكم من نصيبه الخيبة والحرمان.

فأما المحافظون على فرائض الطاعات، والمجتنبون للمنكرات، فعملهم مبرور، وسعيهم مشكور، وعيدهم عيد الفرح والسرور، قد حصلوا الحسنتين، وفازوا بالفرحتين. فللصائم فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، فهنئاً لهم، تقبل الله منا ومنهم.

أما التاركون لفرائض العبادات، والمصرون على المنكرات، وشرب المسكرات، فعيدهم عيد الحيبة والندامة، وغضب الرب عليهم يوم القيامة ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (٣٤) ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (٣٥) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (٣٦) [القيامة: ٣١-٣٦].

إن شهر رمضان هو غرة الزمان، ومتجر أهل الإيثار، وقد قوضت الآن منه الخيام، وتقلصت منه الليالي والأيام. وإنه لنعم الشاهد بما عملتموه، والحافظ لما أودعتموه، وإنه لأعمالكم بمثابة الخزائن المحصونة، والصناديق المصونة، وستدعون يوم القيامة لفتحها، يوم تجد كل نفس ما لها وما عليها، والرب ينادي عليها، «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» (١).

«صعد النبي ﷺ المنبر فقال: «آمين، آمين، آمين». قالوا: على ما أمنت يا رسول الله؟ قال: «جاءني جبريل، قال: يا محمد، رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان، ثم خرج فلم يغفر له، فأدخله الله النار. فأبعده فيها، قل: آمين. فقلت: آمين» (٢). فهذا الرجل الذي دخل عليه شهر رمضان، شهر البركات، شهر إقالة العثرات، شهر مضاعفة الحسنات. ثم خرج ولم يحظ منه لا بمغفرة، ولا بإقالة عثرة، ولا بقبول توبة، إنه لرجل سوء، قد سد باب الخير والرحمة عن نفسه، حيث ساءت طباعه، وفسدت أوضاعه، فرضي لنفسه بأن يخسر حين يربح الناس، وأن يقعد ويرقد حين يصلي الناس، وأن يأكل ويشرب حين يصوم الناس، وإن هذا هو الغاية في الإفلاس والإبلاس، ولا يرضى به سوى من سفه نفسه من الناس، كهؤلاء الإباحيين الملحدين الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وخرقوا سياج الشرائع، واستخفوا بحرمات الدين، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، ويدعي أحدهم الإسلام بمعنى الجنسية، لا بالتزام أحكامه الشرعية.

(١) رواه مسلم من حديث أبي ذر عن الرسول ﷺ فيما يرويه من ربه عز وجل.

(٢) رواه ابن خزيمة وابن حبان من حديث أبي هريرة.

«قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ : قَدْ أَبْدَلَكُمْ اللَّهُ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ»^(١) فهما عيدا أهل الإسلام؛ فلاجله شرع إظهار التجميل والزينة فيهما، والجهر بالتكبير في ليلتهما، وعند الخروج إليهما، إشهارًا لشرفهما، وإكبارًا لأمرهما، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. الله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

عباد الله إن الله سبحانه لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه.

والدين هو هذا السمع السهل الموصل لمن تمسك به إلى سعادة الدنيا والآخرة رأسه الإسلام، وعموده الصلاة، وبقية أركانه الزكاة وصيام رمضان وحج البيت الحرام، وقد جعل الله هذه الأركان بمثابة البنيان للإسلام، بل هي الإسلام لمن سأل عن الإسلام. كما أنها الفرقان بين المسلمين والكفار، والمتقين والفجار، وكما أنها محك التمييز لصحة الإيمان. بها يعرف صادق الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان.

فالمسلم الحق هو من يصلي مع المصلين، ويصوم مع الصائمين، ويؤدي زكاة ماله إلى الفقراء والمساكين، فيظهر إسلامه علانية للناس بحيث يشهدون له بموجبه، والناس شهداء الله في أرضه، لأن للإسلام صَوًى ومَنَارًا كمنار الطريق، يعرف به صاحبه.

ومن صفة المؤمنين ما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

أما من يتسمى بالإسلام، وهو لا يصلي الصلوات الخمس المفروضة، ولا يؤدي الزكاة المفروضة، ولا يصوم رمضان، فلا شك أن إسلامه مزيف مغشوش، لا حقيقة له، بل هو

(١) رواه النسائي من حديث أنس رضي الله عنه.

إسلام باللسان، يكذبه الحس والوجدان، والسنة والقرآن. ومن ادعى ما ليس فيه، فضحته شواهد الامتحان.

إن الإسلام ليس هو محض التسمي به باللسان، والانتساب إليه بالعنوان، ولكنه ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال، فاعملوا بإسلامكم تعرفوا به. وادعوا الناس إليه، تكونوا من خير أهله. فإنه لا إسلام بدون عمل.

إن مدار الإسلام على الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن الشرك به، وإن أكثر الناس في هذا الزمان يتسمون بالإسلام اسماً. والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالإيمان، والانقياد لطاعته بالصلاة والزكاة والصيام، والبراءة من الشرك وعبادة الأوثان، فلا يكون مسلماً إلا بذلك. وقد سمعنا عن بعض البلدان العربية الإسلامية التي أهلها مسلمون، والتي يزعم حكامها بأنهم مسلمون، بأنه قد تفشى وانتشر فيها الشرك، وعبادة الأوثان، وصاروا يعبدون قبور الأولياء والصالحين، ويدعونهم ويستغيثون بهم في قضاء حاجاتهم، وتفريج كرباتهم، ويسألونهم الشفاعة، ويقربون لهم القرابين من الذبائح، مما أهل به لغير الله. وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفر؛ لكونه مفسداً للعقول وللنفس، وللسائر البشر، ومحبط لسائر الأعمال من الصلاة والصيام.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. ومع السكوت عنه، وإقرار أهله عليه، فإنه ينتشر

ويشتهر، ويغرق عامة الناس فيه. ومع هذا نرى هؤلاء الحكام الذين يزعمون بأنهم مسلمون يقرون قواعد هذا الشرك في بلادهم، ويممونها ويحترمون أهلها، وهذا عمل مناف لصحة إسلامهم؛ فإن الإسلام الصحيح ينفي الشرك ويحاربه، ويعلن البراءة من أهله. يلتبس رضا الله بسخطهم، فإن من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس. والله أكبر على من طغى وكفر وتكبر.

وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو قوام الدنيا والدين، وصلاح المخلوقين ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

لقد خسر الناس التواصي بالحق، والتناهي عن المنكر، فأدخلوا الشرك الأكبر، وعبادة القبور في سياسة حكام البشر، فلا يتعرض أحد لإنكارها، ونسوا أمر الله الذي أوجب الكفر بها وبأهلها، وحرّم إقرارها والسكوت عنها.

وإن سنة رسول الله ﷺ، وسيرة أصحابه في فتوح البلدان؛ أنهم يبدؤون قبل كل شيء بإزالة معابد الشرك والأوثان، ليطهروا عقول الناس وعقائدهم من خرافات الشرك والأوثان.

من ذلك أنه لما تدفقت جحافل الصحابة المضطرة على بلاد الأكاسرة، وعلم رستم قائد الفرس الأعلى أنها الهزيمة لا محالة، أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أن أخبرونا بالأمر الذي تريدون منا، وما الغرض الذي أقدمكم على بلادنا؟ فكان جوابهم الذي لم يختلف أن قالوا: إنا نريد أن نخرج الناس من الشرك وعبادة المخلوقين إلى عبادة الله وحده، وأن نخرجهم من جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأن نخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعتها.

فهذا صنيع سلفكم الكرام من الصحابة والتابعين، وتابعيهم بإحسان، قد جاهدوا عليه بالحجة والبيان، والسيف والسنان، حتى اتسعت حضارة الإسلام اتساعاً عظيماً لا يماثل ولا يضاهي ولا يضام، فاخطوا المدن، وأنشأوا المساجد، وأشادوا المكارم والمفاخر، ونشروا

العلوم والمعارف وأزالوا الشرك والمنكرات والخبائث، فأوجدوا حضارة نضرة جمعت بين الدين والدنيا؛ أسسوا قواعدها على الطاعة، فدامت لهم بقوة الاستطاعة، وغرسوا فيها الأعمال البارة، فأينعت لهم بالأرزاق الدارة، أمدهم الله بالمال والبنين، وجعلهم أكثر أهل الأرض نفيرًا. ذلك بأنها لما اتسعت الفتوح الإسلامية، وامتد سلطان المسلمين على الأقطار الأجنبية، لم يقصروا نفوسهم على استلذاذ الترف، ورخاء العيش وتزويق الأبنية فحسب، بل عكفوا جادين على تمهيد قواعد الدين، وهدم قواعد الملحدين، ونشر العلوم الإسلامية، وتعليم اللغة العربية. ولما عرف سائر الأمم محاسن الإسلام وسماحته، وذاقوا حلاوته وعدل سادته، أخذوا يدخلون في دين الله أفواجًا أفواجًا طائعين ومختارين، ومن أراد البقاء منهم على دينه، فإنه آمن على نفسه وماله، لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وإنما ضعف المسلمون في هذه القرون الأخيرة، وساءت حالهم، وانتقص الأعداء بعض بلدانهم، ودخلت الوثنية في بعض بلدانهم، إنما كان ذلك كله من أجل أنه ضعف عملهم بالإسلام، وساء اعتقادهم فيه، وصار فيهم منافقون، يدعون إلى نبذه، وإلى عدم التقيد بحدوده وحكمه، ويدعون إلى تحكيم القوانين بدله؛ ولأجله صاروا من أسوأ الناس حالاً وأبينهم ضلالاً، وأشدّهم اضطراباً وزلزالاً، وصاروا جديرين بزوال النعم، والإلزام بالنقم.

فتقطعت وحدة المسلمين إرباً وأوصالاً، وصاروا شيعاً وأحزاباً؛ ففشى فيهم الفوضى والشقاق، وقامت الفتن على قدم وساق، يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم أموال بعض. ولن يرتفع عنهم هذا التطاحن والتلاحم إلا بمراجعة دينهم الكفيل بعلاج عللهم، وإصلاح مجتمعهم، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللكم، وتمسكوا بدينكم، وحافظوا على فرائض ربكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

نوع ثالث في التذكير بعيد الفطر

الحمد لله الذي وفق من أراد هدايته إلى الإسلام، فانقادت للعمل منه الجوارح والأركان، فأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج بيت الله الحرام، ثم يكبر تسعاً ويقول: الله أكبر كلما هل هلال وأبدر، الله أكبر كلما صلى مصل وكبر، الله أكبر كلما صام صائم وأفطر، الله أكبر على كل من طغى على عبادة ربه وتكبر، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

أما بعد:

فيا أيها المستمعون الكرام، إنني أحييكم بتحية الإسلام، وأهنتكم باستكمال شهر الصيام، وإدراك عيد الإسلام، وأسأل الله سبحانه أن يجعله عائداً علينا وعليكم بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لصالح الأعمال.

إن شهر رمضان هو غرة الزمان، ومتجر أهل الإيمان، خصه الله بإنزال القرآن، وأوجب فيه على المؤمنين الصيام، وجعل صومه أحد أركان الإسلام. فمن جحد وجوبه فإنه كافر بإجماع علماء الإسلام، وقد قوضت الآن منه الخيام، وقلصت منه الليالي والأيام، وإنه لنعم الشاهد بما عملتموه، والحافظ لما أودعتموه. إنه لأعمالكم بمثابة الخزائن المحصونة، والصناديق المصونة، وستدعون يوم القيامة لفتحها. يوم تجد كل نفس ما لها وما عليها، والرب ينادي عليها «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِّيْكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).

(١) رواه مسلم من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيها يرويه عن ربه عز وجل.

ثم إنكم خرجتم إلى هذا المكان السعيد؛ لقصد أداء صلاة العيد، تأسيساً بنببيكم عليه الصلاة والسلام. وإظهاراً لشكر نعمة إتمام الصيام، والهداية إلى الإسلام. وإن يومكم هذا يدعى يوم الجوائز، وإن كل إنسان لأجر عمله حائز، لأن سعيكم شتى. فمنكم من حظه القبول والغفران، ومنكم من نصيبه الخيبة والحرمان. فأما المحافظون على فرائض الطاعات من الصيام والصلاة وسائر الواجبات، فعملهم مبرور، وسعيهم مشكور، وعيدهم عيد الفرح والسرور. قد حصلوا الحسنتين، وفازوا بالفرحتين، فللصائم فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، فهنيئاً لهم. تقبل الله منا ومنهم.

أما التاركون للطاعات من الصيام والصلاة، والمستحلون للمنكرات وشرب المسكرات، فعيدهم عيد الخيبة والندامة، وغضب الرب عليهم يوم القيامة ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أُولَى لَكَ فَأُولَى (٣٤) ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى (٣٥) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) [القيامة: ٣١-٣٦].

«صعد النبي ﷺ المنبر فقال: «آمين، آمين، آمين». فقالوا: على ما أمنت يا رسول الله؟ فقال: «جاءني جبريل، قال: يا محمد، رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، فأدخله الله النار، فأبعده فيها، قل: آمين. فقلت: آمين»^(١).

فهذا الرجل الذي دخل عليه شهر رمضان شهر النفحات شهر إقالة العثرات شهر مضاعفة الحسنات، شهر تكفير السيئات، ثم خرج ولم يحظ منه لا بمغفرة، ولا برحمة، ولا بقبول توبة، إنه لرجل سوء قد سد باب الخير والرحمة عن نفسه، قد رضي بأن يخسر حين يربح الناس، وأن يقعد ويرقد حين يصلي الناس، وأن يأكل ويشرب حين يصوم الناس. وإن هذا والله هو الغاية في الإفلاس والإبلاس، قتل هذا الملاحد ما أكفره، أمره ربه بالصلاة فتركها، وأمره بالزكاة فأكلها، وأمره بالصيام فأكل وشرب في نهار رمضان، ومع هذا الكفر المتظاهر البواح، فإنه يتسمى

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث كعب بن عجرة، ورواه ابن خزيمة وابن حبان من حديث أبي

بالإسلام، قد جمع بين ضلال مع إصرار، وكفر مع استكبار، لا ندم يعقبه ولا استغفار. ﴿رَبَّمَا
يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝﴾ ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ [الحجر: ٢-٣].

«قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ : قَدْ أَبْدَلَكُمُ اللَّهُ بِهِمَا خَيْرًا
مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ» ^(١). فهما عيدا أهل الإسلام؛ فلأجله شرع إظهار التجميل والزينة
فيهما، والجهل بالتكبير في ليلتهما. إشهارًا لشرفهما، وإكبارًا لأمرهما ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

عباد الله: اعلّموا - رحمكم الله - أن الله سبحانه لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، إنما
ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. وإن الله سبحانه قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، فهو
يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطي الدين إلا من يحب. فمن أعطاه الله الدين فقد
أحبه. والدين هو هذا السمع السهل الموصل بالتمسك به إلى سعادة الدنيا والآخرة، فأرأسه
الإسلام، وعموده الصلاة. فلا حظ في الإسلام لمن يترك الصلاة. وقد قال النبي ﷺ: «بين
الرجل وبين الكفر ترك الصلاة. من تركها فقد كفر» ^(٢). وقال: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ أَشْرَكَ
بِاللَّهِ» ^(٣) وقال: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ» ^(٤).

والصلاة من الدين، كموضع الرأس من الجسد. وكان السلف الصالح يسمونها الميزان،
فإذا أرادوا أن يبحثوا عن دين إنسان سألوا عن صلاته، فإن حدثوا بأنه لا يشهد الصلاة في
الجماعات علموا بأنه لا دين له، ومن لا دين له يكون جديرًا بكل شر، بعيدًا عن كل خير،

(١) أخرجه النسائي من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه مسلم من حديث جابر.

(٣) أخرجه ابن ماجه وعبد الله بن أحمد في السنة من حديث أنس بن مالك بلفظ: «بين العبد وبين الشرك ترك
الصلاة فإذا تركها فقد أشرك».

(٤) أخرجه أحمد من حديث أم أنس.

يستوجب البغض من المسلمين، والبعد عن وظائف التعليم، حذرًا من أن يعدي غيره بدائه، ولأن الخائن لأمانة ربه، وعمود دينه، جدير بأن يخون أمته، وأهل ملته ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. واستعينوا على تربية أولادكم بأخذهم إلى الصلاة في المساجد معكم؛ لأن من شب على شيء شاب على حبه، ولأنه بمزاولة الولد عليها، والأخذ بيده إليها، يعود حبها ملكة راسخة في قلبه، تحببه من ربه، وتقربه من خلقه، وتصلح له أمر دينه وآخرته، فهي الدواء النافع، والعلاج الناجح تقيم اعوجاج الولد، وتصلح منه ما فسد، وتذكره بالله الكريم الأكبر، وتصدّه عن الفحشاء والمنكر، ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم، فإن إخراجها بركة، وتركها حسرة. فهي قرينة الصلاة. فأداؤها برهان على صحة الإيمان، كما أن أكلها عنوان النفاق. فإن المنافقين يقبضون أيديهم عن أداء زكاة أموالهم. ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. وهي إنما سميت زكاة من أجل أنها تزكي الحال؛ أي تكثره وتوفره، وتنزل البركة فيه. كما تزكي إيمان مخرجها من مسمى الشح والبخل، وتطهره. يقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فادخروها مغنًى، ولا تحسبوها مغرمًا، وقد أقسم نبيكم ﷺ، وقسمه حق. «أنها ما نقصت الزكاة مالاً بل تزيده»^(١) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وعليكم ببر الوالدين، وصلة الأرحام، فإنهما من أسباب سعة الرزق، وبركة الأعمار، فمن أحب أن ييسر له في رزقه، ويمد له في عمره فليصل رحمه، فتواصلوا بالتحف والهدايا، وأنواع

(١) أخرجه الترمذي وأحمد من حديث أبي كبشة الأنباري.

الإكرام، وبالعطف واللفظ ولين الكلام، وبالزيارة بالأقدام للسلام، فإن الأرحام متى تزاوروا وتجالسوا تعاطفوا، ومتى تباعدوا تنافروا وتقاطعوا. فمن وصل رحمه أوصل الله إليه الخيرات، وبسط له البركات في نفسه ونسله وأهله وماله. ومن قطع رحمه قطع الله عنه الخيرات، وحرمه أنواع البركات، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها. وأفضل الصلة صلة الرحم الكاشح - أي المضمهر العداوة - والرحم هم آبؤكم وأمهاتكم، وإخوانكم وأخواتكم، وأعمامكم وعماتكم، وأخوالكم وخالاتكم، وأولاد العم والعمة، وأولاد الخال والخالة، «وَتَعَلَّمُوا مِنْ أُنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ»^(١). «فَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»^(٢). أي رحم، وعليكم بأداء الأمانة فإنها عنوان الديانة، «فَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةٌ لَهُ»^(٣) فأيا رجل استؤمن على مال تاجر، أو مال حكومة، أو مال شركة، فواجب عليه أن يقوم بحفظ ما استؤمن عليه من حفظه وصيانته، حتى يؤديه إلى أهله، فإن هذا من واجبات الإسلام، كوجوب الصلاة والصيام. فمن خالف وخان، وأخذ يختلس ما استؤمن عليه بطريق التلصص الغبي، والخيانة الخفية، فإنه يعد من الخونة؛ الخائن لدينه، الخائن لأمانته، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وما أخذه بسبيل الاختلاس، فإنه يعود عليه بالفقر والفاقة، والقلّة والذلة، ولو بعد حين؛ لأن كسبه بهذا الطريق بمثابة الزبد الذي يذهب جفاء، ويعود إلى وراء.

ومن المشاهد المحسوس، أن الخونة يبتلون في الدنيا بالخزي والعار، وفي الآخرة بالنار ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وإياكم والربا فإنه من الكبائر الموبقة المهلكة، وقد توعّد الله من تعاطاه بانتزاع البركة. والذين يأكلون الربا إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا. والربا أنواع أشده وأشره

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة قال الحاكم: صحيح وأقره.

(٢) متفق عليه من حديث جبير بن مطعم.

(٣) أخرجه أحمد من حديث أنس.

الذين يستدينون النقود من البنوك أو من التجار، ومتى حل الدين ولم يجدوا وفاء زادوا في الثمن ومدوا في الأجل، وهذا هو عين ربا الجاهلية الذي حرمه الإسلام، ونزل في الزجر عنه كثير من آي القرآن، ولعن رسول الله آكله وموكله وكتبه وشاهديه، ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وإياكم والاتجار في الأعيان المحرمة؛ كالخمر ولحم الخنزير، والصور المجسمة، فإنه حرام بيعها، حرام شراؤها، حرام اتخاذها في البيوت، وقد خطب رسول الله ﷺ على رتاج الكعبة. فقال: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ»^(١) فلا يستحل بيع هذه الأعيان بعد هذا البلاغ سوى رجل فاجر لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يحرم ما حرم الله ورسوله، ولا يدين دين الحق، ولا يقول أحدكم إني إنما أبيعها على النصارى والمشركين، فإن الله إذا حرم شيئاً حرم بيعه وشراؤه وثمرته. فلا تتركبوا ما ارتكبت اليهود؛ فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل. واجتنبوا شرب الخمر فإنها مفتاح الشرور، والداعية إلى الفجور، تذهب الثروة، وتفسد الصحة، وتولد في الجسم أنواع الأمراض المضرّة، تهتك الأسرار، وتقصر الأعمار، فهي من ورطات الأمور التي لا مخلص لمن أوقع نفسه فيها إلا بالتوبة منها والإقلاع عنها، ولا يزال الرجل يمشي مع الناس بشرف وعفاف وحسن خلق، حتى يشرب الخمر، ويدب السكر في رأسه، فعند ذلك ينسلخ من الأخلاق الفاضلة، ويسقط في الأخلاق السافلة، والأعمال الفاسدة؛ لأنها أم الخبائث، وقد سماها رسول الله ﷺ «مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ»^(٢). وفي القرآن عنها أعظم مزدجر إن كنتم تعقلون. فقد وصفها بأنها ﴿...رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البائدة: ٩٠-٩١].

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر.

(٢) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي الدرداء.

واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فلهن عليكم رزقهن وكسوتهن، وأن تعاشروهن بالرفق واللين وحسن الخلق. فإن كرهتموهن فحرام عليكم أن تضاروهن لتفتدي منكم ببعض ما آتيتموهن. فمن ضار ضار الله به. فإن طلقتموهن وهن حبالى فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن، أي أجرة الرضاع، ولا تنسوا ما سلف من الصحبة فيما بينكم، فخيركم خيركم لنسائهم، وأقبح الظلم ظلم الضعيفين: المرأة واليتيم.

فأفيقوا من رقدتكم، وتوبوا من زللکم، وحافظوا على فرائض ربكم، واجتنبوا ما حرم عليكم، واستقيموا على الجادة.

(٤٢)

الخطبة الأخيرة من عيد الفطر

الحمد لله الذي خلق الخلق ليعبدوه، وركب فيهم العقول ليعرفوه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ليشكروه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من يخاف ربه ويرجوه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ الذي شرع صلاة الجمع والأعياد، وبين للناس طريق الهدى والرشاد، اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها الناس إنكم لن تخلقوا عبثًا، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاذًا يجمعكم الله فيه، فيحكم بينكم، وقد خاب وخسر عبد خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرّم جنة عرضها السماوات والأرض. أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون إلى أجل مسمى محتوم؟! فمن استطاع منكم أن يقضي عمره وهو محافظ على واجباته من صلاته وزكاته وصيامه فليفعل.

إن قومًا صرفوا جل عقولهم، وجل أعمارهم، وجل اهتمامهم للعمل في دنياهم، واتباع شهوات بطونهم وفروجهم، وتركوا فرائض ربهم، ونسوا أمر آخرتهم، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم.

فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِنَنْظُرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٨-١٩]. أين من تعرفون في مثل هذا العيد من الآباء والإخوان والأصدقاء والجيران، قدموا على ما قدموا من عمل، وجوزوا بالسعادة أو الشقاء؟! أين الذين بنوا القصور المشيدة، وحازوا فنون الأموال والقلاع؟! قد صاروا رميًا تحت الصخر والتراب.

إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته؛ لتعملوا مثل عمله، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.
وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣)

الذكرى في أول شوال وفضل نوافل الصلاة والصيام

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ونشكره أن وفقنا لإتمام شهر الصيام والقيام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من قال ربي الله ثم استقام، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد الأنام، اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن الشهور والأعوام، والليالي والأيام، كلها مواقيت الأعمال، ومقادير الآجال، فهي تنقضي جميعًا، وتمضي سريعًا، والذي أوجدها وخصها بالفضائل، وأودعها باق لا يزول، ودائم لا يحول. هو في كل الحالات إله واحد، ولأعمال عباده رقيب مشاهد، يقبل عباده بفنون الخدم، ليسبغ عليهم فواضل النعم، ويعاملهم بغاية الجود والكرم.

فقد مضى شهر الصيام، ثم أقبلت أشهر الحج إلى بيت الله الحرام، فما من يوم من الأيام، إلا والله فيه على عباده وظيفة من وظائف طاعاته، يتقرب بها إليه، والله فيه لطيفة من لطائف نفحاته، يصيب بها من يشاء بفضله ورحمته عليه، فالسعيد من اغتنم ممر الليالي والأيام والساعات، وتقرب إلى الله بما فيها من فرائض الطاعات، ونوافل العبادات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن فيها من النار وما فيها من اللفحات.

وفي الحديث: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله تعالى أن يستر عوراتكم، وأن يؤمن روعاتكم»^(١).

وقد أمر الله عباده بأن يعبدوه حتى يلقوه؛ لأنه لم يجعل لعمل المؤمن منتهى إلا الموت، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وإن من الحزم وفعل أولي العزم، كون الإنسان إذا عمل عملاً كصيام رمضان، فإنه يحافظ على إتيانه، وعدم إحباطه وإبطاله. وقد قيل: إن من علامة قبول الطاعة أن توصل بطاعة بعدها، ومن علامة ردها أن تعقب تلك الطاعة بمعاصي بعدها تحبطها.

يقول الله سبحانه: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. وهذا مثل ضربه الله لمن له أعمال صالحات؛ من صلاة وصيام وصدقات، فكانت أعماله الصالحة بمثابة الحديقة فيها من كل الثمرات، ثم إنه سلط عليها في آخر عمره بفعل المنكرات، وترك الطاعات، فنزل على حديقته عاصف من العذاب فأحرقها، فلم يتنفع بشيء من ثمرها، مع مسيس حاجته إليها، وكذلك المعاصي تحرق الطاعات وتوبقها.

فما أحسن الحسنات بعد الأعمال الصالحات تتلوها، وما أقبح المنكرات بعد الأعمال الصالحات تمحقها وتعفوها، «فالصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». رواه مسلم.

وروى مسلم أيضاً أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»^(١)، لأن الحسنه بعشر أمثالها، وفعله هذا يدل على رغبته في الخير، وفي العمل الصالح في رمضان وفي غير رمضان.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج بعد الشدة، والحكيم في نوادره، والبيهقي في الشعب، وأبو نعيم في الحلية، كلهم من حديث أنس بن مالك.

ولما قيل لبعض السلف: إن قومًا يتعبدون في رمضان، ولا يتعبدون في غيره، فقال: بئس القوم قوم لا يعرفون الله حقًا إلا في رمضان، كن ربانيًا ولا تكن رمضانيًا. ولما قال أناس من الصحابة: إنا إذا أدينا الفرائض لم نبال ألا نزداد. فقال لهم بعض من سمعهم من الصحابة: ويحكم. والله لا يسألكم الله إلا عما افترض عليكم، وما أنتم إلا من نبيكم، وما نبيكم إلا منكم، والله لقد قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه، وإنكم تخطئون بالليل والنهار، وإن النوافل يكمل بها خلل الفرائض^(١).

فهذا محض الفقه. فإن الإنسان لا بد أن يحصل منه شيء من النقص أو التقصير في الفرائض، فتكون النوافل بمثابة الترقية لخلل الفرائض، كما أن الغيبة تحرق الصيام والاستغفار يرفعه. وفيه حديث مرفوع. وهو أن الله سبحانه أول ما ينظر في أعمال العبد يوم القيامة في صلاته. فإن كملت فقد أفلح ونجح. وإن نقصت، فقد خاب وخسر. ثم يقول الله سبحانه انظروا ما كان لعبدي من تطوع، فكملاوا به فريضته، وكذلك الأعمال تجري على هذا المنوال. ثم إن المحافظة على النوافل هي من الأسباب التي تحبب الرب إلى العبد وتجعله من أوليائه المقربين، وحزبه المفلحين. كما في البخاري أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»^(٢).

فالذي يصوم رمضان، ثم يصوم بعده ستة أيام من شوال، فيكون كصيام الدهر كله، وكذلك صيام ثلاثة أيام من كل شهر؛ فإن فيها فضلاً كبيراً، ويترتب عليها أجرًا كثيرًا، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: «أن أصلي ركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام، وأن أصوم من كل شهر ثلاثة أيام».

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني بمعناه في مسند الشاميين عن عائشة وهو في مختصر قيام الليل للمروزي.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

أما صلاة ركعتي الضحى فإنها بمثابة الصدقة عن سائر أعضاء الإنسان وجسمه، لحديث أن النبي ﷺ قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»^(١) رواه مسلم.

وقال: «رَكْعَتَا الضُّحَى خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٢) والأفضل أن تفعل هذه الصلاة في البيت لقول النبي ﷺ: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم؛ فإن الله جاعل من صلاتكم في بيوتكم خَيْرًا وَلَا تَجْعَلُوا بِيُوتَكُمْ قُبُورًا»^(٣) أي تهجرونها من فعل الصلاة فيها، فالبيت الذي تصلى فيه النوافل، ويقرأ فيه القرآن، ينبسط فيه الرزق، وتنزل فيه البركة، وتغشى أهله الرحمة.

وكذلك صيام ثلاثة أيام من كل شهر، فإنه بمثابة زكاة البدن، ففي الحديث: «لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْجَسَدِ الصَّوْمُ»^(٤) وقال: «صوموا تصحوا»^(٥) وكل من تأمل أحوال الناس فإنه يرى أن الذين يتنفلون بالصوم والصلاة إنهم من أصح الناس أجسامًا، وأطول الناس أعمارًا، وإن الله يمتنعهم في الدنيا متاعًا حسنًا، نتيجة أعمالهم الصالحة؛ لأن الصوم والصلاة بما أنهما من العبادات الدينية، فإنهما أيضًا من الرياضات البدنية التي تعود على البدن بالنشاط والصحة. وللطاعة ضياء في الوجه، وقوة في الجسم، وسعة في الرزق.

وأكد النوافل الوتر. فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَتَرُّ يُحِبُّ الْوِتْرَ»^(٦) وقال: «أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ»^(٧) وقال: «لَوِتْرُ حَقٍّ فَمَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا»^(٨) ومن كل الليل قد أوتر رسول الله. وسأل

(١) رواه مسلم من حديث أبي ذر.

(٢) رواه مسلم والنسائي والترمذي وأحمد من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر بلفظ «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا».

(٤) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٥) رواه ابن السني وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة وإسناده ضعيف.

(٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) أخرجه أصحاب السنن من حديث علي.

(٨) أخرجه أبو داود من حديث بريدة، كررها ثلاثًا.

النبي ﷺ أبا بكر فقال: «متى توتر؟» فقال: أوتر قبل أن أنام. ثم سأل عمر قال: أوتر من آخر الليل. فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو بكر فأخذ بالحزم ونام على الوتر، وأما عمر فأخذ بالقوة. فمن خاف ألا يقوم من آخر الليل، فليوتر أوله، ومن طمع أن يقوم من آخر الليل، فليوتر آخر الليل. فإن صلاة آخر الليل مشهودة وذلك أفضل. وأعلى الوتر إحدى عشرة ركعة، وأقله ركعة واحدة. والوتر حق. فمن أحب أن يوتر بسبع فليفعل، ومن أحب أن يوتر بخمس فليفعل، ومن أحب أن يوتر بثلاث فليفعل». وكان النبي ﷺ يحافظ على عشر ركعات؛ وهي؛ ركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل صلاة الفجر وركعتان قبل الظهر، وركعتان بعدها. فهذه هي السنن التي ينبغي للإنسان أن يداوم عليها، وإن فاته شيء منها سن له قضاؤه.

أما السنن التي لها سبب فمثل تحية المسجد. ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ»^(١) سواء كان في وقت نهي كبعد العصر، أو غيره. وحتى الذي يدخل المسجد يوم الجمعة والخطيب يخطب، أو المؤذن يؤذن، فإنه لا يجلس حتى يركع ركعتين؛ لما في الصحيح «أن النبي ﷺ كان يخطب. فدخل رجل يقال له: سليك الغطفاني، فجلس. فقطع النبي ﷺ خطبته، ثم قال له: «يا سليك، أَصَلَّيْتَ الرَّكْعَتَيْنِ». فَقَالَ: لَا قَالَ: «فَمُ فَصَلَّ رَكْعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا». أي: خففهما»^(٢).

وعلى كل حال؛ فإنه لا أفضل من مؤمن يعمر في الإسلام لفعل صلاة أو صيام أو صدقة، وإن الموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم، ويتمنون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا أعمالاً صالحة، ويقول المفطر منهم: ﴿...رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون ٩٩-١٠٠]. فلا يجابون إلى ما سألوا وقد حيل بينهم وبين العمل، وغلقت عنهم الرهون.

(١) متفق عليه من حديث أبي قتادة.

(٢) أخرجه مسلم من حديث جابر.

وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «جاءني جبريل، فقال: يا محمد، عِشْ ما شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ وَأَحِبِّ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُقَارِفُهُ وَاْعْمَلْ ما شِئْتَ فَإِنَّكَ مُجَزَى بِهِ»^(١). واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وأن عزه استغناؤه عن الناس.

وإذا كان للرجل أو المرأة عادة من فعل الصلاة أو الصيام ثم أقعد عنها بمرض أو كبر، بحيث لا يستطيع أحدهما أن يعملها، فإن الله يقول لملائكته: «أَجْرُوا لِعَبْدِي مَا كَانَ يَعْمَلُ وَهُوَ صَاحِبُ»^(٢). فتجري له أعمالاً صالحة وهو مضطجع على فراشه.

وإذا أتى الإنسان إلى فراشه - ومن نيته أن يقوم آخر الليل - فغلبته عيناه كتب له قيام ليلة، وكان نومه عليه صدقة، وعلى كل حال فإن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

ولما مر النبي ﷺ على قبر حديث عهد بدفن، قال: «ما هذا القبر؟» قالوا: قبر فلان التاجر. فقال: «والله لصلاة ركعتين أحب إلى صاحب هذا القبر من الدنيا وما فيها»^(٣).

فالدنيا مزرعة الآخرة، تزرع فيها الأعمال الصالحة. من خرج منها فقيراً من الحسنات والأعمال الصالحات، ورد على الآخرة فقيراً وساءت له مصيراً.

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولا قيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ألا تكون كمثله وأنت لم ترصد لما كان أرصدا

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللکم، وحافظوا على فرائض ربکم، وتزودوا من دنياکم لأخرتکم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

(١) أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة.

(٤٤)

فضل عشر ذي الحجة وفضل الصيام فيها والصدقة

الحمد لله المعبود على الدوام، المعروف بالكرم والإحسان، كل يوم هو في شأن، وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من قال ربى الله ثم استقام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الأنام، اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام.

أما بعد:

فإن الله سبحانه جعل الشهور والأعوام، والليالي والأيام، كلها مواقيت الأعمال، ومقادير الآجال، فهي تنقضي جميعاً، والذي أوجدها وخصها بالفضائل وأودعها هو باق لا يزول، ودائم لا يحول، هو في كل الحالات إله واحد، ولأعمال عباده رقيب مشاهد، يقلب عباده بفنون الخدم، ليسبغ عليهم فواضل النعم، ويعاملهم بغاية الجود والكرم.

وهذه الأيام العشر هي الأيام المعلومات، المخصوصة بالتفضيل في محكم الآيات. في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ [الفجر: ١-٢]. فأقسم الرب بها لشرفها على حسب ما قيل في تفسيرها. والتي قال النبي ﷺ فيها: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»^(١). وهذا العمل الصالح الذي يحب الله الإكثار منه في خاصة هذه الأيام، يشمل

(١) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

الصلاة والصيام، والصدقة بالمال، وسائر أفعال البر والإحسان، وللصدقة فيها شأن كبير، وأجر من الله كثير، لكون الصدقة في هذه الأيام تصادف من الفقير موضع حاجة، وشديد فاقة، لما يتطلبه الفقير من حاجة العيد من النفقة والكسوة، وسائر المؤنة الضرورية، فهذا من العمل الصالح المتعدي نفعه إلى الغير.

ومن العمل الصالح أيضًا الصيام في هذه الأيام، فقد كان بعض السلف يصومون عشر ذي الحجة كلها. وبعضهم يصوم بعضها؛ لأن هذه الأيام هي أفضل أيام الدنيا؛ من أجل أن فيها يوم عرفة، الذي قال النبي فيه: «أَفْضَلُ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالتَّيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١). ولما سئل النبي ﷺ عن صوم يوم عرفة قال: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ». رواه مسلم عن أبي قتادة، أي يكفر الصغائر؛ ولهذا يستحب الجهر بالتكبير في عشر ذي الحجة في المساجد وفي الأسواق والطرق، جهراً لا يؤذي به أحداً. وفي البخاري أن ابن عمر وأبا هريرة كانا يخرجان إلى السوق فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما حتى إن للسوق لضجة بالتكبير، وصفته أن يقول: الله أكبر، الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

والأضحى سنة ثابتة بالكتاب والسنة، وثابتة من فعل النبي ﷺ وقوله، وفعل أصحابه. وقد قال بعض العلماء بوجوبها على الغني المقتدر، لكونها من شعائر الدين، ومن الطاعة لرب العالمين. فذبحها أفضل من الصدقة بثمنها بإجماع أئمة المذاهب الأربعة؛ لأنها من القرابين التي تقربونها لرب العالمين.

وفيهما التشريف لعيد الإسلام، وعيد حج بيت الله الحرام، وفي فعلها إظهار لشكر نعمة الغنى، حيث جعل من يضحى من الأغنياء المقتدرين ولم يجعله من الفقراء العاجزين. ولا ينبغي أن يحزن العاجز الفقير، فقد ضحى عنه البشير النذير.

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو.

وأعلى الأضاحي ذبيحتان، وتجزئ الذبيحة الواحدة عن الرجل وأهل بيته. وهنا حديث رواه مسلم عن أم سلمة أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن أخذ شعره وأظفاره».

وهذا الحديث قد اختلف العلماء فيه؛ فمنهم من حمل النهي على الكراهة كما هو الظاهر من مذهب الشافعي ومالك، ورواية عن الإمام أحمد، والكراهة تزول بأدنى حاجة. وقال أبو حنيفة: لا يكره أخذ الشعر ولا الظفر، كما لا يكره ملامسة النساء والطيب والثياب.

وقال كثير من فقهاء الحنابلة: إن النهي للكراهة، ورجحه في الإنصاف، وقد أنكرت عائشة على أم سلمة هذا الحديث، وقالت، إنها قاله رسول الله ﷺ في حق من أحرم بالحج، وقد فتلت هدي قلائد النبي ﷺ، فلم يمتنع عن شيء كان يفعله.

فمتى قلنا إن النهي للكراهة - وهو الصحيح - فإن الكراهة تزول بأدنى حاجة، وقد شاع واشتهر عند العامة، أن كل من أخذ من شعر رأسه، أو قلم أظفاره، فإنه لا يجوز له أضحية، وهذا خطأ. ولم يقل به أحد من العلماء.

وعلى كلا القولين فإنه لو أخذ الشخص شيئاً من شعر رأسه، أو لحيته أو أظفاره في عشر ذي الحجة، ثم أراد أن يضحي فإنه يجوز له أن يضحي، وأضحيتة صحيحة بإجماع أهل العلم، وكذلك المرأة لو نقضت شعر رأسها فتساقط منه شعر، فإن ذلك لا يمنعها من فعل الأضحية، بل تضحي وأضحيتها صحيحة. ويجوز لها استعمال الطيب والحناء والخضاب، وكل شيء في عشر ذي الحجة^(١).

والأفضل الإمساك عن أخذ الشعر والظفر فإن فعل لم يمنع من فعل الأضحية. وما شاع على ألسنة العامة في هذه البلاد من قولهم إن من أراد أن يضحي فإنه ينبغي له أن يحرم فهذا قول باطل ولا صحة له، فلا إحرام إلا لمن أراد أن يحج أو يعتمر، وحتى صار الكثير

(١) قال في المغني ص ١٥ - ٥ ج ٣ بعد سياقه للخلاف في المسألة قال: فإن حلق شعره، أو قلم أظفاره، فإنه يستغفر ولا فدية عليه بإجماع العلماء سواء فعله عامداً أو ناسياً.

من الناس يمتنعون عن الأضحية عند أخذهم لشيء من الشعر لظنهم أنها لا تصح أضحيتهم، فلو كان الكف عن أخذ الشعر والظفر واجباً في حق كل من يضحي، لما خفيت على عائشة أم المؤمنين، وهي في بيت رسول الله ﷺ، وهي أفقه وأعلم بالسنة من أم سلمة. ورسول الله ﷺ كان يضحي كل سنة عنه، وعن أهل بيته. فمثله لا يخفى لو كان صحيحاً.

وقد اعترضت عائشة على أم سلمة في هذا الحديث. وقالت: إنما قاله رسول الله ﷺ في حق من أحرم بالحج. وهذا معقول المعنى؛ فإن الحاج إذا أحرم لا يجوز له أن يأخذ شيئاً من شعره ولا أظافره. وحسبك في فضل الأضحية أن للمضحي بكل شعرة حسنة، حتى من الصوف، كما في حديث زيد بن أرقم قال: «قلنا، أو قالوا: يا رسول الله ما هذه الأصاحي قال «سُنَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ». قَالُوا فَمَا لَنَا فِيهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةٌ». قَالُوا فَالصُّوفُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «بِكُلِّ شَعْرَةٍ مِنَ الصُّوفِ حَسَنَةٌ»^(١).

ولا يترتب عليها هذه الفضائل إلا إذا وقعت موقعها من الصفة والصحة المأمور بها على الوجه المطابق للحكمة في مشروعيتها بأن قصد بها امتثال أمر الله، واتباع سنة رسوله ﷺ، وتجردت عن البدع الخاطئة، والتصرفات السيئة، فيكون ذبحها أفضل من الصدقة بثلثها؛ لأن في ذبحها إحياء لسننها، وامتنالاً لطاعة الله فيها، وخروجاً من عهدة من قال بوجوبها، ولكونه يتمكن من الصدقة كل وقت، ولا يتمكن من فعل الأضحية إلا في الوقت المحدد لها، أشبه العقيقة. فإن ذبحها أفضل من الصدقة بثلثها بالإجماع. أما إذا وقعت على غير ما شرعه الله ورسوله ﷺ فإنها تكون شاة لحم قدمها لأهله.

أما الأضحية عن الميت فإنه بمقتضى التبعية والاستقراء لكتب الصحاح والسنن والمسانيد، لم نجد حديثاً صحيحاً، ولا دليلاً صريحاً من كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، يأمر فيه بأضحية عن الميت، أو يشير إلى وصول ثوابها إليه، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه ضحى

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن أرقم.

لميته، أو أنه أوصى أن يضحي عنه بعد موته، أو أوقف وقفاً في أضحية، فليس لها ذكر عندهم، لا في أوقافهم، ولا وصاياهم، ولا تبرعاتهم لموتاهم. فلو كانت الأضحية عن الميت من السنة، أو أنه يصل إلى الميت ثوابها، لسبقونا إليها. فعدم فعلها يعد من الأمر المجمع عليه زمن الصحابة، واستصحاب حكم الإجماع في محل النزاع حجة. كما أن الظاهر من مذهب الإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أبي حنيفة أنه لا أضحية للميت لعدم مشروعيتها. فهي شاة لحم لكون الأضحية الشرعية: إنما شرعت في حق الحي تشريقاً لعيد الإسلام وإظهاراً للفرح به والسرور، أو الشكر على بلوغه.

والنبي ﷺ قد أرشد الأولاد بأن يتصدقوا عن والديهم الميتين، ولم يأمرهم بأن يضحوا عنهم، فمن ذلك ما روى البخاري ومسلم أن سعد بن عباد قال للنبي ﷺ: يا رسول الله ﷺ إن أُمِّي افتلنت نفسها ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت. أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم تصدق عن أمك». ولم يقل: ضح عن أمك.

وروى مسلم في صحيحه أن رجلاً قال: «إِنَّ أَبِي مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً وَلَمْ يُوصِ فَهَلْ يُكَفَّرُ عَنْهُ أَنْ أَتَصَدَّقَ عَنْهُ قَالَ «نَعَمْ تصدق عن أبيك»»^(١).

ومثله ما روى أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، أن رجلاً من بني ساعدة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبوي قد ماتا، فهل بقي علي من برهما شيء أبرهما به بعد موتها؟ قال: «نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا»^(٢) فهذه وصايا رسول الله ﷺ بالأمر بالصلة والصدقة، وبالدعاء الذي يصل إليهما نفعهما. ولو كانت الأضحية عنهما بعد موتها أنها من البر، أو أنه يصل إليهما ثوابها، لأرشده النبي ﷺ إلى فعلها. ومثله صدقة عمر التي استشار النبي ﷺ فيها: فقال له:

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود وابن حبان من حديث أبي أسيد.

«أَحْبَسْ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْ بِشِمَرَتِهَا»^(١) فتصدق بها عمر على الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف. لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم صديقاً غير متمول مالا.

ولو كانت الأضحية من عمل البر، أو أنه يصل إليه ثوابها بعد موته، لما ساغ لعمر أن ينساها لنفسه. وفي صحيح مسلم. أن النبي ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(٢). ولم يقل أو أضحية تذبح له بعد موته. ولا تسمى الأضحية صدقة. لكنه لو ضحى بقصد الصدقة عن والديه أو أحدهما بذبيحة يدخلها على أهل بيت من الفقراء؛ فإنها نعم الصدقة، ويصل إليهما ثوابها. إذ هي من الصدقة المستحبة. وحيث لم يثبت عن النبي ﷺ أنه أمر أحداً أن يضحي عن ميتة، ولم يثبت عن أحد من الصحابة أنه ضحى عن ميتة، ولا أوصى أن يضحي عنه بعد موته، علمنا حينئذ أنها ليست بمشروعة، ولا مرغوب فيها، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، إلا أن يذبحها ليتصدق بلحمها على الفقراء والمساكين فجازئ. لكن الصدقة بثمن الأضحية عن الميت أفضل من ذبح الأضحية عنه، لكون الصدقة خاصة في عشر ذي الحجة تصادف من الفقير موضع حاجة وشدة فاقة، لما يتطلبه العيد من الحاجة والنفقة والكسوة له ولعِياله، فتقع هذه الصدقة من الفقير بالموقع الذي يحبها الله، من تفريج كربته، وقضاء حاجته، وإدخال السرور عليه وعلى أهل بيته، والقرآن مملوء بذكر الحث على الصدقة، وأنها لا تنقص المال، بل تزيده. وهي من العمل الصالح الذي يحبه الله خاصة في هذه الأيام العشر يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٥]. وقد مدح الله من أتى المال على حبه ﴿ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ولا أفضل من كون

(١) أخرجه الدارقطني من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه مسلم وأصحاب السنن من حديث أبي هريرة.

الإنسان يرى صدقته ماضية في حال صحته وحياته، كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «أفضل الصدقة أن تصدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ، وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الْحُلُقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذًا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ»^(١) وأكثر الناس إنما يتصدق عند الموت، ثم يأكل الوصي صدقته، ولا ينفذها في سبيلها. فما نفع الإنسان مثل اكتسابه لنفسه بدون أن يتكل على وصيه.

وحسن ظنك بالأيام معجزة فظن شرا وكن منها على حذر

غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت مسافة الخلف بين القول والعمل

أسأل الله سبحانه أن يعمننا وإياكم بعفوه، وأن يسبع علينا وعليكم واسع فضله، وأن يدخلنا برحمته في الصالحين من عباده، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.